

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى، والشؤون الدينية يلقى كلمة افتتاح الملتقى بحضور السلطات المدنية والعسكرية فى الولاية نذكر منهم بالخصوص السادة : العقيد الهاشمى هجرس ، رئيس المنطقة العسكرية الخامسة ، وأحمد على غزالى ، والى عنابة ، والمحافظ الوطنى للحزب

صناعة ومناعة! (*)

للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خاتم المرسلين

بعد الترحيب الصادق بحضرات السادة الأفاضل وجميع ضيوف الجزائر، من أساتذة ، وصحافيين ، وطلبة

(*) كلمة افتتاح الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة .

أود أن أبـــدأ كلمة الإفتتاح هـذه للملتقى العاشر في عنابة بما أنهيت به كلمة الإختتام للملتقى التاسع في تلمسـان ، وأقول لكم ولنا جميعا :

مرحبا في العاصمة الصناعية مدينة الحجار، التي قاومت بالأمس البعيد الغزاة والفجار، معترك دونات والدوناتيين ضد القديس والعصابة ، ومثوى أبي مروان للعلماء رئيس النقابة ،حقل العنب والعناب : عنابة !

حضرات السادة ،

أمامنا ثلاث نقاط قد تبدو لأول وهلة متباعدة ، ولكنها في الواقع تنسلك كلها في سياق واحد ، وتستجيب لفكرة واحدة هي : كيف يكون الإنسان ابن عصره مع البقاء على أديم مصره ، وبدون أن يصبح نسخة غيره ، مستفيدا من تجارب الماضي لأمته والإنسانية كلها ، بانيا حاضره ، ومخططا لمستقبله .

1 فالنقطة الأولى هي " ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في الغرب الإسلامي ، وخاصة في بلدان المغرب ، وإبريا ، وصقلية ، ودورهما في النهضة الأوروبية " ونستمر بها في معالجة موضوع مبلغ الحضارة والفكر الإسلاميين في عصورهما الزاهية ، ومدى تأثيرهما في نشأة ثم انطلاق ما يسمى بالنهضة الأوروبية في بداية العصر الحديث .

هل كان أسلافنا قد اسهموا حقا في التراث الإنساني ، وكانت لهم اليد الطولى في حضارة العصر الحديث وفكره بما أبدعوه، وآثروا به أنفسهم ، وقدموه للإنسانية ، من إنتاج

أصيل كان له الدور الفصل في حضارة اليوم، كما يبدو لنا واضحا، وكما برهن عنه الكثير في الغرب قبل الشرق، أم كان دورهم مقتصرا على الترجمة والنقل النزيه أو غير النزيه، كما ادعى آخرون في كل من الغرب والشرق؟

وهذه الدراسة التي تقدمونها اليوم على غاية من الأهمية لا لشبابنا فقط، وشباب العالم الإسلامي على سعته، ولكن أيضا، فيما نرى، لأوروبا، وأمريكا، والإنسانية جمعاء، بما ستعززه من روح نزاهة البحث العلمي، وما ستحث عليه من زيادة الفحص والتدقيق، وتدفع إليه من التعاون والدرس في سبيل الحقيقة وخير الإنسان.

2- والنقطة الثانية هي:

"ضرورة التصنيع في العالم الإسلامي ووجوب اختيار أحسن الطرق لتجنب أمراض المجتمعات الصناعية" وتبحث عن كيفية الخروج من مأزق وجدت فيه الإنسانية نفسها على مر العصور والحضارات، ولكنه ازداد اليوم حدة أكثر من أي وقت مضى خلال التاريخ، ولم يسبق أن مرت به على هذه الشدة تجارب الأمم، وهو حتمية التصنيع، بل الإسراع في هذا التصنيع من جهة، حتى لا يبقى عالمنا الإسلامي يقدم طاقاته البشرية والمادية مواد أولية وتبقى لشعوبه في سلم التصنيف العالمي قيمة ثانوية، ومن جهة أخرى ضرورة تحاشي الإنعكاسات السلبية لما يخلقه الإزدهار المادي البحت من فراغ في النفوس، وضحالة

فى العقول، وضعف فى القيم التى تجعل من الإنسان إنسانا، وذلك أنه ما من مجتمع اقتصر فى حضارته على الجانب المادى المجرد، وأهمل البعدين الروحى والأخلاقى، إلا وانحل واختل، وأى نظام مهما كان قويا إذا كان متهالكا على الاستهلاك انتهى إلى الهلاك !

ولقد أكد على هذه البديهيات المستخلصة من تجارب الشعوب وتاريخ الحضارات علماء ومفكرون خاصة فى أوروبا اليوم، ونكتفى هنا بذكر معاصرين اثنين، أحدهما هو أرنولد طويبنى، من أقدم دولة صناعية فى أوروبا، وثانيهما من أحدثها فى عصرنا هو خوسى أورتيقا إى قاسيط .

وإن ما يشاهده أو يسمع عنه الملاحظ اليوم فى أوروبا الغرب والشرق من مظاهر ما يسمى حقا بأزمة حضارة لأكبر منذر لكل ذى عقل تتجاوز اهتماماته نحو أمته يومها إلى غدها، ويروم لها الخلود ما خلد الإنسان !

3 والنقطة الثالثة والأخيرة هى " الأبعاد الروحية، والسياسية، والإقتصادية، والإجتماعية للعبادات، وأهميتها لكل من الأمة والفرد "، ونروم من خلال طرقها النظر بأنفسنا على طريقة أبى حامد وعلى ضوء القرن العشرين فيما إذا كانت لاتزال الأديان، والدين الإسلامى بالذات، صالحة للإنسان، ناجعة له من أمسه حتى رمسه، وفى أصله وفصله، وتعالج قضايا دينه ودنياه، وتلاحقه إن سلبا أو إيجابا، حسب سلوكه، فى سافلته وعليائه. أم أنها تجاوزها الزمن، وأصبحت أضغاث

أحلام، يخدر بها ضعاف العقول عن واقعهم المر، كما ادعى ذلك مدعون ؟

أم هل هي قيم خالدة ونبراس الإنسان في دهاليز الدنيا قبل الآخرة، كما آمن من آمن عن عقل ودراية، لا عن جزم ومجرد رواية، وكانت على الأقل بعدا أساسيا في حياة أي مجتمع بالأمس، واليوم، وغدا، وكان الجازمون بعكس ذلك هم الأدعياء وضحايا الدوغماتيكية والأحلام، كما كتب ذلك أكثر من مرة المفكر الفرنسي المعاصر روجي غارودي عن تجربة وسابق معاناة ؟

كثيرا ما يقال لشباب اليوم إن الدين ضد العلم. وهل منع الدين بالأمس أمثال الرازي، وابن سينا، وابن رشد، وابن النفيس، وابن الجزار، والبيروني، وأبي حمزة عن اكتشافاتهم وإنا رتهم الإنسانية ؟

وهل أعاق اليقين الروحي روح البحث والإكتشاف بالأمس القريب أمثال باستور وآينشتاين ؟ ألم يكن كلاهما يخرجان من مخبريهما إلى معبديهما، الأول إلى كنيسته، والثاني إلى بيعته ؟

ما دور العبادات اليوم في حياة الفرد والأمة ؟ وما هي مختلف أبعادها لصالح المجتمع وللإنسانية ؟

هذا ما عليكم عرضناه، ونود منكم لو عرفناه، وإن الإستفهام ليس دائما إنكاريا، بل إن منه لإقراريا، ولسنا أصدق إيمانا من أبي حامد، وعلى الله قصد السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله

ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين فى الغرب الإسلامى ودورهما فى تغذية النهضة العلمية والحضارة الأوروبية

محمد عبد الله عنان
مؤرخ ـ مصر



فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، أو الحادى عشر الميلادى ، بدأت بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية ، تلك المعارك المضطربة الطويلة الامد ، التى استمرت بين المد والجزر ، زهاء قرنين ، ونعنى الحرب الصليبية ، وهى الصفة التى شاء الغرب ان يسبغها عليها ، والتى اريد بها أن تحجب أغراضها الحقيقية الدنيوية والاستعمارية • وكانت طوائف الفرنج الغازية، التى اجتمعت فيها زهرة الفروسية الاوروبية ، من كل أمة ومجتمع ، تعتقد أنها سوف تلقى فى المشرق أمما همجية وثنية ، بعيدة عن كل حضارة وتمدن ، فاذا بها تصطدم بأمم قوية ناهضة ، حسنة التسليح والاهبة ، تدافع عن نفسها خير دفاع ، وتعيش فى عالم آخر من التقدم والازدهار ، غير ذلك العالم القائم ، الذى تصوره الغزاة ، وتنعم بالثراء والرفاهية ، ولا تقل فى تقدمها

وحضارتها ، عن الدولة البيزنطية ، التى كانت يومئذ كعبة أوروبا النصرانية ، ومثلها الاعلى فى الحضارة والتقدم ٠

وهكذا بهرت طوائف الفروسية الاوروبية ، بما وقعت عليه أبصارها فى المشرق ، من مختلف ضروب العلوم والتقدم ، واضحت المعارك المضطرمة بين الشرق والغرب ، ميادين للكسب الحضارى ، وفتح الغرب عينيه ، على ما لم يكن يحلم به ، من معالم الحضارة والعلوم المشرقية ، وبدأت محاولاته المنظمة ، للاقتباس منها والانتفاع بثمارها ٠

وكان صدى هذه المحاولات ، يتردد فى الوقت نفسه فى الناحية الاخرى من البحر الابيض المتوسط ، حيث كانت اسبانيا المسلمة ، التى كان الغرب يعرف عنها ، أكثر مما يعرف عن المشرق ، لقربها منه ، تثير بحضارتها وعلومها وفنونها ، اهتمام الامم الاوروبية ، وحيث كانت جارتها المباشرة ، اسبانيا النصرانية ، تلعب دورها المأثور ، فى الاقتباس والاتصال الحضارى ٠ وفى الوقت الذى كانت تضطرم فيه المعارك الصليبية فى المشرق ، أعنى خلال القرن الثانى عشر ، كانت مدارس الترجمة ولا سيما مدرسة طليطلة الشهيرة ، وهى التى اسسها العلامة الايطالى جيراردو الكريمونى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، تقوم بعملها المتصل المنظم فى نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية ، وهى يومئذ لغة العلم فى سائر انحاء أوروبا ٠

ومن ذلك الحين ، تبدأ مساهمة الحضارة الاسلامية ، فى تكوين الحضارة الاوروبية وقد امتدت هذه المساهمة زهاء ثلاثة قرون ، وكان لها أثرها الواضح ٠ ولكن تأخر العالم الاسلامى ، منذ أواخر القرن الخامس عشر ، ثم تسلط الاستعمار الاوروبى ، بعد ذلك ، منذ القرن الثامن عشر ، على كثير من الامم الاسلامية ، قد حجب كثيرا من الحقائق العلمية والحضارية ، التى يدين بها الغرب الى حضارة الاسلام ، وتركت الكلمة فى معظم الاحيان للبحث المغرض ٠ على ان هذا التشويه لحقائق التاريخ ، لم يقو على الصمود ، أمام نتائج البحث النزيه الحر ٠ فمنذ أكثر من قرن من الزمان يدرس تراث الاسلام والعربية، وترى الحقائق المدهشة عن القسط العظيم ، الذى ساهمت به المدنية الاسلامية ، فى بناء الحضارة الاوروبية والحضارة الانسانية بوجه عام ٠ وفى وسعنا الآن ، أن نتتبع

هذه المساهمة فى كثير من نواحيها ، العلمية والادبية والفنية وغيرها ، من مقومات الحضارات العظيمة ٠

لبث العالم الاسلامى مدى عصور ، يشغل مركز الصدارة والتفوق فى العالم القديم، سواء فى الشرق أو الغرب ٠ واذا استثنينا الدولة البيزنطية ، وبقايا الحضارة الرومانية القديمة ، فقد كانت المدنية الاسلامية ، تسطع وحدها خلال حلك العصور الوسطى ، فى الوقت الذى كانت فيه الامم الاوروبية ، ما تزال تعيش فى غمار من البداوة والتأخر ٠ ولما وصلت المدنية الاسلامية الى ذروتها فى نحو القرن الثانى عشر، كان الغرب قد بدأ يستيقظ من سباته الطويل أولا بتأثير الهزة العنيفة ، التى شعر بها خلال الحروب الصليبية ، والتى انتهت بتحطيم طوائف الفرسان المستبدة ، التى لم يكن لها شعار سوى النار والسيف وثانيا بانحلال نظام الاقطاع ، الذى لبث عصورا يشل سائر ضروب النشاط العقلى والسلمى ، وثالثا بقيام القوميات الاوروبية ، ونهوض المجتمعات المدنية المنتجة فى داخلها ٠

وكانت بقايا المدنية الرومانية ، ممثلة بالاخص فى المدنية البيزنطية ، هى اقيم تراث يهتدى به الغرب فى خطواته الحضارية ، منذ القرن السابع الميلادى فلما فتح الغرب عينيه على تراث الحضارة الاسلامية ، ألفى فيه ميدانا أوسع واخصب ، وأكثر جدة وتقدما ٠ ومن ثم فقد أخذينهل من ثماره ، فى مختلف الميادين ، ولسنا ندعى أننا نستطيع ، فى مثل هذا المقال المحدود ، أن نحيط بسائر العلوم والفنون التى اقتبسها الغرب ، وانتفع بها فى تكوين مدنيته ، فهذا بحث يقتضى المجلدات الضخمة ٠ ولكنا سوف نحاول فقط أن نقدم لمحات عابرة ، عن هذا التأثر والتفاعل الحضارى العريق ٠

وربما كانت بحوث المسلمين فى الطب والكيمياء والطبيعة ، هى اعظم ما افاده الغرب ، وما افادته المدنية الانسانية من هذا التراث ٠ وقد كان هذا الميدان ، منذ أقدم العصور ، يجذب بسحره وأسراره ، عقول الباحثين فى كل قطر ٠ وقد خصه المذكرون المسلمون ، سواء فى الشرق أو الغرب ، بأعظم عناية ، وكانت لهم فيه بحوث واكتشافات عظيمة ، كانت أخصب مستقى للغرب ، فى هذا الميدان ٠ وقد أحرز المسلمون بالاخص ،

فى ميدان الطب ، أعظم مكانة • وكان الاطباء المسلمون ، سواء فى الشرق أو الغرب ، أعظم الاطباء فى العصور الوسطى • وقد فتحت بحوثهم واكتشافاتهم فى ذلك الميدان آفاقا جديدة ، كان لها أعظم الاثر ، فى تطور الطب ، فى تلك العصور • ولعل الحضارة الغربية لم تفد من تراث الاسلام ، قدر ما أفادت من بحوث الاطباء المسلمين • ولدينا من أعلام الطب المسلمين سواء فى الشرق أو الغرب ثبت حافل ومنه اسماء ، لبث الغرب مدى عصور وما زال حتى عصرنا ، يذكرها مع عميق الاجلال والتقدير •

وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الرازى ، الذى عاش فى النصف الاول من القرن العاشر الميلادى • وقد كان الرازى ، من أعظم الاطباء والكيميائيين الذين عرفهم التاريخ • ويعتبره الاستاذ سارتون مؤرخ العلوم ، أعظم مشخص فى الاسلام ، وفى العصور الوسطى • وله بحوث هامة فى مواد الجراحة الرمدية ، والولادة وأمراض النساء • وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى اللاتينية • ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات الاوروبية • وكانت ما تزال حتى القرن الثانى عشر من أهم وأقيم المراجع الطبية •

على ان اعظم اطباء الاسلام قاطبة هو الشيخ الرئيس ابو على بن سينا المتوفى سنة : 1037 م ، والمعروف للعالم الغربى باسم Avicenna • ويجمع النقد الغربى على اعتبار ابن سينا ، من أعظم رجالات العلم فى العالم كله • ويصفه الاستاذ سارتون بانه من أعظم الاطباء فى سائر العصور ومن اشهرهم ، بين سائر الاجناس والبلاد والعصور ، ـ وقد كان ابن سينا طبيبا ، وفيلسوفا ، رياضيا ، وفلكيا ، وانسيكلوبيديا • وقد كتب فى الطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة والمنطق وغيرها • ولكنه عرف بالاخص بتراثه الطبى • وتعتبر موسوعته الطبية المسماة « بالقانون » من أعظم المراجع الطبية فى العصور الوسطى • وقد لبثت قرونا عمدة العلوم الطبية فى الشرق والغرب • وترجمت الى اللاتينية على يد جيرارد والكريمونى ، ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات • وطبع « القانون » بنصه العربى واجزائه الخمسة فى مجلد ضخم بمطبعة آل حدتشى فى رومة سنة 1593 •

اما فى الغرب الاسلامى فانا نجد فى اسبانيا المسلمة ثبتا آخر من الاسماء اللامعة ، وفى مقدمتها أبو القاسم بن خلف الزهراوى القرطبى المتوفى سنة 1013 م ، ويعتبر

أبو القاسم اعظم جراح فى الاسلام ، وكان لطرائقه المستحدثة ، تاثير عظيم فى تقـدم الجراحة فى أوروبا حتى عصر الاحياء • وللزهراوى موسوعة طبية عظيمة يتناول فيها جراحة العين والاذن والاسنان • وله كتب أخرى فى علم الصحة والعلاج • وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية والقشتالية فى وقت مبكر ، وذاعت فى جميع انحاء أوروبا •

وأسرة بنى زهر الاشبيلية ، وعميدها الوزير الطبيب أبو العلاء بن زهر ، ثـم ولده أبو مروان بن زهر المتوفى سنة 1162 م ، وهو المعروف فى اللاتينية باسم Avenzoar وكان ابن زهر ، يعتبر اعظم طبيب ومشخص فى العصور الوسطى بعد الرازى • ويعتبره تلميذه ابن رشد اعظم طبيب بعد جالن • ويعتبر كتابه « التيسير » من اعظم مراجـع الطب فى الـــــعصور الوسطى • وكان لمؤلفاته ، التى ترجمت كغيرها الى اللاتينيـة ، أثر عظيم ، فى سير المباحث الطبية فى أوروبا •

والفيلسوف أبو الوليد بن رشد ، الذى برع فى الطب فى الوقت نفسه ، واشتهر فى المغرب منذ القرن الثالث عشر بالترجمة اللاتينية لكتابه « الكليات » فى الطب : وقد ألفه فى أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، بعيدا عن التفاصيل الجزئية ، وهى التى عنى بتناولها وشرحها استاذه ابن زهر ، فى كتاب التيسير وقصد ابن رشد من تأليف الكليات كتابه وكتاب ابن زهر فى الجزئيات ، وحدة تكمل بعضها ، وتستوعب كل ما عرف عن صناعة الطب فى هذا العصر •

ونحن نقف فى ذكر الاسماء عند هذا الحد • وما نود أن ننوه به هنا هو أن العلـوم الطبية تقدمت على يد المسلمين ، فى العصور الوسطى ، تقدما عظيما ، وأن بحوث الاطباء المسلمين واكتشافاتهم فى هذا الميدان ، كان لها أعمق الآثار فى تقدم الطب فى أمـم الغرب • وكانت مدرسة سالرنو الطبية ، التى ازدهرت فى جنوب ايطاليا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، من أعظم حلقات الوصل بين الشرق والغرب فى هذا الميـــدان • وكان لبحوث المسلمين الطبية فى مناهجها وتعاليمها أعظم تأثير • وكان جنوب ايطاليا معبر الحضارة الاسلامية ، التى ازدهرت فى صقلية زهاء قرن ونصف • وكان الطب يدرس منذ القرن الثالث عشر فى معاهد ايطاليا وفرنسا على ضوء المؤلفات العربية •

ولقد كان لصقلية الاسلامية دورها الخاص فى هذا الاشعاع العلمى الذى تسرب الى دوائر الغرب العلمية • وكانت صقلية فى الواقع أندلسا صغرى ، تقــوم بدورها الحضارى فى ايطاليا الجنوبية ، وفى منطقة البحر الابيض الوسطى • وقد استمر هــذا الدور الحضارى فى بث مؤثراته حتى بعد أن سقطت صقلية الاسلامية فى أيـــدى النورمان فى سنة 479 هـ (1086م) ، وغدت ارضا نصرانية • وكان الفاتحون النورمان انفسهم أول من قدر تراث الاسلام الحضارى فى الجزيرة وأول من ترجمه ، واستقى منه •

ويحدثنا الرحالة ابن جبير الاندلسى ، الذى زار الجزيرة فى سنة 580 هـ (1185م) ، وتجول فى حواضرها مثل مسينى وبلرم واطرانيش (ترابانى) عما شاهده يومئذ من أحوال البقية الاسلامية فى الجزيرة ، وعما وقف عليه من أحوال ملوك النورمان ، ومن عظيم تقليدهم لتراث الحضارة الاسلامية ، والاستقاء منه فى نظم بلاطهم ، وفى حياتهم العامة والخاصة ، واستعمال المسلمين فى معظم شؤونهم وأحوالهم ، وكونهم يؤثـرون الانتفاع بعلومهم • وكان عاهل الجزيرة الدوقوجراد رجار الثانى ، يدعو الى بـــلاطه كثيرا من العلماء المسلمين النابهين ، من الصقليين المحليين ، ومن افريقية والمغرب ، وكان من هؤلاء ، حسبما تعرف الجغرافى العظيم ، الشريف الادريسى السبتى ، الذى وفد على الجزيرة فيما بين سنتى (524 ـ 535 هـ) (1130 و 1140 م) ، واستقبل فى بلاط صقلية بأعظم ترحاب ، ووضع تحت رعاية هذا الملك المستنير خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ على كرة فضية عظيمة • ثم وضع بعد ذلك معجمه الجغرافى الخالد « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وأتمه فى شهر شوال 548 هـ (يناير 1154 م) ، منوها فى مقدمته بفضل الملك النورمانى فى تشجيعه ورعايته • ونحن نعرف أن خريطـــة الادريسى الشهيرة لاقاليم العالم السبعة ، لبثت طوال العصور الوسطى ، مستقى لكثير من الجغرافيين الاوروبيين ، ولا سيما العلامة البندقى مارينو سانوتو (1260 ـ 1328م)، الذى استرشد بها فى وضع معظم خرائطه •

وهذا ، ولم يكن نبوغ المسلمين فى ميدان العلوم قاصرا على الطب وحده ، بل كان شاملا لسائر العلوم الاخرى التى عنيت بها سائر الحضارات العظيمة • فالى جانـب الطب ، كانت الكيمياء والرياضة والفلك والفلسفة وغيرها ، وهى جميعا مما يزهـــو

به تراث العربية · وقد كانت البحوث الاسلامية خلال العصور الوسطى ، فى هذه الميادين تفوق بحوث سائر الامم الاخرى · وقد استطاع العلماء والمسلمون بالاخص ، ان يقوموا فى ميدان الكيمياء باكتشافات مدهشة · وقد كانت الكيمياء العلمية ، تعتبر فى الواقع علما اسلاميا محضا ، وبلغت ذروة ازدهارها على يد العلماء المسلمين فى معامل الرى وبغداد والقاهرة ، وقرطبة واشبيلية · وانه ليصعب علميا ان نستعرض ذلك الثبت الطويل من الكيمائيين المسلمين فى كل عصر وكل قطر ، ولكنا نكتفى الى جانب ذكر أعظم عالمين مسلمين ظهرا فى المشرق فى ميدان الكيمياء ،وهما جابر بن حيان وابى بكر الرازى ، ان نقول ان الغرب قد وقف على تجارب الكيميائيين المسلمين واكتشافاتهم فى عصر مبكر ، وترجمت بحوث جابر والرازى كما ترجمت بحوث ابن زهر الاندلسى الى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر الميلادى على يد جيراردو الكريمونى ، ثم ترجمت بعد ذلك الى مختلف اللغات الاوروبية · وكانت المعاهد الاوروبية تستقبل كتب الكيمياء العربية بحماسة واجلال ، اذ كانت تتفوق بمادتها واكتشافاتها على الكتب اليونانية · وقد تسرب كثير من الكلمات العربية الكيميائية الى مختلف اللغات الاوروبية، وما زالت تمثل فيها الى اليوم ، مثل الابنيق والقلويات والكحول وغيرها (ولم تكن مساهمة التراث الاسلامى فى الحضارة الاوروبية فى ميدان الرياضة والفلك أقل شأنا · وقد ظهرت عبقرية العلماء المسلمين ، فى هذا الميدان فى عصر مبكر · فمنذ القرن التاسع الميلادى ، تتوالى بحوثهم الرياضية والفلكية · ونستطيع أن نذكر كثيرا من الرياضيين والفلكيين المسلمين ، ممن كان لبحوثهم أكبر الاثر ، فى تطور هذه الدراسات فى العصور الوسطى · فمنهم الخوارزمى الذى عاش فى النصف الاول من القرن التاسع، وهو فلكى ورياضى وجغرافى ممتاز ، يصفه الاستاذ سارتون بانه من أعظم علماء جنسه ، وأعظم علماء عصره · وقد أحدثت نظرياته الرياضية من التأثير ، ما لم تحدثه بحوث أى عالم آخر ، فى العصور الوسطى · ومنهم الفرغانى المعروف باللاتينية باسم Alferganus وقد عاش أيضا فى القرن التاسع ، ووضع مؤلفا شهيرا فى النجوم · والبتانى المعروف باللاتينية Albatanius والمتوفى فى سنة 929 م ، وهو من أعظم فلكيي العصور الوسطى · واشتهر فى اسبانيا المسلمة مسلمة المجريطى ، الذى اشتهر

بيحوثه عن الكواكب • والزرقالى القرطبى Azaequiel الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، والذى كانت كتبه وجداوله الفلكية أهم المصادر العربية ، التى اعتمد عليها الملك الفونسو العالم • وقد ترجمت معظم بحوث أولئك العلمـــاء المسلمين الى اللاتينية ، واشتهرت جميعها فى أوروبا ، وانتفع بها البحث الغربى فى العصور الوسطى أعظم انتفاع •

ويجب أن نذكر الى جانب هؤلاء رياضيا مسلما من طراز خاص ، هو ابن الهيثـم المتوفى فى سنة 1039 م ، والذى اشتهر ببحوثه المبتكرة فى البصريات • ويصفه الاستاذ سارتون بانه أعظم العلماء الطبيعيين فى العصور الوسطى • وقد كانت نظرياته الهندسية والطبيعية من أعظم ما حدث منذ العصر القديم حتى القرن السادس عشر • وقد ترجمت بحوثه كذلك الى اللاتينية وكان لها فى الغرب أعظم تأثير •

ونستطيع أن نذكر من العلماء المغاربة ثلاثة اشتهروا فى ميدان الفلك والرياضيات هم أبو العباس بن البنا المتوفى سنة 1321 م • وقد كان رياضيا وطبيبا ممتازا ، وقد انتهت الينا بعض آثاره فى الرياضة والفلك • والحسن بن عمر المراكشى ، الذى عاش أيضا فى النصف الاول من القرن الثالث عشر وكان فلكيا ممتازا • وابو الحسن على المراكشى ، الذى عاش أيضا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وقد برع كذلك فى الفلك ، وهاجر الى الاندلس ، واشتهر هناك ببحوثـــه الفلكية ومحاولاته لقياس ارتفاعات القطـب •

وقد كان للدراسات الرياضية الفلكية الاسلامية ، أثرها العميق فى الدراســـات الغربية • ونستطيع أن نذكر عدة من مشاهير العلماء الاوروبيين الذين تأثروا بهـذه الدراسات فمنهم كبلر ، ورجر باكون والبرتو ماجنو ، وليونارد فيبونوتشى وغيرهم •

ونبغ المسلمون فى نفس الوقت فى النبات • وكانت بحوثهم فى هذا الميدان ، من أهم ما اعتمد عليه العلم الاوروبى ، فى العصور الوسطى • وقد ازدهرت البحـوث النباتية بالاخص فى اسبانيا المسلمة ، وكان من أعظم اقطابها ابن بصال الطليطلى ، الذى عاش فى عصر الطوائف ، وترك لنا مؤلفا نفيسا عن بحوثه النباتية والزراعية •

وأبو جعفر الغافقى القرطبى المتوفى سنة 1165 م ، وقد درس النباتات فى افريقية واسبانيا ، ووصفها وصفا علميا دقيقا • وأبو العباس بن الرومية الاشبيلى ، المتوفى سنة 1229 م ، وهو يعتبر أعظم النباتيين والعشابين فى العصور الوسطى ، وابن البيطار المالقى المتوفى سنة 1248 م ، وقد درس النبات بمصر والشام ، وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان وترك لنا كتابه الجامع فى الادوية النباتية •

وقد ساهم التفكير الاسلامى بقسط بارز ، فى ميدان الفلسفة ، وعنى الفلاسفة منذ القرن التاسع الميلادى ، بشرح الفلسفة اليونانية القديمة ، والتعليق عليها • وفى وسعنا ان نذكر ثبتا حافلا من الفلاسفة المسلمين ، الذين كان لبحوثهم أثر عميق، فى سير التفكير الاوروبى ، فى العصور الوسطى وما بعدها ويكفى أن نذكر فى هذا المقام من فلاسفة المشرق ، الكندى الذى عاش فى القرن التاسع ، والفارابى المتوفى سنة 951 م ، والذى كان يسمى بالمعلم الثانى بعد أرسطو ، والشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة 1037 م • ومن فلاسفة الغرب الاسلامى ، ابن باجه المتوفى سنة 1138 م ، وابن الطفيل المتوفى سنة 1185 م ، وقد ترجم الكثير من بحوثهم الى اللاتينية ، منذ عصر مبكر ، وابن رشد المتوفى سنة 1198 م • وقد اشتهر ابن رشد بالاخص بشروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى ترجمت الى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وجعلت لابن رشد أعظم مقام فى التفكير الاوروبى منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث •

ويجب أن نذكر بهذه المناسبة فيلسوفا مسلما من طراز خاص هو العلامة المؤرخ ، الفيلسوف ابن خلدون ـ • فقد كان لبحوثه الاجتماعية المبتكرة ، أعظم تأثير فى تطور البحوث الاجتماعية الاوروبية ، حتى ان النقد الحديث يعتبره بلا مراء واضع أصول علم الاجتماع الحديث •

وأخيرا يجب ألا ننسى ما ساهم به المسلمون ، فى ميدان الجغرافيا والاكتشافات الجغرافية • فقد كان للجغرافيين العرب ، فضل كبير فى اكتشاف كثير ، من أنحاء العالم القديم • وقد عرفوا الشرق الاقصى وجزائر الهند الشرقية ، وشواطىء الصين ، قبل أن يعرفها العالم الغربى ، عن طريق مركوبولو ، بعد ذلك بنحو قرنين • وقد اكتشفوا فى الغرب ، جزائر كناريا والازور ، واكتشف الرحالة الكبير ابن بطوطة بلاد النيجر وممالك

السودان فى قلب الصحراء الافريقية ، قبل ان يعرفها العالم الغربى بقرون · واخترع العرب كثيرا من الآلات البحرية ، التى عاونت فى تقدم الملاحة فى العصور الوسطى · ولقد كان الجغرافيون المسلمون ، أمثال المسعودى وابى الفدا ، واليعقوبى ، والاصطخرى وابن حوقل ، وياقوت ، والادريسى ، هم الرواد الاوائل لتعريف الغرب ، بمعظم انحاء العالم القديم ·

وحتى أواخر القرن الخامس عشر ، نجد الجغرافيين ورجال البحر المسلمين يحتفظون بتفوقهم القديم فى هذا الميدان · وليس أدل على ذلك من الذى قام بارشاد المكتشف البرتغالى الشهير قاسكوداجاما وقاده من ثغر ملندى ، خلال المحيط الهندى ، حتى ثغر قاليقوط فى الهند ، هو البحار العربى ابن ماجد ، وقد كان من أعرف الملاحين ، بطرق البحار الشرقية وأسرارها ·

ننتقل بعد ذلك الى ناحية أخرى من مساهمة المدنية الاسلامية فى حضارة الغرب ·

ان كثيرا من الباحثين ، ينوهون قبل كل شىء بمساهمة التفكير الاسلامى ، فى حضارة الغرب فى الميادين العلمية ، ولا يعلقون كبير أهمية على مساهمته فى الميدان الادبى ·

لكنا سنرى مما سنقدمه من عرض موجز لهذا الموضوع ، ان الآداب العربية كان لها اثرها العميق فى تطور الادب الغربى ، واننا نستطيع أن نتتبع هذا الاثر ، ليس فقط فى أدب العصور الوسطى ، ولكن أيضا فى كثير من نواحى الادب الحديث ، وان ما نراه اليوم من اتساع شقة الفارق ، بين الادبين ، لا يمكن ان يدحض هذه الحقيقة التاريخية ، التى ألقت عليها بحوث المستشرقين ، فى العصر الاخير ، أعظم ضوء ·

وقد بدأ هذا التأثير مبكرا ، فى اسبانيا ، حيث كان الادب العربى ، والادب القشتالى ، يلتقيان بحكم الجوار المباشر · وفى الوقت الذى وصل فيه أدب اسبانيا المسلمة الى ذروة قوته وروعته ، كان الادب القشتالى فى مراحله الاولى · ونحن نعرف أن الادب الاندلسى يمتاز بطابع خاص من الابداع والرونق والاشراق · ونعرف أيضا أن كتاب الاندلس وشعراءها قد أضافوا الى بلاغة المشرق ، ضروبا ساحرة من الافتنان فى

الخيال ، والتعبير ، والوصف ، وابراز المعانى الحسية والنفسية الدقيقة ، فى أساليب رقيقة مؤثرة ، وهو ما يرجع الى طبيعة جزيرتهم الساحرة وحضاراتهم الرفيعة ، وما ترتب على ذلك من رقة أمزجتهم ، وسلامة أذواقهم وقد كان لهذا الادب العربى الاندلسى الرفيع، أثر بارز فى آداب شبه الجزيرة الاسبانية · وكانت المؤثرات الاولى ، التى لقيت سبيلها، الى الادب القشتالى تقع فى ميدان الخيال والقصص · فقد ترجم منذ القرن العاشر الميلادى، كثير من القصص والحكايات العربية · وكانت القصص العربية ، الذائعة فى الشرق تنقل الى الاندلس ، وتتلى فى قرطبة واشبيلية ، وسائر القواعد الاندلسية الاخـــرى وينقلها النصارى المستعربون ، الذين يعيشون فى قلب المجتمع الاسلامى ، أو ينقلون ملخصاتها الى مواطنيهم فى قشتالة ، حيث تصاغ بالقشتالية ، وتنتشر فى سائر أنحاء اسبانيا النصرانية · وكانت أهم الآثار القصصية العربية ، التى ذاعت يومئذ ، بعض قصص ألف ليلة وليلة ، ومنها قصة السندباد التى لقيت فى الادب القشتالى نجاحا خاصا · وفى الوقت الذى ذاعت فيه هذه التراجم القصصية ، ترجم الى القشتالية من العربية ، أثر أدبى وأخلاقى عظيم ، هو كتاب « كليلة ودمنة » وأشرف على ترجمتـه الملك الفونسو العالم ، الذى شغف بالآداب العربية ، أيما شغف ، وترجمت فى عهده آثار عربية كثيرة علمية وأدبية ·

وكانت هذه التراجم القشتالية لآثار القصص العربى ، وسيلة قوية لذيوعها فى فرنسا وايطاليا ، وباقى الامم الغربية ، حيث ترجم الكثير منها الى اللاتينية وغيرها ، وكان لها أثرها فى تطور الآداب الأوروبية ، فى عصر الاحياء ومن بعده ، بل لقـــد ظهر أثرها واضحا فى مؤلفات كثيرة ، من أقطـاب عصر الاحياء ، مثـــل بوكاشيــو وجيرالدى ، وشوسر ، وجيشارديني ، وغيرهم ظهر فى خيالهم وفى أسلوبهم ظهـورا قـــويـــا ·

والى جانب هذا التأثير القصصى المحض ، كانت ثمة مؤثرات أخرى ، من طـــراز أرفع وأعمق ، يمتزج فيها الخيال بالناحية الفلسفية والاخلاقية ، فان النقد الحديـث مثلا يؤكد لنا أن دانتى شاعر ايطاليا الاكبر ، قد تأثر فى كثير من كتاباته ، بتراث التفكير الاسلامى · ففى كتاب « الجحيم » يعرض دانتى من الفكر والآراء ، ما يمت بصلة

قوية إلى فكرة الاسراء الاسلاميـــة ، والى بعض مؤلفات أبى العـــلاء المعـــرى . وفى « الكوميديا الالهية » وفى « الحياة الجديدة » يوجد ما يدل على أنـه قـــد تأثر بآراء الفيلسوف الاندلسى المتصوف ، محى الدين بن عربى . وقد وصلت هذه المؤثـــرات إلى دانتى فيما يبدو عن طريق أستاذه Brunets Latini الذى كان ملمـا بالثقافة العربية ، أو عن طريق اطلاعه على بعض التراجم اللاتينية لآثار الادب العربى .

وهناك أثر عربى من نوع فريد ، كان له أثره القوى فى الادب الاوروبى وذلك هو قصة ابن طفيل الفلسفية المسماة « حيى بن يقظان » التى يصفها الاستاذ سارتـــون بأنها كتاب من أشد كتاب العصور الوسطى طرافة وأصالة . وهى قصة الانسان الاول يتلمس سبيله فريدا مستقلا . الى الحياة والمعرفة عن طريق الالهام والحاسة ، يتخلـل ذلك كثير من المعلومات العلمية القيمة . وقد كتب ابن الطفيل قصته فى القرن الثـانى عشر ، وترجمت الى العربية منذ القرن الرابع عشر ، ثم نشرت مع ترجمة لاتينيـــة ، فى أواخر القرن السابع عشر ، وترجمت على اثر ذلك الى الانجليزية ، وكان لها تأثـــير دينى وفلسفى ، وتربوى عميق ، فى أدب القرن الثامن عشر ، وكان من أشد الآثـــار الغربية الادبية ، التى ظهرت فى هذا العصر ، تأثرا بها ، قصة دانيل ديفوى الشهيرة « روبنصى كروزو » التى ظهرت فى سنة 1719م ، بعـــد ظهور التراجـــم اللاتينية والانجليزية ، لقصة حيى بن يقظان ، بنحو ثلاثين عاما .

وقد كان للشعر العربى ، كما كان للنثر أثره العميق فى الادب الاوروبى . وينطبق ذلك بنوع خاص ، على الملاحم الشعرية ، وشعر الفروسية . وقد تسرب هـــذا الاثر ، بنوع خاص من اسبانيا المسلمة ، الى الادب القشتالى ، وانتقل بواسطته الى جنوب فرنسا وايطاليا . ويمتاز الشعر الاندلسى برقته ، وروعة خياله ، وتنـــوع مناحيه وأوزانه . وقد ظهر هذا التأثير ، بنوع خاص فى الملاحم الشعرية القشتالية ، لا سيما فيما كتب عن « السيد الكنبيطور » وهو الذى اشتق لقبه El-Cid من كلمـــة « السيد » العربية . وكذلك كان للملاحم الموريسكية ، التى تصور الاذواق والعادات الاندلسية ، أثرها فى الادب القشتالى حتى القرن السابع عشر ، بل يرى بعض الباحثين ،

ان يجل ثرفانتس أعظم كتاب اسبانيا ، قد تاثر بأساليب الملاحم العربية ، وتقاليد الفروسية الاسلامية ، فى قصته الخالدة « دون كيخوتى » ·

والى جانب تأثير الملاحم العربية ، فى الادب القشتالى ، كانت تقاليد الفروسية الاسلامية ، تحدث أثرها العميق ، فى تقاليد الفروسية الاوروبية ، فقد نقلت فروسية اسبانيا النصرانية ، من جارتها اسبانيا المسلمة ، كثيرا من تقاليد الفروسية الاندلسية، ثم انتقلت منها الى مختلف بيئات الفروسية الاوروبية · وكانت الفروسية الاندلسية ، بتقاليدها النبيلة ، ومظاهرها الرائعة ، مثار الاعجاب والاجلال ، فى مجتمعات العصور الوسطى ، وكانت بذلك تحدث أثرها فى قصص الفروسية الاوروبى ·

بيد أن أثر الشعر الاندلسى ، فى الادب الغربى ، يبدو أعمق وأشد وضوحا ، فى ميدان الشعر الغنائى · فان الموشحات الاندلسية ، التى ابتكرها ، وبرع فى نظمها ، شعراء اسبانيا المسلمة ، أثرت بأوزانها ، المبتكرة ذات القوافى الخاصة ، فى الشعر القشتالى ، وفى أوزانه ، وتسرب هذا الاثر الى الشعر البروفنسى ، فى جنوب فرنسا ، وكذلك كان للزجل الاندلسى ، الذى وصل الى ذروة افتنانه ، على يد ابن قزمان ، المتوفى سنة 1160 م ، والذى كانت تتمثل فيه تقاليد الاندلس الادبية ، أبدع تمثيل ، أثره البعيد ، فى الشعر الغنائى القشتالى والاوروبى ، وكان هذا الزجل يمتاز بنوع خاص ، بلونه الغنائى الاخاذ ، ونزعته الشعبية المحببة · وكانت الازجال الاندلسية ، تغنى على ضفاف الوادى الكبير ، الفاصل بين الاندلس واسبانيا النصرانية، وكانت أنغامها تتردد فى الجانب الآخر ، وتحدث أثرها فى توجيه الاساليب الشعرية والغنائية ، وتسربت هذه الآثار كلها ، عن طريق اسبانيا النصرانية ، الى جنوب فرنسا والى شمال ايطاليا ، حيث ظهرت قوية ، فى نوع جديد من الشعر ، يمتاز بلونه الغنائى، ونزعته الدنيوية اللادينية ، التى تتجه نحو أقاصيص الحب ونوازعه · وكان أبطال هذا النوع الجديد من الشعر ، طائفة التروبادرو ، التى ازدهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، واستمر تأثير هذه النزعة الغنائية ، فى الشعر الاوروبى ، قوية تتردد حتى القرن السابع عشر ، وتسربت آثارها الى الشمال ،

وظهرت فى انجلترا واسكتلندا • وقد كشفت دراسات المستشرقين ، لاغانى ابن قزمان، عن تتبع آثارها الكثيرة ، فى الشعر الغنائى الاوروبى •

ويلاحظ أنه لم يترجم ، من قصص ألف ليلة وليلة ، فى العصور الوسطى ، سوى القليل • وكان لهذا القليل ، الذى ترجم معظمه الى القشتالية واللاتينية أثره فى ميدان القصص الاوروبى • ثم ظهرت الترجمة الكاملة لالف ليلة وليلة ، لاول مرة فى أوائل القرن الثامن عشر ، ظهرت أولا باللغة الفرنسية ، ثم بسائر اللغات الاوروبية ، فكان ظهورها حادثا أدبيا عظيما • وسرعان ما ظهر أثرها فى مؤلفات ، كثير من كتاب القصص الاوروبى ، ولا سيما كتاب القصص الخرافية ، مثل « الاخوين جريم » و « هوفمان » و « هانس اندرسن » وغيرهم •

هذا ولم تقف مساهمة المدنية الاسلامية ، فى تكوين مدنية الغرب ، عند مؤثراتها العلمية والادبية • ولكنها ساهمت كذلك بقسط بارز فى ميدان الفنون والصناعات •

وقد كان الفن الاسلامى ، فى بدايته ، يعتمد على الاقتباس ، من تراث الحضارات ، التى ورثتها الدولة الاسلامية فى البلاد المفتوحة ، مثل الحضارتين الفارسية والبيزنطية، والحضارة القوطية فى الغرب • ولكن ما كاد يأتى القرن الثالث من الهجرة ، حتى أخذ الفن الاسلامى ، يستكمل شخصيته المستقلة ، ويبدو فى صوره المبتكرة الاخاذة • وكان فن العمارة والزخارف يومئذ ، أبرز ما فيه من الصور الحية القوية ، فكانت القصور والمساجد فى المدن الاسلامية ، تبدو نماذج فنية بديعة •

وظهر تأثير الفن الاسلامى ، فى مدنية الغرب ، بنوع خاص ، فى صقلية ، وشبه الجزيرة الاسبانية ، حيث كانت الحضارة الاسلامية ، تعيش هنالك ، على مقربة من أمم غربية نصرانية • فمن صقلية تسربت مؤثرات الفن الاسلامى الى ايطاليا ، ومن الاندلس تسربت مؤثراته الى قشتالة ، ومنها الى جنوبى فرنسا •

وقد كان أثر العمارة الاسلامية ، أشد ما يكون ، داخل شبه الجزيرة الاسبانية فكانت القصور الملكية الاسبانية ، نماذج من القصور الاندلسية ، وكانت خطط المساكن، فى معظم المدن القشتالية ، تغلب عليها خطة المنزل الاندلسى ، بل ظهر هذا الاثر فى

فيها مسلمو الاندلس وأنشأوا لها المصانع العظيمة ولا سيما فى شاطبة وطليطلة ، ونقلها عنهم الاسبان ثم انتقلت الى أوروبا ، عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر • وقد طبق المسلمون ، تفوقهم فى الكيمياء ، فى ميدان الصناعة ، فبرعوا فى صنع الادوية والعقاقير ، واستخراج العطور ، وتركيب الاصباغ المختلفة ولا سيما اللون الذهبى • وكذلك ازدهرت صناعة المنسوجات ، ولا سيما الصوف والحرير ، على يد المسلمين ، واشتهرت دمشق ودمياط فى المشرق ومالقة والمرية فى المغرب ، بمنتجاتها الصوفية والحريرية الممتازة ، طوال العصور الوسطى • وانتقلت صناعة الحرير من الاندلس الى ايطاليا ، التى اشتهرت بصناعة الحرير ، فى تلك العصور ، وما زالت تحتفظ بتفوقها فيها حتى الآن • وبرع المسلمون ، ولا سيما الاندلسيون ، فى صناعة الاسلحة وكانت الاسلحة الاندلسية من أنفس ما يقتنى • وما زالت مدينة طليطلة تحتفظ ببقية من تفوقها القديم • فى هذه الصناعة ، منذ أيام المسلمين • وكذلك نبغ مسلمو الاندلس فى كثير من الصناعات الدقيقة ، مثل المنتجات الجلدية الفاخرة ، التى ما زالت فى قرطبة ، تحتفظ حتى اليوم ببقية منها • ومثل صناعة الآنية الخزفية الملونة ، والقيشانى الفاخر ، وهى صناعة ما زالت تزدهر الى اليوم فى اشبيلية ومالقة • وقد لبث الموريسكيون ، منذ سقوط الاندلس زهاء قرن ، يحتفظون بتراث آبائهم ، فى الفنون والصناعات ، وهو تراث تلقت اسبانيا منه الكثير ، وما زالت المتاحف الاسبانية تغص بكثير من التحف والآنية الفخمة ، من صنع مسلمى الاندلس فى مختلف العصور •

هذه اللمحات العابرة عن مساهمة المدنية الاسلامية ، فى مدينة الغرب تقدم الينا فكرة عن الدور العظيم ، الذى قامت به المدنية الاسلامية ، فى هذا الميدان • ولقد حجبت عصور التأخر والانحطاط التى توالت على العالم الاسلامى والعربى ، ولا سيما منذ بسط الترك العثمانيون سيادتهم ، بالنار والسيف ، على كثير من البلاد الاسلامية ، التى كانت تتمتع بحضارات زاهرة ، حجبت هذه الحقيقة التاريخية الناصعة ، وغلبت نزعة التحامل والنكران • على معظم البحوث الاوروبية ، التى تناولت هذه الناحية • ولكن البحث العلمى المتزه ، لم يعدم أنصاره وحججه ، ومنذ القرن التاسع عشر الى يومنا، تلقى الاضواء تباعا على حقيقة هذه الجهود الحضارية العظيمة ، التى ساهمت بها العلوم والآداب ، والفنون الاسلامية العربية فى ميدان الحضارة الانسانية •

تأثيرات ابن رشد في أوروبا
وتصحيح التفسيرات الخاطئة عنه

الدكتور سلفادور غوميث نوغاليس
أستاذ فلسفة بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة ـ جامعة مدريد ـ اسبانيا ـ



لقد كتبت عددا من الاعمال حول تاثير الفكر والحضارة الاسلاميين فى النهضة المسيحية الاوروبية (1) وعلى وجه التقريب تركزت كل هذه الاعمال بصفة خاصة حول شخصيتين عظيمتين منقطعتى النظير فى المجال الاسلامى ونظيره المسيحى وهما ابن رشد فيلسوف الاندلس الاسلامى ، وتوماس الاكوينى الذى أعلى من شان اللاهوت المسيحى فى القرن الثالث عشر .

ولقد انتهيت مؤخرا من نشر قائمة وافية جدا بالدراسات التى لها صلة بتوماس الاكوينى والحضارة العربية حيث يبرز بوضوح الطابع الاسلامى فى تجديد الفكر المسيحى فى العصور الوسطى ، فثمة ستمائة وخمسة وثمانون عملا ما بين كتاب ومقال تعترف بصوت عال بوجود وعظمة هذا التأثير .

وقبل أن أدخل الى الموضوع الاساسى لمحاضرتى أريد أن أقدم له بكلمة قصيرة عن امتداد ونوعية هذا التأثير ·

ويهمنى أولا ن أنبه الى أن تخصصى هو الفلسفة الاسلامية ، ومن هذا العنوان أريد أن أبـــدأ ·

لقد دار الجدل كثيرا حول الاسم الذى ينبغى أن يطلق على الفلسفة التى ازدهـــرت فى ظل الاسلام (2) · ويبدو لى أن موضوع النقاش حول الاسم فى هذه الحالة ليس مجرد تشدق بالكلام · فهناك نزعة عن بعض الكتاب الغربيين غير المتضلعين فى الثقافة الاسلامية لاخضاع الفلسفة الاسلامية للمذهب العقلى وفقا لخطة الفلسفة المسيحية الغربية التى فيها تحققت علمانية الفلسفة ، حتى رجال اللاهوت المسيحى يرون أن التفلسف هو التفكير بعيدا عن الوحى ومهتديا بالنـــور الطبيعى ، وبعد ذلك ظهرت محاولات التوفيق فى هذا الصدد ·

اذا كان العقل قد خلقه الله ، والوحى هو كلمته فمن المستحيل أن يوجد التناقض بين فعل الله وكلمته وهذا النسق من علمانية العلوم فى الاسلام لا يمكن أن يؤخـــذ كظاهرة عامة لا تتبع الفلسفة الاسلامية من مضمون دينى مثير للجدل وانما أكثـــر من ذلك فالتفكير الانسانى نفسه يخضع لتاثير الهداية الالهية ·

ومن هناك فالمعرفة الاساسية للانسان يدركها المسلم كشىء يوجد فيما أنزله الله فى القرآن الكريم · سواء فى الناحية الدينية ، أو فى التشريع الاخلاقى أو فى المجـال السياسى ، أو العلمى ، أو الثقافى ·

ومما سبق يمكنك أن تسميها ومعك كل الحق ـ الفلسفة الاسلامية فهى تفكـــير مستغرق اما فى حروف القرآن واما فى أعمق أعماق الصبغة القرآنية اذاإستطردنا أكثر فبنفس السبب الذى أمكننا أن نسميها به فلسفة اسلامية يمكننا أيضا أن نطلق عليها فلسفة نبوية ·

يمكن الحديث عن تأثير الثقافة الاسلامية فى جميع مجالاتها · ولقد أعددت بالفعـل كتيبا ليستعمله طلابى فى الجامعة دفعا لهم الى دراسة اللغة العربية التى هى لغـــة

القرآن الكريم - وفيه حددت أن الثقافة الغربية ، وبالاخص الاسبانية مدينة للثقافة الاسلامية المكتوبة بالعربية فى جميع المجالات ؛ ولا شك أن فى هذا الملتقى كثيرا من المتخصصين الذين سيتكلمون فى هذه المجالات ·

ولتسمحوا لى بالتركيز على مجال تخصصى :

أعتقد أنه أصبح مفهوما من الصيغة التى شرحتها ن الفلسفة لا تستطيع أن تبقى بعيدا عن الفكر الاسلامى بل على العكس فانها واحدة من أعظم مآثر ماضيه ·

لقد تعرض هذا الموضوع للنقاش وبالنسبة لموقفى الحالى فاننى قد نشرت أيضا كذلك مقالا أود اعطاءكم عنه فكرة مقتضبة · (3)

ان قراءة المؤلفين المسيحيين للاعمال الفلسفية الاسلامية ظاهرة لا يمكن لاحد انكارها على الاطلاق · ويكفى للدلالة على ذلك اختيار قائمة المؤلفين المسلمين وأعمالهم مثبة فى كتابات مؤلفى المسيحية فى العصور الوسطى ·

وينبع الجدل من مسالة أكثر دقة :

هل تشير هذه الدلائل الى وجود مدارس أو اتجاهات من التفكير الذى يمكن تسميته بالاسلامى داخل الحضارة الاوروبية ! سوف أشرح سؤالى عندما أحاول شرح أصول الفلسفة المسيحية فان بامكاننا أن نكتشف فى الحال تيار التفكير الارسطا طاليسى والافلاطونية الجديدة ، وذلك بحسب وجود ارسطو أو افلاطون ، حيث ترك ما يشك عنه فى أعمال كاتب ما أو مدرسة ما · هل يمكن أن يقال نفس الشىء عن مؤلف اسلامى أو مدرسة اسلامية ؟

بالنسبة للبعض المسالة غير معروضة للبحث منذ البداية فالفلسفة العربية لا يمكن أن تكون بالنسبة لهم أكثر من صورة للفلسفة الاغريقية · يمكن على الاكثر السماح باختلاف فى الصيغة فيما هو أرسطى أو ما هو من الافلاطونية الجديدة عند هذا المؤلف أو ذلك ، أو عند مدرسة محددة · وعند خلو فلسفة ما من الاصالة فانه يستطاع بصعوبة الحصول على أثر خاص بها (4) · هذا الاسلوب من البحث فى الوقت الحاضر من الصعب عليه أن يصمد بهذا القدر من الخشونة والفظاظة · عدد من المتخصصين

العرب وعلى الاخص الاستاذ الدكتور عثمان أمين ، وغيرهم من الباحثين الاوروبيين قد أبرزوا الى حد التخمة ، ان الثقافة العربية ليست مجرد تكرار لسابقتها ، وليست قليلة من تلك النقاط التى تلمع فيها أصالة الثقافة العربية محلقة فى أعلى الآفاق .

ونفس الشيء فى كتاباتى ، فى غير قليل منها ، وبشكل ملح فى قاعة الدرس ومحاضراتى أحاول أن الفت نظر قرائى وطلابى ، انها ليست عناصر قليلة تلك التى لا تكون فيها الفلسفة الاسلامية مجرد تكرار للفلسفة الهيلينية ، بل هى عبارة عن صياغة جديدة تبرز فيها عناصر ذاتية المزاج الاسلامى لم تكن معروفة من قبل ، ومن ثم فالفلسفة الاسلامية هى واحدة من الفلسفات الاصيلة ، ومن هذه المسلمة ، ليس هناك طريق آخر غير أن نضع هذا السؤال . هل الاسلام قد أثر فى أوروبا كمجرد ناقل أو كقنطرة للثقافة الهيلينية أو يوجد ما يمكن رؤيته من أثار هذه الموضوعات الاصيلة حقا فى الفلسفة الاسلامية عند المؤلفين المسيحيين ؟ .

ان الدور كقنطرة لعبور الثقافة معروف لكل مؤرخى فلسفة العصور الوسطى ، فالعرب ظهروا أمام اللاتين كافضل المعلقين والشارحين للفلسفة الهيلينية . وعلى وجه الخصوص لفلسفة من يعدونه أميرا للفلاسفة أرسطو وهذا وحده يكفى للشهادة على قدرة ذكاء العقل الاسلامى .

لكن علاوة على كونهم قد قاموا بنقل تفكير القدماء فانهم قد صاغوا أفكارا جديدة ، وهذه الافكار تركت طابعها فى التفكير الغربى نحاول أن نحدد ذلك الدور بصورة أوضح :

بما أنه فى الغرب لم يوجد فيلسوف قام بنقل طريقة فيلسوف مسلم حرفيا فانه كذلك لم يوجد الفيلسوف المسلم الذى اقتصر على ترجمة تفكير العباقرة السابقين .

ما كان يسمح به فقط عند هؤلاء أو فى المدارس المؤسسة على آرائهم هو قبول الافكار الرئيسية للمفكرين المسلمين ، أو صيغة الحركة لمدرسة ما استلزمت الاستلهام فى تطويرها لشخصيتها الخاصة .

عند القيام بدراسة تسلسلية للفكر المسيحى فى العصور الوسطى لمعرفة كيف تطعم بالثقافة الاسلامية يمكننا أن نرى فى الجامعات الكاثوليكية ثلاث اتجاهات رئيسية

عند وصول التفكير الاسلامى الى أوروبا ، وكل واحد من هذه الاتجاهات يحاول أن يفرض هيمنته :

الاولى : الاغسطينية ، ومؤسسها الرئيسى القديس أوغسطين الجزائرى ، وتعتمد فى اللاهوت على الكتب المقدسة ، وفى الفلسفة على افلاطون ·

والثانية : هى الافلاطونية الجديدة بسماتها الصوفية وهى فلسفيا تتبع افلاطـون مدعما بعناصر شرقية واسكندرانية ، وخاصة الدونيسية المستعارة Pseudodionisio واسكوتو انيرخينا Escoto Erigena

والثالثة : هى الارسطية بسماتها العلمية ، أريسطو كان غير كامل ـ فقط فى المنطق وفى بعض كتاباته فى الطبيعة ، وجاء العرب ليكملوا هذا الاتجاه الثالث فأدخلوا أرسطو كاملا فى ترجماتهم وشروحهم ·

ابن سينا ، أغنى الافلاطونية الجديدة ، مقدما لها علاوة على ذلك ملائمة بين الفلسفة الاغريقية والفكر الدينى ، واستخدم ذلك كقاعدة لتجديد الفلسفة المسيحية فى القرن الثالث عشر الميلادى · وقبل ذلك فى أحد أعمالى اهتممت بما قد أعطتـــه الافلاطونية الجديدة ، العربية من أجل غنى الافلاطونية الجديدة اللاتينية Néoplatonisme (5) .

وأخيرا الاغسطينية وهى التى بدأت مقاومة صلبة لاختراق التفكير الاسلامى لكونها الفلسفة الاقرب الى التقليدية ، قليلا ، قليلا لم تستطع مقاومة اغراء الاضاءة النابعة من الاتحاد مع العقل الفعال مثلما ظهر فى الفلسفة الاسلامية ، وبالذات عند ابن سينا ·

كثر النقاش حول ما اذا كان يمكن الكلام عن مذهب لابن سينا أو مذهب لابن رشد لاتينيين ، لن نتكلم أكثر الا عن المؤلفين الذين خلقوا بصورة واضحة ثورة فى الفكـر المسيحى فى العصور الوسطى · ففى نظر الكثيرين فان مذهب ابن سينا أو الرشدية عبارة عن شىء ثانوى بحيث لا يمكن اطلاق اسمائهم على أية مدرسة فى الغرب · عـلى الاكثر من المستطاع اطلاق الاسم مجردا على بعض حالات مؤكدة من الافكار الهرطقية ، والتى خلقت تيارات جديرة بالاستنكار من السلطات الجامعية فى الجامعات الكاتوليكية ـ أعنى ـ حسب هؤلاء المؤلفين : ابن سينا وابن رشد كان تأثيرهما سيئا فقط · ولكن على أساس تصحيحات المستشرقين هذه النظرة تمضى الى الاختفاء ·

بالنسبة الى ابن سينا قلت فى مناسبة أخرى : « ان ابن سينا بفلسفته فى الكائنات وبحوثه الخاصة بعالم الملائكة قوله فى اللاهوت الطبيعى ، ملاءمته بين الله والعقل ، حاسة الدينية واقترابه من الله · استطاع أن يقدم لنا بهذا على وجه الخصوص النظام الامثل لجمع القديس أغسطو Augustin والديونيسية المخل Pseudodionisio واسكوتو ايرخينا Escoto Erigena مع افلاطون وأريسطوطاليس ، ولقد بدأ بهذا كالفيلسوف النموذجى ليشرح لنا العلاقات بين الانسان ، والعالم ، والله . (6)

وبالتأكيد يمكن القول عن مذهب لابن سينا صحيح داخل التفكير المسيحى ولقد وجد الكثيرين من المؤرخين لفلسفة العصور الوسطى قد عرفوه كما قد قلت ولذلك فليس من داع للاستطراد ·

الشيء الذى حتى الآن لم يفتح له الطريق هو فكرة « الرشدية المؤمنة فى الفلسفة المسيحية » لقد سكبت كميات كبيرة من الحبر لازالة ما فرض على ابن رشد من أفكار هرطقية والتى تركزت فى فكرتين سيكون من الصعب جدا اقتلاعهما ·

الفكرة الاولى : وجدت رشدية لاتينية فى الجامعات الاوروبية واستمرت الى فتـرة متقدمة جدا من القرن السادس عشر ·

الفكرة الثانية : ان خصائص هذه الرشدية متعارضة تماما مع التفكير المسيحى لدرجة أن الصفة الوحيدة التى يمكن أن تنطبق الى هذه الرشدية هى الالحاد والهرطقية ·

وأنا أتفق مع الرأى الاول · ولكنى لست مع الثانى بأنة طريقة من الطرق · آملا أن أقدم لكم الآن باختصار نتائج ابحاثى ·

هناك شيء بديهى لا يمكن لاحد أن يخفيه ، وهو وجود تأثير مباشر لابن رشد عنـد المؤلفين اللاتينيين حمل اسم الرشدية لدرجة انه فى الغرب عندهم فكرة ضرورة أن يمضى الاسمان معا : ابن رشد اللاتينى ومن هنا حدثت خطورة الجهل بأنه وجدت أيضا رشدية عبرية ، وكذلك رشدية عربية ، كان شيئا محزنا ان رجلا مات فى عمر مبكر هو الباحث الاسلامى العظيم محمود قاسم : مرات عديدة حدثنى عن فكرة دراسة وافية لابن رشد فى المؤلفات المكتوبة باللغة العربية .

عن الرشدية اللاتينية فما شك مـــن مدن مثـــل باريس ، اكسفورد وكراكوفيا، Crakovie ، بادو Padua ، وبالرمو Palermo ، وشلامنقة Salamanca ، والقلعة Alcala' ، كرروا بما لا نهاية له اسم ابن رشد فى تأكيدهم أو معارضـــتهم لمذاهبهم • وبهذا لم يكن ابن رشد دائما ملحدا ، وهذا ما حاولت تأكيده فى العديد من مقالتى (7) وان قائمة المعضلات التى أثر فيها تشهد بذلك بصورة واضحة • حتى اذا وجدت المشكلات التى لا يظهر فيها الاسم • فانه عدة مرات يبدو فى طـــرح المشكلات نفسها • مرات أخرى كنقاط للتدليل على أبحاث لاحقة ، وأخيرا استيعاب أفكار ابن رشد لايجاد التكامل فى تركيب أفضل •

فلنقم باحصاء بسيط ، بطريقة برنامجية للمواد التى تلقى فيها اللاتينى تأثيرا عن ابن رشد ، فى موضوع العلاقات بين الايمان والعقل فى فلسفة الكائنات وعلم الفلـك حيـث فيهما اعتماد اللاتين الاكبر على العرب • تحت تأثيرهم ، رفضوا فكرة أن الكواكب هى المحرك الاخير للعالم ، وهذا فى ذاته لا يمكن ن يكون شىء آخر غير قريحة صافيـة وبسيطـــة •

من المعتاد القول فى نظرية الهيولانية ان القديس توماس Thomas كان أول من صاغها ولكنه تجاهل بكل صراحة منذ مدة طويلة من قبل تكلم ابن رشد مدافعا عنها .

ونفس الشىء بالنسبة للتفرد بالمادة قـد مـــر بمراحل مختلفة حيث مضى المؤلفون اللاتينيون منطلقين مع تيار أعمال ابن رشد وكذلك فى نظرية حركة الاجسام فى علم الانسان « الانثربولوجيا » فان تأثـــير ابن رشد يبـدو حاسما وقاطعا ، وفى نظـرية المعرفة يلعب اسهام العقل الفعال دورا رئيسيا • موقفه الذى كان اراديا أكثر منـــه عقليا كان أيضا النغمة الفكرية لعدد غير قليـــل من المؤلفين الغربيين • كل شروحـه وتعليقاته حول مختلف أجناس العقل ستلعب دورا مهما فى الجامعات الاوروبية ولكن سنتحدث عن هذا حالا فى نص آخر •

فى علم ما وراء الطبيعة • ميتافيزيقيا عديدة هى النقاط التى تعتمد فيها أوروبا على ابن رشد • اعدادهم كافية هؤلاء المؤلفون الذين يفكرون مثل الفيلسوف القرطبى ، ان

وجود الله يجب أن يبرهن عليه قبل معالجة ما وراء الطبيعة ، حيث أنه يجب أن يكون وجود الموضوع سابقا على العلم الخاص به • ربما بوضوح أقل قد اشترك فلاسفة عرب آخرون بالاضافة الى ابن رشد الذى كان له الاسهام فى الثورة العظيمة داخل النظام الارسطى والناجمة عن فكرة شمولية الخلق ، وهذا يحمل معه ادخال فكرة العرض ووجود العرض مما سيدخل ، الوحدتين الميتافيزيقيتين للشىء والجوهر من أجل تفسير المحدود ، كذلك ادخال الجوهر والوجود من أجل تفسير العرض •

وفى نفس الوقت فان علم ما وراء الطبيعة فيه شجب كل الشجب للصدفة ، وهذا عولج الى حد كبير بالدليل عند ابن رشد ، وقد صارت براهين وجود الله عند القديس توماس عتيقة فى المسيحية ، ونفس المصطلح « طريق » مأخوذ من قاموس المصطلحات العربية ، وحتى التسميتان العربيتان « طريق التنزية » و « طريق التشبيه » قد أخذ أيضا فى Via emotionis و Via analogiae وفى مشكلة التشبيه فان نظام الاولية واللحوق جوهرى لتحقيق مفهوم الواقعية ، حيث ينبغى ان يتحقق أولا فى كائن ثم فى آخر ، وتلك حاشية تشبيهية أخذها المدرسون المسيحيون بشكل عام من العرب .

وأخيرا فى مسألة الصفات الالهية ، يوجد تعيين صفات الكمال والنقص ليست الا تعبيرات عربية أن البناء العربى يمكن أن يقيم فى معالجة القديس لوضوع مع عدد غير قليل من المدرسيين الغربيين •

وفى النهاية فان النور الالهى Lumen gloriae استشفاف كاف وملحوظ من تركيز الكلاميين المسلمين فى الحديث عنه .

هذا هو عدد ما أمكننا قوله بالنسبة للنقاط الاكثر أهمية ، والتى يمكنك القول فيها بالتأثير المباشر لابن رشد فى الفلسفة المسيحية • ينبغى أن نضيف أيضا اذا أخذت الرشدية الاجزء الاكبر من واجهة حركة الهرطقة داخل المسيحية وذلك لانهم جعلوا ابن رشد يقول أشياء لم يقلها قط ، والتفسير بسيط ، فبين علماء اللاهوت والفلاسفة المسيحيين وجد العديد من الذين تابعوا مبادىء ابن رشد مستخرجين منها استنتاجات لم تمر اطلاقا برأس ابن رشد ، وربما استنتاجات الاكثر برزوا هى :

« مبدأ ثناية الحقيقة » ومبدأ وحدة الوجود ، ومبدأ وحدة العقل الانسانى ، ولنقل كلمة واحدة فقط حول المبدأين الاولين لنتوقف قليلا عند الثالث • والذى أعتقد اننى قد وجدت بؤرات جديدة تصحح المفهوم المدرسى فى العصر الوسيط للمسيحيين •

بالنسبة لنظرية ثنائية الحقيقة ، وجد مؤلفون مسيحون فى مواجهة صعوبة التصالح بين الحائق المنزلة وبين العقل ، سمحوا بأن شيئا يمكن أن يكون مؤكـــدا بالتنزيل ، وزائفا فى الفلسفة ، ونسبوا ذلك كثيرا الى ابن رشد • ولهم شىء من الاساس ، حيث قال ابن رشد بامكانية أن يستخدم التنزيل لغة استعارية متميزة عن اللغة الفلسفية وأيضا فى ظاهرها تبدو متعارضة معها لتناسب العقلية الشعبية المختلفة عن الفلسفية فى حالة امكانية وجود حقائق فلسفية ليس العامى لديه استعداد لفهمها ، ويمكـــن القول باختلاف فى المنهج وفى الكلمات دون تعارض داخلى فى المحتوى بأى شكل من الاشكال ، وفعلا يوجد يهودى رشدى اسمه اسحق البلاج Issac Albalag الـــــذى أجاز بوضوح نظرية ثنائية الحقيقة ، ولكن هذا بالتأكيد ليس من عقلية ابن رشد فى شىء كما قلنا مرارا وتكرارا • وكذلك ليس من الممكن القول بأن نظام ابن رشـــــد ـ حسب معاييرى ـ كذلك نظام من الفلاسفة العرب يمكن أن يؤدى الى وحدة الوجود •

وفى مواجهة غرو وجود الله للضمير الانسانى يمكن أن يعد مستحيلا القدرة عـلى التفكير فى شىء آخر وهذا ما أسميناه بوحدة الوجود فى التفكير ، وعلى أى الاحـوال فلا يوجد فى مثل هذه الحالة تطابق بين الوقائع ، ولا يمكن الكلام على وحدة وجـــود للكائنات (8) ونفسه سيمكن من القول بالحاد ابن رشد أو على عقلانية متضمنة التنزيل ، واليوم لا يمكن الشك فى التدين الاسلامى لاى واحـــد من الفلاسفة الكلاسيكيين فى الاسلام (9) • وربما تكون النقطة الهرطقية الوحيدة للمسيحية ، مثلها للسنة الاسلامية قد تكون نظرية ابن رشـــد وعديد من الفلاسفة المسلمين حـــول أزلية الكون ، وان الادلة التى أضافها ابن رشد فى صالح أزلية الكون أنتجت جدلا بين اللاهوتيين حتى أن القديس توماس قال : انها نظرية ليست على اتفاق مع الحقائق المنـزلة ، ولكنه فى كلامه عنها فلسفيا لم يكن هناك دليل ما عقلى لشجبها •

والآن أريد الانتهاء من ذلك الخط الذى يعرض أن ابن رشد ليس بالهرطقى كما يريد مسيحيو القرون الوسطى تصويره به .

سنوات عديدة من الدراسة فى هذا الموضوع ولم أرغب فى تقديمه للجمهور قبل أن أكون مطمئنا بصورة كافية الى أن موقفى يستطيع أن يبرهن عليه بصورة علمية . وعلى أن اعترف انتى حتى اللحظة لم أجد أحدا يشاركنى تفسيرى ، فأعداء ابن رشد والذين يمكن أن تجد من بينهم القديس البرت العظيم Albertus Magnus والقديس توماس الاكوينى Tomas de Aquino ورشدى العصور الوسطى . وحتى بين المحدثين ليس فقط منهم المدرسون الجدد ، بل أناس يعرفون العربية واعتادوا تبنى موقفا اكثر تفهما لصالح الفكر العربى .

مثلا حالة المستشرق الاسبانى الشهير أسين بلاثيوس Palacios فى كتابه (10) كل هؤلاء يزعمون رأيا مخالفا لرأى أعنى معضلة وحدة العقل لكل النوع الانسانى .

باختصار شديد جدا على أساس هذه النظرية فكل انسان يملك ذاتية شخصية عندما يكون فى الوجود فقط ، ومنذ اللحظة التى تغادر فيها أرواحنا عالم المادة تترك كونها ذاته لتكون مندمجة فى وحدة الجنس وعلى هذا الاساس تكون خالدة ، ولا ينطبق ذلك الا على ذوات النوع الانسانى دون كل الذوات ، النتائج ستكون خطيرة جدا داخل الاسلام مثلها داخل المسيحية ولكن اليوم لحسن الحظ يمكننى القول أن هذا النص ليس لابن رشد ، لم أكن رأيته ذلك واضحا هكذا فى البداية ، توجد نصوص ، وعلى وجه الخصوص فى الترجمات اللاتينية والتى بدا لى فيها أن وحدة العقل الانسانى كانت الشىء الوحيد الذى يمكن قراءته فى النص . ولكن وجد آخرون ، مع كونهم أكثر وضوحا من السابقين فان رأيهم بالسماع بموحدة العقل الانسانى كان تناقضا صريخا . وأخيرا وصلت الى نتيجة رأيت أنها تتأكد فى الحال عن طريق ثلاثة براهين مختلفة .

بعد أن نشرت أفكارى وجدت أن الباحثين باللغة العربية قد وصلوا الى نفس النتيجة ، ولكن ببراهين مختلفة عن البراهين التي وصلت بها ، ولنزاهة المهنة يجب أن أقول أن هذه البراهين لا تبدو لى دائما مقنعة .

مؤلفان عربيان ، ومتخصصان عظيمان فى ابن رشد قد اقتربا كثيرا من المشكلة ولكن بدون أن يخطوا الخطوة الحاسمة ٠

الاول كان رينان Renan تعرف على التناقض فى كتابات ابن رشد ، عقليته الحقيقية قد تكون عقلية الوحدة التى يدافع عنها فى تعليقاته على أريسطو ، وقد تكون عقلية الخلود الذاتى المختلفة عند كل انسان وهذا قد يكون موضوع أعماله لا تعليقاته ، وبالتالى لا يمكن قبول التناقض الذى يشير اليه رينان Renan لانه يوجد فى التهافت ولم يكن قط تعليقا من تعليقات ابن رشد .

الكاتب الثانى هو P. Thevy فى عمل له حول الاسكندر الافريقى ، وهو عبارة عن دراسة تاثيره فى ونظرية المعرفة Neotica موقف ابن رشد عبارة عن التورط بين موقف الاسكندر الافروديسى ، وبين تامسطيوس ، وذلك يعد شرحا لنظرية أرسطو حول العقل الانسانى ٠ حيث أن الاسكندر سمح بعقلين متابعا فى ذلك أريسطو ، واحد منهما فعال ، ووضعه خارج الانسان ، والآخر مادى ، وادركه أيضا عن طريق المادة ٠

ومادية العقل الانسانى المدافع عنها عن طريق الاسكندر تلك مضت ضد المفهوم الروحى للعقل التى طبقها ابن رشد ، أما تامسطيوس لكى يهرب من هذه المادة أقحم العقل الفعال داخل الانسان ٠ ابن رشد واصل تعريفا وسطا مع الاسكندر أكد أن العقل الفعال يوجد خارج الانسان ، وهذا موجد عند كل الفلاسفة الاسلاميين ، ولكنه كان متفقا مع تامسطيوس فى عدم قبول الطبيعة المادية والفانية للعقل ، وفى هذه المسألة عندما يؤكد ابن رشد أن العقل انما هو جوهر النفس ، بدون أن يتدخل بعمق. للتفرقة بين النفس وقواها ، ويتعرف P. Thevy ، متابعا النصوص على التوازى الموجود عند ابن رشد بين العقل الفعال الخارج عن الانسان ، والعقل المادى الذى يتمتع بنفس الصفات الروحية والبساطة وان الاثنين يحتاج اليهما لمعرفة اللمحات الروحية ٠

يمضى ذلك كله حتى الآن فى خط ابحاثى ، ولكن بعد ذلك بقليل لاحظ P. Thevy الصعوبات المطروحة عند ابن رشد نفسه ودافع باخلاص عن الشروحات التى سبق

اعطاوها تقليديا عن المدرسيين ، وبقية له خطوة واحدة لا غير لكى يتفق معنا ٠ بالنسبة للصعوبات التى طرحتها مشكلة العقل ، هناك معلومتان مختلفتان حاول ابن رشـــد أن يجعلهما متفقتـين :

واحدة هى ، وحدة العقل الانسانى ٠ والثانية هى ، الاختلافات فى كل عقل خاص ٠ ترك نفسه فقط مع الاولى متبعا الخط التقليدى للعصور الوسطى لكن ماذا يجـب أن يعمل مع الثانية ؟ أعتقد انه لا يوجد حل آخر غير الذى لابن رشــد نفسه ، والذى هو محاولة التوفيق بينهما تعتقد بحق وجود الحل ، مثلما انطلق فى التهافت ٠ بما فيـه الترجمة اللاتينية « للشارح الاكبر » حول النفس (الاصل العربى قد فقد) ٠ ابن رشد قد وافـق على ما يــلى :

فى مواجهة مادية العقل الانســانى المدافــع عنها بواسطة الاسكندر الافروديـــسى أنكر أن العقل يمكن أن يكون مادة بمفهوم التركيب والفساد ٠ العقل اذن يـــكون بسيطا ، وواحدا ، ولكن من جانب آخر فان كل عقل ينبغى ان يتكثر ويتميز عن بقيـة العقول ٠ «عقلك ليس هو عقلى» ومع انهما واحد فهما مختلفان فى نفس الوقت ، وبنـاء عليه فانه خالد فى فرديته مثله مثل العقل الفعال فى شموليتـه ٠ الفرق يـكون فى أن العقل المادى يجب ان يكون بسيطا ، وواحدا ، لانه يجب ان يستوعب جميع الصيـغ ، والعقل الفعال يكون بسيطا ، ومجردا ، لانه يجب ان يصــدر جميع الصيـغ ، دون ان يكون أخذها مستقبلا للفهم ، ويفهم منهما الآخر لانهما مشفان على ذاتيهما ٠

يوجد نص فى الشارح الكبير عن النفس ، لم يترك مجالا للشك حول الخلـــود الفردى للعقل المادى للانسان ، فالكون والفساد للذوات يعود الى تركيبها وليس الــى نوعها الذى هو واحــد فى تعـــدده ٠

(Propter multitudinem contingentem eis, non propter modum quem sunt unica).

وهكذا عند ما تهلك ذات بسبب الفساد فى مادتها فانها تهلك بسبب فساد ذاتيتها، وهذا ليس هلاكا مطلقا ، لان وجودها فى العقل المادى لا يفسد ابدا (15) ٠ يـــهلـك الانسان بسبب فساد جسمه المادى،ولكنه لا يفسد فى الجانب الذى هو واحد ، وبسيط، أى عقله المادى ، وليس هذا الانسان مادة للمفاهيم المعروفة على طريقة أستقبال الجســم

للنفس ، حيث أن وجوده فى العقل لا يفسد ابدا ، للسبب البسيط ، أن العقل لا يعرف حين يعرف مستقبلا صيغا بطريقة التركيب المادى ، بل مصدرا تلك الصيغ ومتحـولا فيها بطريقة التشابه المعـــرفى ٠

وكما سبق القول ، نظن أننا قد برهنا على شيئين : فى المقام الاول ، أن تاثير ابـن رشد فى الفلسفة الغربية كان كبيرا ، وفى المقام الثانى ، هذا التأثير لم يكن دائمـا فى خط الهرطقة وحتى الآن ، فان الهرطقة فى غير قليل من الموضوعات ليست لابن رشد ، بل للرشـديين اللاتـــين ٠

وهكذا تمضى متخذة شهرة تلك العبارة التى رددتها فى مؤتمرات دولية عـديـدة « ابن رشد ليس رشديا » لـكن حتى الآن هنـاك متخصصون اوروبيون ، والذيـن فى خطتهم التهوين من شان التأثير التقليدى لابن رشد ، وفى مواجهة وضوح الاعمـــال ، فانهم لم يعد لديهم علاج الا قبول تأثيره وان اضافوا أن الرشدية الوحيدة الحقيقيـــة هى الملحدة ، وفى المقابل ، لا توجد ملامح أساسية تسمح بالكلام عن رشدية تقليديـة حقيقيـــة ٠

وبين ايديكم عمل ، قابل للمناقشة ، ولكنى أجرؤ على تقديم برنامج للابحاث يمـكن به اثبات الملامح التى حسب رأيى ـ وقد تشكل التصور لرشدية مؤمنة فى العـــالم اللاتينى ، مع تأكيد ان هذه الملامح نوعية ، ولكن من المحتمل انها ليست المـــلامـح الوحيدة ، حيث قد يمكن وجود ملامح أكثر فى عمل أعظم اتساعا والذى قد أعده ملمحا لنوعية الرشدية اللاتينية هو مـــا يـلى :

عودة الى الاريسطية الخالصة ، وهذا سيحمل معه تصفية او تنقية للافلاطـــونيـة الجديدة فى ذلك الذى أسميه المثالية المنفصلة عن التجربة ٠

فى نظرية المعرفة اندماج بين العقل والحكمة ومعرفة فعالة ومنفعلة معا ، المعرفة هى التغير فى ماهية الاشياء عن طريق الاضاءة التى تجعلها شفافة فى العقل المادى ، ومركزا فيه على تلك المناطق الكاملة عن طريق ما هو شبيه بها ٠ ولعل ذلك سمة عامة للفلسفة الاسلامية ، ولكن فى شرح أنواع العقل المختلفة وفى التأكيد على اتحاد العقل المـــادى

من أجل ابراز روحانيته في مواجهة الاسكندر الافروديسي أعتقد انني وجدت مناطق خاصة بابن رشد ·

اتحاد الصورة الجوهرية في التركيب الهيولاني · التفرق عن طريق المادة · اسلوب تجريبي في العلوم مثلما في الفلسفة · خلق متصور حسب خطة المادة والصورة ، موسعا هذين المعنيين في الماهية والوجود من أجل شرح الحادث · وأخيرا كان جريئا في اختراقه لما جاء به الوحي من اجل اكتشاف التوافق بين الوحي والعقل ·

ضمن سياق هذا الملتقى للفكر الاسلامي ، أشعر بكل الرضا ، اذا كنت قد تركت ما يظهر بوضوح : ان الفلسفة المتطورة داخل عالم الاسلام والتي تمضي مؤثرة بعد ذلك في اوروبا المسيحية ، هي فلسفة اسلامية حقة ، ليس فقط لان مضمونها هو نفس جوهر الاسلام ، بل لان لها علاوة على ذلك الأصالة بأن قدمت فلسفة صالحة لان تكون اساسا عقليا لمدلولات الوحي القرآني ·

هذه الاسس العقلية للوحي هي التي سوف تجذب اهتمام رجال اللاهوت المسيحيين في الغرب ، والتي سوف تسبب ثورة حقيقية ، وتحول في المدرسين المسيحيين للقرن الثالث عشر ·

وبهذا أعتقد اننا نقدم خدمة عظيمة للاسلام حين ننفي عن فلاسفته تهمة الهرطقة · فابن رشد ليس هو الملحد العقلي كما صوره لنا رينان ، وليس هو الارسطي الوثني الذي سلبنا الابدية الشخصية للنفس الانسانية ، بل هو مسلم أصيل حاول ان يتعمق في مدلولات الوحي القرآني من اجل طمأنة أهل دينه في المعضلات التي يمكن ان يطرحها العقل او رجال الديانات الاخرى ·

الملاحظات الخاصة بالمحاضرة

(1) غومث نوغالث : سلفادور

الفلسفة الاسلامية وتأثيرها المحدد فى الفكر الغربى للعصور الوسطى ، (الموقف الحالى للجدل) مدريد ، مطبوعات البيت الاسبانى العربى سنة 1969 م ·

ابن عربى حلقة ثقافية بين العالم العربى والثقافة الغربية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ـ العدد 13 (65 1966) ص 25 ـ 42 ·

الفلسفة الاسلامية والانسانية المتكاملة للقديس توماس الاكوينى ومختارات جامعة الكومياس ـ العدد 47 و 48 (1967) ص 226 ـ 226 ·

الفنون الحرة والفلسفة الاسلامية «من» الفنون الحرة والفلسفة فى العصور الوسطى، أعمال المؤتمر الدولى الرابع لفلسفة العصور الوسطى ، جامعة مونتريال ، كندا (1969) ص 493 ـ 508 ·

الدراسات العربية المنشورة فى اسبانيا ، الكتاب ، بغداد ـ العدد الخامس (1970) ص 229 ـ 266 ·

التأثير الفكرى الاسبانى على الثقافة العربية ، مجلة جامعة « بشاور » فى باكستان العدد 1 (1973) ص 22 ـ 25 ·

العلوم ، النظرية والمنهج عند ابن خلدون ، Vol. "Arabica Orientalia Hispanica "Islamiqua". Pars Prior مدريد (1974) ص 351 ـ 375 ·

القديس توماس وجسارته على استيعاب الافكار الملحدة المفروضة فى عصره ، مجلة البرتغال الفلسفة ـ العدد 30 (1974) ص 185 ـ 204 ·

القديس توماس الاكوينى والعرب ، قائمة مراجع ، مختارات جامعة الكومياس العدد 73 (1975) ص 205 ـ 250 ·

(2) قنواتى ، شارل جورج : فلسفة العصور الوسطى فى أرض الاسلام ، MIDEO العدد الخامس (1958) ص 175 ـ 236 ·

(3) الفلسفة الاسلامية وتأثيرها المحدد فى أرض الاسلام . أنظر رقم واحد .

(4) نفس المصدر ص 16 وما بعدها .

(5) نفس المصدر ص 25 وما بعدها .

(6) نفس المصدر ص 27 وما بعدها .

(7) مصير الانسان على ضوء نظرية المعرفة لابن رشد ، من "L'Homme et son destin" أعمال المؤتمر الاول لفلسفة العصـــور الوسطى فى Louvain (باريس 1970) ص 285 ـ 304 .

المشكلات الميتافيزيقية فى اسبانيا الاسلامية المعاصرة لابن رشد ، من مختارات العصور الوسطى « منشورات معهد القديس توماس فى جامعة Koeln ما بعـد الطبيعة فى العصور الوسطى » مصدرها ومعناها الى برلين (1963) ص 408 ـ 413 . مشكلات ميتافيزيقية منشورة فى « تهافت التهافت » لابن رشد ، أعمال المؤتمـر الدولى الرابع عشر للفلسفة فى مدينة فيينا Wien (1969) ص 539 ـ 553 .

مشكلات حول تلخيص كتاب النفس لابن رشد ، الاندلس ـ العـــدد 32 (1967) ص 1 ـ 36 . ولكن علاوة على ذلك فان الاكثر أهمية بالنسبة للموضوع هو المحاضرة التى القيت بجامعة لوفان Louvain ببلجيكا بمناسبة مرور سبعمائة عام عـلى وفاة القديس توماس تحت عنوان « ابن رشد والقديس توماس الاكوينى » ولقد صححت تجاربها الاولى وعلى وشك الصدور ضمن كتاب عن أعمال المؤتمر .

(8) خلود النفس على ضوء نظرية المعرفة لابن رشد ، الفكـــر ، العـــدد 15 (1959) ص 155 ـ 176 .

وحدة النفس البشرية فى الفلسفة الاسلامية ، وبخاصة عن ابن عربى ، الفكـــر ، العدد 21 (1965) ص 423 ـ 444 .

(9) الفلسفة الاسلامية والانسانية المتكاملة للقديس توماس ، مختارات جامعـــة الكومياس العدد 47 و 48 (1967) ص 229 ـ 266 .

(10) اسين بلاثيوس « ميجيل » الرشدية اللاهوتية للقديس توماس « آثار الاسلام » مدريد (1941) ص 13 ـ 72 ٠

(11) رينان ، ابن رشد والرشدية ، باريس (1932) ط ٠ 9

(12) حول قرار عام 1210 « الثانى » « الاسكندر الافروديسى » ملخص لتاريخ تأثيره فى نظريته المعرفة خاين جيان Jaen 1962 .

«13) ابن رشد ، الشرح الكبير لكتاب النفس ، نيويورك (1953) ، العدد الثالث ، أنظر العدد 1 ص 1 ، العدد 2 ص 2 ، العدد 3 ص 7 ، منشورات ٠

دَور الفكر الإسلامي في ميلاد النهضة في أوروبا

كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تمارس تأثيرها القوى فى أوروبا بالذات . ؟

د • سيغريد هونكه
كاتبة فى تاريخ الاديان المقارن
والحضارات ـ بـون ـ
(جمهورية ألمانيا الاتحادية)



خليق بالذى يعتقد أن النهضة تولدت فى القرنين 14 و 15 الميلاديين عن اكتشاف الحضارة الاغريقية القديمة ـ كما يلقن ذلك تاريخ الحضارة الاوروبية ـ أن يعيد النظر فى معلوماته •

أن النهضة الاوروبية لترجع فى الواقع الى عهد يسبق هذا الذى يتحدث عنه تاريخ الحضارة الاوروبية ، الى القرن 12 مع اكتشاف العلم الاسلامى الذى منحها انبعاثا جديدا بتحرير الفكر الاوروبى من تاثير اللاهوت المسيحى • هذه القضية هى التى سأثيرها هنا تحت السؤال الآتى : كيف استطاعت الثقافة الاسلامية أن يكون لها مثل هذا التأثير القوى فى أوروبا بالذات ؟

لقد سبق لى أن تعرضت فى كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » لهذا المشكل ·

والواقع أن العرب قد أنقذوا التراث الاغريقى من الضياع والنسيان ، ولم يكتف العرب بجمع هذا التراث وترجمته ونقله ، وتنظيمه منهجيا ، بل أنشأوا علوما بالمعنى المعروف لدينا اليوم ، فقد طور العرب ، بالملاحظة والتجربة ، معطيات علمية موروثة عن الاغريق ، وطوروها حسب قانونهم وبنية تفكيرهم ·

وفيما يتميز الفكر الاغريقى بالحدس والنظر العقلى اللذين يسمحان بالكشف عن جوهر الاشياء والكائنات ذاته ـ وهو لذلك ، لانه يرى ان العمل اليدوى الشاق والحقير لا يليق بالانسان ، الحر يسعى الى الانطلاق رأسا الى سماء الافكار العامة ـ يؤثر الفكر العربى السير المتأنى بأقدام حافية للتجربة الحسية ، والملاحظة الدقيقة والمتكررة ، والارتقاء ، فى اناة ، من الخاص الى العام ، وبعبارة أوجز ، يؤثرون المنهج الاستقرائى ·

فهم اذن مبتكرو التجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم المبدعون الحقيقيون للبحث التجريبى ·

فقد أبدعوا علوم البصريات ، والفيزياء ، والكيمياء القائمة على التجربة ، والجبر ، وأريتميتيقا العلوم ، وعلم حساب المثلثات الدائرية ، والجيولوجيا ، وعلم الاجتماع ·

وزيادة على ما لا يحصى عدده من المكتشفات والمبتكرات الثمينة فى مجال العلوم التجريبية ، تركوا للغرب أثمن هدية دون شك ، ألا وهى منهجهم فى البحث العلمى الذى أخصب النمو الحالى الهائل الذى بلغته معرفتنا بالطبيعة ·

ولنتجه بأذهاننا الى أحد كبار رجالات أوروبا : الامبراطور « فريدريك الثانى » امبراطور « هوهنسطوفن» الذى بعد أن مسته نفحات الفكر العربى المنعشة ، اجتذب اليه فطاحل العلماء من العرب المسلمين ، ضاربا بذلك عرض الحائط كل ما صدر عن الكنيسة الرومانية المسيحية من تحريمات وتهجمات · ولم يكن أبدا يخيفه الركون الى الفكر الاسلامى · وهكذا رأينا أن الجرمانى والعربى يتصفان كلاهما بهذه الصفة التى افتقدها كبار علماء الغرب ألا وهى النظرة الواضحة النافذة الى « الطبيعة الحقيقية » للاشياء ··· فهما وحدهما من وعيا الامور الطبيعية كما يقول « فريدريك »

ذاته • وهما وحدهما من عرفا ـ دونما أى حكم مسبق ـ كيف يـلاحظان ، وكيـف يفحصان ، وكيف يستكشفان الواقع المحسوس •

لكن يا ترى ، ماذا فى الامر من غرابة ؟ أليس من طبيعة كل انسان ان يرى الوقائع على ما هى عليه ؟ ان ذلك ليبدو ـ فى يومنا هذا ـ أمرا بديهيا • بيد أن أهل الفكـر الاوروبى فى القرن 12 الذين تكونوا فى أحضان اللاهوت المسيحى ، واستغرقهم التأمل فى الآخرة ، كانوا فى غفلة عن عالم الوقائع • فهم لا يعيرون أهمية للطبيعة الملموسـة الا من خلال ما يكون لها من صلة بالله وبالروح ، وبقدر ما تكشف عن المتعالى • انهم لا يتخذون منها الا سبيلا لضرب الامثال ، وفى حدود الامكان ، كنقطة انطلاق لحكمـة خلقيـــة •

ولكنهم ما كانوا أبدا ليعيروا أهمية للطبيعة فى حد ذاتها • ويشهد على ذلك ما يورده كتاب « فيزيلوغوس » (علم الفيزياء) الشهير ، نتاج الاسكندرية أو سوريا فى القرن الثانى ، والمحبوب كثيرا فى العصر الوسيط عن طبيعة « النملة ـ الاسد » ، وصورة ذلك أن حيوانا ولد من أسد ونملة ، وهو ما أسمى « بالنملة ـ الاسد » • ولكن ما أن شهد النور حتى لفظ أنفاسه ، لانه عاجز عن تدبير غذائه ، فهو قد مات جوعا • وأنــه للحق الصراح بدليل الكتاب المقدس الذى يقول : « لقد مات (الحيوان) النملة ـ الاســد لان الغذاء يعوزه • » ذلك لان هذا الحيوان نتاج طبيعتين اثنتين • فحين يريد أكــل اللحم ترفض طبيعة النمل ـ وهى المولعة بالحبوب ـ أكل اللحم • وحين يروم التغذى بالحبوب تكون طبيعة الاسد هى التى تتقزز من ذلك • ولما أصبح الحيوان لا يستطيـع التغذى لا باللحم ولا بالحبوب هلك • وكذلك الامر بالنسبة الى أولئك الذين يريدون أن يخدموا سيدين اثنين : الله والشيطان • فالله يعلمهم ان يكونوا طاهرين أصفياء ، والشيطان يقنعهم بابتغاء الانحلال والفساد الخلقى ••• »

ان كلمات « فريدريك » لتضرب ـ كالصاعقة ـ الوجه الفقير الى مثل هذه الطبيعة التى شوهها بسخرية خيال ساذج وجدلية قاحلة :

« ان ما نقصده هو أن نجعل الاشياء مدركة كما هى عليه ، وكما هى عليه فى واقع الامــر » •

هذه الكلمات تطبع منعرج النظرة الى العالم فى الغرب فهذا الامبراطور الـــذى استبحر فى المعرفة والثقافة والشغوف بالقراءة والمطالعة لا يركن أبدا الى ما هو مكتوب، وانما يركن فقط الى ما يشاهده • «فنحن لا نحصل على أى يقين كذلك عن طريق السمع» كما يقول : وبفضل حظيرته الخاصة للحيوانات يعمد « أحسن ملاحظ لكل ما يقع فى متناول ادراك البصر » ـ كما يسميه العرب ـ الى ملاحظة شخصية دائمة للانواع ولنمط حياتهـا •

فلملاحظة طيوره المودعة فى أقفاص كبيرة محكمة الترتيب ، يبرهن على نفس الاطراد والمثابرة • وعلى نفس الاناة التى لا تتزعزع التى يبرهن عليها الفلكيون المسلمون لترصد حركة جرم من الاجرام السماوية • ان أوصافه لتكوين الطيور العضوى ، ولاخلاقهـا وعاداتها ، ولطيرانها لتذكرنا فى الوقت ذاته بالوضوح والدقة التشريحية الجديرين بالوضوح والدقة اللذين توحى بهما الى الاطباء المسلمين ملاحظات يقومون بها ، وهـم أمام أسرة المرضى • ذلك لان كل شىء يرتكز على « تجربتنا الخاصة » أو على « تجـربة الآخرين » حين لا يستطيع فريدريك أن يلاحظ بنفسه •

ان كتابه « فى فن الصيد بالباز » (مبحث كامل فى علم الطيور) لا يحتوى من الآراء القاطعة الا ما سبق أن أكده وأثبته فحص « شخصين ، أو ما أثبتته التجربة بصورة لا تقبل التفنيد • انه نفس التحرى ونفس الشعور بالمسؤولية « الذى حدا بعالم النبات المسلم ابن البيطار ـ وهذا نص كلامه ـ الى ان «لا آخذ عن المؤلفين القدامى والمحدثين الا ما أثبتت صحته الملاحظة وتجاربى الخاصة ، وأن أنبذ كل ما لم أستطع تأكيد صحتـه ، وكل ما تثبت مخالفته للواقع » •

يتضح بهذا أن الامبراطور الالمانى يحتل مقام مؤسس نظرة جديدة الى العالم وباعث العلم الاوروبى ، وبهذه الصفة فتح الطريق لاعقاب من المفكرين الذيـــن ـ باستثناء النزعات المدرسية ، والانسانية ونزعة اصلاحية متشبثة فى عناد بالسلطات الحاكمـة ـ ساروا بالنهضة الى أعلى المقامات مثل ألبير الكبير وبطرس ماريكورت» و روجرباكون و ليوناردو دى فنشى .و فر نسيس باكون و وتيكول دى كوكا كوبرنيك و جيوردانو برونو و وغاليلى الذين تلقوا ، بقدر أو بآخر ، التأثير العربى الاسلامى

ولن أذكر الا بصريات ابن الهيثم بصورة أساسية ، وتجاربه على أشعة الضوء ، والعدسات ، وعلى الكاميرا المعتمة ، ثم عالم النبات ابن البيطار ، والكندى والبيرونى ، وما أتى به جميعهم من حلول للمسائل الفلكية ، ثم معارف العرب فى مجال الجاذبية ، والبوصلة، والمواد المتفجرة دون أن نشير الى مكاسب الطب العربى · واليوم سنتساءل : لماذا وكيف لم تستطع شرارة العلم الطبيعى الصحيح التى أطلقها العرب أن تتقد الا فى أوروبا التى ستفيض منها من جديد على العلوم النظرية والتطبيقية والتقنية للعالم أجمع ؟ أفيكون هناك ـ بالرغم من كل الخلافات الظاهرة ـ نقاط التقاء جعلت هذا التوسع ممكنا ؟ ان الاسلام ، بعكس المسيحية ، قد شجع العلوم التى كانت ضرورية له من أجل ضبط أوقات الصلاة بقصد أداء واجب العبادة ، ولقياس حركة الافلاك ، ومعالجة المرضى ، واتقاء الاوبئة فى كبريات الامصار الخ ···

ان « طلب العلم عبادة » أو كما جاء فى الاثر · وقد أوجب الرسول نفسه طلب العلم باعتباره فريضة دينية · ويرى (عليه السلام) أن العلوم تخدم عظمة الله « خذ العلم ولو من فم كافر » كما جاء فى الاثر (معنى الحديث) ·

لكن ما ان أقبل عام 800 الميلادى حتى تجلى استقلال الفكر والبحث ازاء المعرفة الإجنبية فى العبارة القائلة « أول شرط للمعرفة هو الشك » بهذه الجملة الجريئة مهد زعيم المعتزلة ابراهيم النظام فى حوالى العام الثمانمئة الطريق لحركة اسلامية واسعة يسرت الازدهار المبكر للعلوم حتى فى القرن الرابع عشر ·

وقد كان يتهدد الاسلام فى الواقع تسلل ثنائى للعقائد الزرادشتية والمانوية من فاس ، مما نتج عنه قيام حركات من ردود الفعل الاسلامية · بما فيها مدرسة الاعتزال النشيطة جدا فى المركز الثقافى الذى كانت تمثله البصرة · وكانت بين هذه المدرسة والخليفة العباسى الثانى « المنصور » روابط من الصداقة الوثيقة ، كما كانت لها نفس الصلات مع كل الخلفاء الذين جاءوا بعده تقريبا باستثناء ابنه هارون الرشيد · وقد جعل حفيده المأمون الذى بدأ فى ظل حكمه الانبعاث الحقيقى للعلوم من مذهب المعتزلة فى عام 827 مذهبا للدولة : القول بوحدانية الله ، وبالوحدة الجوهرية للعقل الالهى

والبشرى والقول بتنزيه الاله عن كل شبه بالانسان ، القول بعدم التجسيم ، والقول بسرمدية وجوده تعالى ·

فعقل الانسان من طبيعة عقل الله ، وليس هناك من مجال لما يراد أن يتهم به المعتزلة من القول بعقلانية تحررية ، بل كل ما فى الامر أن المعرفة والعلم يجب أن ينيرا طريق الايمان ، وهذا ما دفع بالنبى (ص) الى أن يقول ما معناه « للتعلم قيمة الصيام ، لكن لتعليم العلم قيمة الصلاة » · فهو يرجع دائما الى الطبيعة · الى الارض جميعها التى « أينما تولوا فثم وجه الله » ، الى درجة أن الصوفى ابن عربى قال : نحن لا نرى فى كل ما يقع عليه بصرنا سواه ، ودون أن يغيب عن أنظارنا أبدا » · ومن ذلك أن أبا حنيفة فى حوالى منتصف القرن الثامن أجاب معتزليا سأله عن موقع مركز العالم فقال : « هناك حيث أنت جالسا » ·

لكن لا قيمة حقيقية الا لما تدركه الابصار والآذان ، وما يراه العقل المستقل صحيحا ، كما لم يلبث يكرره على المعتزلة النظام « الذى رسم السبل وفتح الامور » وقد ألهمت هذه الفكرة كثيرا من الباحثين مثل الطبيب ابن نفيس الذى قال فى حديث له بالقاهرة : « على الرغم من احترامنا الاكبر لجالينوس فات ما رأيناه بأعيننا أحق بالتصديق » فابن نفيس الذى ـ بدل أن يسلم بما يزعم من وجود فتحات بجدار القلب الداخلى تسمح ـ بمجرور الدم ـ كان أول من اكتشف ووصف نظام الدورة الدموية . أو عالم النبات الكبير ابن البيطار بالاندلس الذى قال فى مقدمة كتابه الفائق : « لم أكن من حيث المبدأ لآخذ عن المؤلفين القدامى والمحدثين الا ما سمحت ملاحظاتى وتجاربى الخاصة بتأكيده . وكل ما لم أقتنع به أن كان مخالفا للواقع أهملته » .

تلك كانت روح ولغة الامبراطور فريديريك الثانى المالوفتين لديه ، والغريبتين تماما على الغرب الخاضع لسلطة التوراة ، ورهبان الكنيسة ، وأرسطو ، وحيث كانت كل محاولة من محاولات البحث المستقل تلاحق ويحكم على صاحبها بالابتداع والمروق ، ويقضى عليه · وهذا الانجليزى · أذلهاردى باث الذى كان من الغضب على ما يحيق من القمع فى وطنه على كل اكتشاف طبيعى ، ما جعله وقد عاد من البلاد العربية ـ يتنسم نسيم الحرية الفكرية ، ويترك لنا هذه السطور ذات المغزى فى هذا الشأن :

« سنقف دون اكتشاف الجمال العجيب والمعقول للكون الذى نعيش فيه ، وسنستحق أن نطرد كما يطرد ضيف ليس أهلا لتشريف الدار التى استقبلته واحتفت به · لقد تعلمت ـ فى الواقع ـ من الاساتذة العرب تسيير الامور عن طريق العقل ، غير أنك ، وانت تسير وراء بريق سلطة ، كمسجون أحاط بعنقه طوق · ان الحيوانات لتكتفى باتباع من يجذبها بالحبل ، دون أن تعرف الى أين ولا لماذا · وكذلك الكثيرون منكم يطيعون طاعة عمياء ، وبسذاجة حيوانية سلطة الكتب المقدسة » ·

فبذرة العلم الطبيعى والتجريبى العربى انما سقطت على وجه التحديد فى الامبراطورية الالمانية ، وبأوروبا الغربية ، وعلى أرض كانت متهيئة لاستقبالها واحتضانها من أجل ان تنتج ثمارا وافرة ما تزال الارض كامل الارض تعيش منها اليوم ·

ان هذه البذرة لم تنتشر لا فى بيزنطة ، وعلى أرض اليونان التى كانت فيما مضى خصبة ، ولا فى أوروبا الشرقية أو فى روسيا ، ولا فى الهند أو الصين ، وانما انتشرت فى الغرب ·

ولماذا فى أوروبا بالذات ؟ الواقع انه ، على الرغم من كل الخلافات ، توجد هناك أوجه شبه سواء فى فن التفكير ـ طريقة التفكير الوحدوية ، أم فيما يجده العرب والاوروبيون على السواء من حاجة الى الدفاع عن أنفسهم ضد سلطة وثنائية أجنبيتين ·

قبل أن تكتشف الكتب العربية بأمد بعيد ، وقبل ان يعود الباحثون الاوروبيون الذين أموا الجامعات العربية الذائعة الصيت ، والتى كانت نماذج لجامعاتنا ، وقد اعتنوا بمعرفة المناهج العلمية العربية ، شهد الغرب ثورة كامنة على الوصاية الروحية والثنائية التى كانت ترفض الاعتراف بالطبيعة الحقة لعالم الاشياء · وفيما كان ابراهيم النظام على وجه التقريب « يشق سبلا جديدة » فى امبراطورية المأمون الاعتزالية ، كتب الايكوسى اير وخينا فى بلاط شارل الاصلع بباريس كتابه « فى ترتيب الطبيعة » وهو الكتاب الذى منح فيه حتما ، منذ البداية ، الاولوية المطلقة لحرية العقل على كل سلطة أخرى أيا كانت ، وأوصى أتباعه قائلا : « يجب الا تحولك أو تصرفك أية سلطة عما يهديك اليه العقل القائم على معرفة صارمة » · فهو يعارض ، معارضة مطلقة ،

الثنائية المسيحية والافلاطونية المحدثة ، والتعتيم ، واتهام عالم من المادة الاثمة التى لا تمثل سوى حجر عثرة بين الانسان الحائر القوى والاله الحاكم المتسلط على أعالى وآفاق بعيدة • انه وجود « آخر » و « أجنبى » تماما •

وفى رأى ايريوجينا هذا الذى يعمل بمفرده ـ على عكس النظام ـ وسيسير فى أثره عدد كبير من المتوحدين الآخرين المعاقلين معاملة الابتداعيين والمجانين ـ أن الانسان والطبيعة هما من طبيعة الهيئة ، وهما تجليات وتفتحات محدودة فى الزمان والمكان للربوبية اللامتناهية • لكن هذا الربانى الكلى الوجود يعى ذاته فى الانسان بحيث أن الوجد الالهى يلمس فى العقل الانسانى الذكاء الانسانى فيمنحه المقدرة على « فهم » الاشياء وفى رأيه أن العقل الربانى والعقل الانسانى عقل واحد • لكن بينما أفكار النظام لا تضطره الى مغادرة التراب الاسلامى ، يعارض « ايريوجينا » معارضة سافرة التزمت السائد على المسيحية مما جعله يتعرض للاحقات معلنة ، واتهامات، وغير ذلك من الاهوال التى تعرض لها هو واتباعه • الا أن الباب مفتوح • فالفكر البشرى واحد فى الطبيعة وفى جوهره وفى جوهر الاشياء مجالا جديدا للاكتشاف الربانى•وهى نقطة انطلاق دينية لعلم مبتدىء « ان طبيعة الاشياء هى تفسر لنا كيفية بناء الكون » كما أكد فى مطلع القرن 12 هونوريوس دى راتيسيون احد الاتباع الالمان لايريوجينا • وما من شىء يسلط الضوء الساطع على بداية نظرة جديدة الى العالم من جـــواب النورماندى « غيوم دى كوكشيش » على الآباء الروحيين الذين أمروه بالتماس تفسيرات لاصـــل الانسان فى التوراة • « البحث عن أصل كل شىء وعن القوانين التى حكمت ميلاده ، تلك هى المهمة الكبرى للمؤمنين فى الاتحاد الاخوى لافكارهم «الطليعية». • «وحيث سخط « ابسالون دى سانت فيكتور » على « الفوصلية المتنالية » الباحثة عن تكوين الارض وعن طبيعة العناصر وعن مواقع الافلاك وطبيعة الحيوانات ، وعن قوة الريح وحيـــاة النباتات والديدان » قال « غيوم » الساخط أيضا ، « ان الذين لا يعرفون قوى الطبيعة يريدون أن نظل تابعين لجهلهم لانهم ينكرون علينا حق البحث عن مصادر وأسباب كل شىء ، ويقضون علينا بالضلال والتيه كأناس مساكين فى ايمان غير واضح ، ومـا أن ينتهى الى علمهم أن احدا يتعاطى البحث حتى يعاملوه معاملة المبتدع المارق •

ولم يمض زمن طويل حتى نشأ ذلك « التقارب الاخوى لافكارنا الطلقة » من فطاحل علماء الاسلام ، وهو تقارب غدا ضروريا من جراء ما كانت الكنيسة تعمد اليـــه من انزال أشد ألوان العقاب على كل من يروم « البحث عن مصادر الطبيعـــة وأسبابها وقوانينها » حتى على كوبرنيك و جيوردا فوبرونو و غاليلى ومن جاء بعدهم. وقد تبدى هذا التقارب بعد ذلك مثيرا بصورة خارقة . لكن ترى أفكان ممكنا بناء علم طبيعى أصيل على صخور الثنائية القديمة للايديولوجية سواء ما كان منها اغريقيا أم مسيحيا ؟ أكان من قبيل الامكان تطوير علم طبيعى تجريبى وصحيح فى موطن تتغـير فيه القوانين باستمرار كما تتغير الامزجة بدلا من ان تكون لها قيمة عالمية ، وتختلف تبعا باختلاف ما اذا كانت تحكم الافلاك أم هذه الارض البعيدة مثل هذا البعد عن الله ؟

وما كان لعلم طبيعى أصيل ان يكون من قبيل الامكان ـ وهذا صادق أيضا على العلوم العربية ، وقد تحول منها ما كان ينبغى له ان يتحول ، وعلى العلوم التى كانت آنذاك تنشأ لذاتها باوروبا ـ الا على أرض ذات تصور دينى للطبيعة وللمفهوم الربانى الساطع للمادة التى ليست مشوبة بالخطيئة كما لا يزال عليه الحال عند « طوماس الاكوينى » ، بل مرفوعة الى التفتح المنظور والمدرك من الله الذى تشمل وحدانيته بالتوحيد بين ما كان متناهيا فى الكبر، وما كان متناهيا فى الصغر . ان الوحدة الداخلية لكل وجود، وانتظامه الدائم ، ووجوده الكلى على غرار هذا القانون الذى يجعل مركز العالم موجودا فى كل مكان ، والحركة المحايثة ، هى تلكم الشروط القبلية لكل تقدم فى العلم الطبيعى .

واذا كان عالم فوق طبيعى قد اسدل حتى الآن حجابه المعتم على الاشياء والرجال ، فان هذا الحجاب الصفيق قد أخذ يتمزق اليوم ، وتجلى العالم فى حقيقته الارضية التى تقود الى الله بدلا من ان تصرف عنه . وقد تساءل فـريدريك سونومبورغ بلهجـــة مستفزة قائلا ! « ترى لو لم يوجد العالم ، ماذا عسى ان يكون الله بالنسبة الينا ؟)
اننا نكتشف الطبيعة كلا منظما وعالميا « عالما » على مثال عالم هيلدثمارد دى بنجن و ألبير بولستادت ، أو ألبيرتوس ماغنوس لقد كان رعايا من كل البلاد الاوروبية فى ساليرنة بصقلية وفى اسبانية يعكفون بمساعدة من اليهود ، على ترجمة عـدد لا يحصى من الكتب العربية من لغة العرب الى اللغة اللاتينية ، وكانوا يعكفون على نقل

الترجمات العربية للكتب الاغريقية والمؤلفات العلمية العربية • وقد عمد فريدريك الاول الى ايفاد بربروس جيرهارد دي غريمون الى أكاديمية الترجمة فى طليطلة حيث كان يشتغل أيضا اذلارتدى باث و مايكيل سكوتوس علامة بلاط فريديريك الثانى • وقد وصلت المؤلفات العربية الاولى فى الطب من « ساليرنة » عن طريق جبال الالب ، الى جانب منتجات عديدة أخرى مفيدة ومشتهاة من المخترعات التقنية العربية التى يتداولها هيرمانوس كونتراكتوس فى جزيرة ريشدو من ساعات وأدوات قياس من كل نوع ، وآلات رافقة ومولدة للطاقة ، وعدسات ، وغير ذلك من الادوات البصرية والفلكية والطبيعية وأجهزة أخرى للكيمياء التطبيقية •

وهكذا أخذت تتدفق أكثر فأكثر معدات للبحث ذات غنى لا نفاد له ، معدات ستكون أساسا لدراسات منهجية • لكن تقدمها العنيف أحيانا ستعرقلها لمدة قرون أخرى المعارضة الكنسية واللاهوتية المدرسية • ولن تمنع هذه المعارضة بعض العلماء الافذاذ من النضال فى سبيل هذه المحاولة ، وسواء كان روجر باكون الذى ذاق مرارة عشر سنوات من النفى والاغتراب ، وخمسة عشر عاما من السجن جزاء أعماله النظرية والتطبيقية على فتوحات بصريات ابن الهيثم المدعو « بالهازن » ، وعلى الكيمياء والميكانيكا والعلوم الحربية ، « أم سيجر دى برابادت » الذى استعاض عن التعليم الثنائى لمادة أريسطو بالمذهب التوحيدى أو التوفيقى لابن رشد المدعو افيرويس وهو ما كلفه حتفه مخنوقا فى سجون البلاط البابوى ، أم الاسبانى ارنولد دى فيلانويفا الذى ستلاحقه محاكم التفتيش لترجمته وتطبيقاته لمؤلفات الطب العربية ، ومواطنه الشاب ميشال سيرفات الذى أذاع آراء ابن نفيس حول الدورة الدموية الصغرى ، والذى سيقتل حرقا بسبب معتقده التوحيدى المستوحى من الاسلام ، ثم أخيرا الامبراطور فريديريك الثانى الذى سيقيله البابا بنفسه فى مجمع ليون عام 1245 ، ويجرده من امبراطوريته ومن كل رتبه ومقاماته الشرفية ، ومن يمين الولاء الذى سبق أن أداه ، وذلك بسبب ميوله الى العرب وايثاره لهم ولغيرهم ممن يوصفون بالمبتدعين •

هنا تنبثق اللحظة الحقيقية والاليمة للنهضة الاوروبية ! والفضل الاكبر فى ذلك للعرب ، فبفضل علومهم دفعوا بالفكر الاوروبى الى التحرر من الاستيلاب المسيحى الثنائى ، والى النهوض بوحى من الافكار العربية الجديدة ·

فكيف استطاعت الشرارة العربية اذن ، أن تتقد فى أوروبا بالذات ؟ لقد كان ذلك ، لان بين العرب والاوروبيين فكرا مشتركا كان موجودا من قبل ويسمح بالتفاهم وبالاغتناء ·

ذلك لان الشعوب ـ ما لم ترغم بالعنف ـ لا تحتفظ الا بما هى قادرة على ادراكه وتمثله · وهى تلفظ محتجة أو مكافحة جهارا ، عند الاقتضاء ، كل ما لا يليق بها ·

وقبل التقائهم الاول (أى العرب والاوروبيين) بزمن بعيد فى العهد الذى كان ما يزال وثنيا ، كانت هناك بعض السمات المشتركة بين العرب والاوروبيين الذين أظهروا ـ رغم الاختلافات العريقة ـ علاقات فريدة من نوعها لم يكونوا مرتبطين بمثلها مع كثير من الشعوب الاخرى ، وهذه النقاط المشتركة ما تزال قائمة · ودون أن نمحو أو ننكر الخصائص أو البنيات الشخصية لكل جنس ، يمكن أن نلاحظ أن الشعبين قد طورا بنفسيهما ، وبمعزل كل واحد منهما عن الآخر ، بعض القواعد المتماثلة من السلوك، وفهم الامور ، ليست مع ذلك أبدا مما تتميز به كل شعوب أوروبا والشرق ، ولا هى ذات « قيمة انسانية عالمية » · واذا لم يمكن أن يكون للعرب والاوروبيين ـ بسبب أصولهم المختلفة كليا ـ تصور واحد للعالم وللاله ، فانهم يتقاسمون ـ حيثما تم لهم أن يعيشوا بحرية ـ فكرا وحدويا خاصا بهم يوفق فى شؤون الحياة كلها بين ما هو دنيوى وما هو دينى ·

يضاف الى قاعدة التفاهم المشترك هذه : نظرة واقعية للعالم ، أصبحت فى أجزاء كبرى من أوروبا ، وباستثناء أى مكان آخر من العالم ، مهد العلوم الطبيعية الحديثة وصانعتها نظرة وحدوية لا يمكن أن تقع ـ رغم تدخل العقل كله ـ فى خطر العقلانية ولا المادية ـ آفتى الثنائية هاتين ـ ، نظرة تعرف ، بعكس ذلك ، كيف تضم استدلالا واضحا ومنطقيا الى تأمل وصفى يصل الى أعمق أعماق الكائن · فقبالة الصوفيين

العربيين الكبيرين : الغزالى وابن عربى نجد هنا السيد ايكهارد وعددا كبيرا من الاعقاب بالمانيا على الخصوص ان تجانسهم وتوافقهم لأمر « يثير الدهشة » أفيكون قد حصل بينهم اتصال مباشر ؟ أفيكون « ايكهارد » مدينا بافكاره وما ألهم اليه من « التوحد والعزلة » الى « اكسير السعادة » للغزالى كما كان معاصره ، دانتى مدينا للصوفى ابن عربى بفكرته عن عروج العاشقة المؤدى الى الربانى ؟ فتدين وصوفية السيد « ايكهارد » وتلميذه « نيكولاى دى كوزا » كانا ـ من ناحية حرية فكرتهما وأصالتهما ـ ممثلى فترة جديدة هى فترة النهضة .

واذا انعكست الامور اليوم ، وكنا نحن الذين ، بروح من التعاون المتبادل فى سبيل مستقبل خصب ، أصبحنا الطرف المعطاء ، ونحن الموجودين فى العالم العربى مستفيدين من العلوم الطبيعية العصرية التى عملنا على تقدمها بتطبيقاتها التقنية ، فذلك لان الإسلام ، بعد قرون من الركود التقليدى ، والاستلاب الاستعمارى ، يشهد اليوم تجديدا يطهره من كل الشوائب ، ويعيد اليه شبابه ، وانه يعرف كيف يتلقى بدوره ، وبفطنة طبيعية ، ما أنبتته العبقرية العربية لدينا فى الماضى ، حين كانت المياه العربية تروى حقول ثقافتنا .

ازدهار الحضارة الإسلامية فى الغرب الإسلامى ودور هذه البلدان فى النهضة الأوروبية

د. عثمان أمين
فيلسوف وأستاذ شرفى
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ



كتاب « احصاء العلوم » للفيلسوف ابى النصر الفارابى كتاب طريف فى بابه ، ألف فى القرن العاشر الميلادى ، فاشتهر ذكره فى بلاد الاسلام وأصاب حسن التقدير عند اهل العلم فى الشرق والغرب ، وامتدحه العارفون وعدوه ضروريا لجميع المثقفين والراغبين فى البحث والاطلاع ، وذاع لدى العلماء والمؤلفين فى العالم الاسلامى وأصبح نواة لغيره من الموسوعات العلمية العربية •

ولقد ظهر أثر « احصاء العلوم » ونظرية الفارابى فى التصنيف فى المؤلفات العربية التى ظهرت من بعده مثل « رسائل اخوان الصفا » و « مفاتيح العلوم » لابى عبد الله محمد ابن أحمد بن يوسف الخوارزمى (المتوفى 387 هـ ـ 997 م) و « وكتاب الشفاء » لابن سينا (المتوفى 428 هـ ـ 1037 م) و « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » لشمس الدين الاكفانى (المتوفى 749 هـ ـ 1348 م) و « المقدمة لابن خلدون » (784 هـ ـ 1382 م) و « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاشكبرى زادة (المتوفى 968 هـ ـ 1560 م) وكشف الظنون

عن أسامى الكتب والفنون » لمصطفى عبد اللـه ، الشهـير بحاجى خليفة وبكاتب حلبى » (المتوفى 1068 هـ 1658 م) و « ابجد العلوم » لصديق حسن خان (المتوفى 1207 هـ 1898 م) و « كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى » . ولاشك أن الفارابى هو السابق الى الكتابة فى تقسيم العلوم وترتيبها ، وهو أيضا واضع الحجر الاساسى لبناء موسوعات العلوم فى اللغة العربية واللغات الشرقية .

ومن المسلم به الآن لدى الباحثين الغربيين أن الفارابى كان له أثر كبير فى فلسفـة العصور الوسطى : فقد ترجم كتابه « احصاء العلوم » الى اللغة اللاتينية وكانت لـه فى المذاهب الفلسفية المسيحية واليهودية منزلة مرموقة . ويظهر ذلك الاثر على الخصوص عند روجر بيكون وريمون لون . وترتيب الفارابى للعلوم هو نفس الترتيب الذى أخذ بـه الفلاسفة المسيحيون فى القرون الوسطى مع فروق بسيطة .

وحسبنا لبيان مكانة « احصاء العلوم » عند علماء الغرب فى القرون الوسطى أن نذكر ان الكتاب ترجم الى اللغة اللاتينية غير مرة ابان القرن الثانى عشر الميلادى وأهم هذه الترجمات ترجمتان : احداهما منسوبة الى « دومينكوس غنديسا لينوس » Dominicus Grundissalinus وقد نشرها كاميراريوس Camerarius ولكن هذه الترجمة ليست كاملة ولا وافية ، فقد حذف جنديسالنوس بعض فصول الكتاب وتصرف فى بعض المواضيـع بالحذف والاختصار . أما الترجمة الثانية فمنسوبة الى « جيرار دى كريمونا Gerard de Cremona وهى ترجمة كاملة دقيقة مطابقة للنص العربى للكتاب .

على أن « احصاء العلوم » كان معروفا أيضا فى المدارس اليهودية : فقد انتفـع به موسى بن عزرا (المتوفى سنة 1140 م) . وقد وجدت للكتاب ترجمة عبرية مختصرة بقلم كالونيموس بن كالونيموس Kalonymos ben Kalonymos (المتوفى 1328 م) .

والظاهر أن الكتاب أصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الاسلامية من المؤلفات التى « لا يستغنى عنها » على الرغم من ذيوع كتاب المستشرق الاسبانى Grundissalinus جند يسولنوس ، (القرن الثانى عشر) فى « تقسيم الفلسفة » de divisione philosophiae ولقد بين باور Baur أثر الاحصاء على الفلاسفة اللاتين عموما وعلى جند يسالنوس على وجه الخصوص ، وذهب الى أن « تقسيم الفلسفة » قد اقتبس « احصاء العلـوم » كلـه ، وذهب « موريس دى فولف » الى أن كتاب يسالنوس منقول عن كتاب الفارابى ، مـع شىء من التصرف والزيادة من كتب أخرى .

ويذكر العلامة فارمر أن « احصاء العلوم » و « تقسيم الفلسفة » كانا معروفين فى انجلترا منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى • وهو يرجع أن الفضل فى ادخال الكتابين بلاد الانجليز راجع الى « دانيل أوف مورلى Daniel of Morlay الذى كان تلميذا لجيراردى كريمونا فى طليطلة سنة 1175 م ولا يبعد أن يكون هو الذى أتى بالكتابين فيما حمله معه من اسبانيا من كتب عربية قيمة •

ويبين فارمر أيضا أن « فنسان دى بوفيه » Vincent de Beauvais المتوفى 1264 م ، قد عمد الى « احصاء العلوم » ونقل عنه جملا وعبارات بنصها اقتبسها من ترجمة « يوحنا الاشبيلى » للاحصاء وأوردها دى بوفيه فى كتابه Speculum doctrinale الذى نال به ما لم ينله سواه من الصيت البعيد •

وممن افادوا أكبر الفوائد من كتاب الفارابى العالم المشهور « روجر بيكون » (عاش حوالى 1214 ــ 1280) اذ نجده يذكر الفارابى مع اقليدس وبطليموس والقديس أوغسطين وبويثيوس ، وهو يوجه الانظار فى كتابه Opus Tertium الى احصاء العلوم خاصة • وقد بين بعض الباحثين من الالمان أن للفارابى أثرا بليغا فى مؤلفات « روجر بيكون » وأثر « احصاء العلوم » ظاهر أيضا فى مؤلفات « جيروم دى مورافيا Jérome de Moravie وهو من المشتغلين بالموسيقى النظرية فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ــ اذ بين «فارمر» ان هذا المؤلف قد عرض للفارابى فى فصل من رسالته فى الموسيقى Tractatus de Musica فنقل تعريف الفارابى للموسيقى بين تعريفات بويثيوس وايزردور الاشبيلى Isodore de Séville وغيرهما • وعرض لــه فى فصــل خاص عنوانه « تقسيم الموسيقى عند الفـارابى » de divisione musice secundum Alpharabium

وقد قرر فارمر أن جيروم دى مورافيا نقــل فى هذا الفصل كل ما كتبه الفارابى عن الموسيقى فى كتابه « احصاء العلوم » •

ويضاف الى ما ذكرنا أن بعض المؤلفين الاوروبيين فى القرن الثالث عشر كتبوا رسائل فى الموسيقى وكان أكبر اعتمادهم فيها على « احصاء العلوم » بطريق غير مباشر •

ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام ريمول لول Raymond Lull الذى عاش بين سنتى 1235 و 1315 وكان من المشتغلين بالدراسات العربية والظاهر انه كان واقفا على ما كتبه الفارابى فى « الاحصاء » عن تقسيم الموسيقى وقد أشار فارمر الى باحث آخر اسبانى معاصر لريمون لول واسمه يوحنا ايجيديوس الزامورى Johannes Egidius Zamorensis وذكر انه استعار هو أيضا تعريف الفارابى للموسيقى ، كما أن هناك من الاسباب ما يدعو

الى الاعتقاد بأن باحثين آخرين غير «لول» و «الزاموري» قد امتد اليهم أثر «احصاء العلوم».

وقد ظل هذا الاثر باقيا فى أوروبا حتى بداية القـــرن السادس عشر ويشهد بذلك كتابان ظهرا فى أوائل ذلك القرن . أحدهما لمؤلف اسمه « رايش » Reisch وعنـوانه Margarita Philosophica والثانى اسمه « فالاس » Vallas وعنوانه Expectendis et fugiendis rebus

وفى بحث طريف عن « أثر العرب فى نظرية الموسيقى »

The Arabian influence on musical theory

نشر فى لندن سنة 1925 بين فارمر Farmer ان لاحصاء العلوم قيمة كبيرة بالنسبة لى نظار الموسيقى الاوروبية ، كما ذكر أن منفعة الكتاب الحقيقية انما هى فى توجيه الانتباه الى « العلوم » العربية التى أقبل عليها طلاب المعرفة من الاوروبيين ، وجدوا فى تحصيلها والاستزادة منها . ولاشك عند « فارمر » فى أن احصاء العلوم قد ساق الباحثين الـذين تقاطروا من انحاء الدنيا الى اسبانيا الاسلامية ، لينهلوا من معـــين المؤلفات العربية فى الموسيقى كمؤلفات الكندى (المتوفى سنــة 874 م) ، وثابت بن قـــرة (المتوفى سنة 901) وقستا بن لوقا (المتوفى سنة 932) والفارابى (المتوفى سنة 950) وابن سينا (المتوفى سنة 1037) وابن رشـــد (المتوفى سنة 1198) وكمؤلفات ارسطـــو وأقليدس ونيوقوفا خوس وبطليموس ، وهى مؤلفات لم تكن معروفة فى اللغة اللاتينية ولكنها كانت معروفة فى العالم العربى .

ولا يبعد أن تكون الفصول الخاصة بعلم الموسيقى من كتاب « الشفاء » و « النجـاة » لابن سينا قد عرفت باللغة اللاتينية . ولكن من المحقـــق أن كتاب « المدخل فى صنـــاعة الموسيقى » للفارابى كان معروفا فى اللغة العبرية .

واذن فقد كان لاحصاء العلوم فى أوروبا المسيحية أثر عظـــيم ، وخاصة فى نظـرية الموسيقى ، كمـــا بين العلامـــة « فارمر » وغـيره مـــن الباحثـين الاوروبيين والبارون درنيجية . ولقد تأكدت الآن صحة الرأى الذى أبداه فارمر سنة 1930 (وقائع تاريخية عن التأثير العربى فى الموسيقى) من أن الفارابى كان أكبر من كتبوا فى نظرية الموسيقى أثناء القرون الوسطى .

ولابد أخيرا من أن نشير الى فضل الفلسفة الاسلامية على الفلسفة اليهودية . لقد اشتغل اليهود فى القرون الوسطى وسطا فى نقل الثقافة الاسلامية الى الغرب ، كما قال دوبور : « اشتركوا فى كل أطوار الثقافة العقلية عند المسلمين وكان كثير منهم يكتبون باللغـــة

العربية ، وآخرون ترجموا المؤلفات العربية الى اللغة العبرية • ويرجع الفضل فى بقاء الكثير من كتب الفلاسفة الاسلاميين الى هذه الترجمة » •

وقد بلغت فلسفة اليهود ذروتها ممثلة فى شخص ابن ميمون (1135 — 1204) الذى حاول أن يوفق بين مذهب ارسطو وبين العهد القديم متأثرا فى ذلك بالفارابى وابن سينا فى الغالب • وأخذ اليهود يحظ من معالجة العلوم فى الدول الاسلامية أيام ازدهارها وقد تمتعوا من جانب المسلمين بل نالوا حظوة عندهم ولكن مكانتهم تبدلت بعد سقوط تلك الدول وتدهور المدينة (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) •

ويقرر اسرافيل ولفنسون فى كتابه عن موسى بن ميمون أن « مما لا شك فيه أن ظهور التفكير الفلسفى الدينى اليهودى فى القرون الوسطى انما هو نتيجة لاتصال اليهود بالحضارة الاسلامية الفلسفية وكانت الفلسفة اليهودية تتقدم مع الفلسفة الاسلامية عامة . كان أول من اتصل بالفلسفة الاسلامية من اليهود سعاديا الفيومى الذى اعتنق كثيرا من آراء المتكلمين • ويقول ولفنسون أيضا عن كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون وكذلك ورد فى هذا الكتاب بحث مفصل فى منزلة المعتزلة والاشعرية والمتكلمين « مما يدل على انه درس المذاهب الاسلامية دراسة واقعة• وعلى العموم كان له المام بالفلسفة العربية ويندر أن يتوفر شخص آخر من احبار اليهود فى القرون الوسطى ... وذلك يتضح من نصيحة أداها الى احد تلاميذه (ابن تبّون) مترجم دلالة الحائرين الى العبرية اذ يقول «وعلى العموم ألفت نظرك الى انه لا تجهد نفسك في كتب المنطق ولا تعن الا بما كتبه أبو نصر الفارابى ... لان أبا نصر كان حكيما فيلسوفا كبيرا ومصنفاته صحيحة• يرشد الى سبيل الحق من يبحث عن الحكمة » •

ويقول ولفنسون عن رسالة فى صناعة المنطق ، كتبها ابن ميمون باللغة العربية ، وقد وضعها لعلماء اليهود ذوى الالمام بالادب العربى الذين يحتاجون الى علم الفلسفة والمنطق الاسلامى • ويذكر فى بداية هذه الرسالة أن المنطق لا يعد علما قائما بذاته بل هو وساطة الى تمرين التلميذ والمعلم على البحث وتنظيم التفكير تنظيما معقولا وهو للعقل كالقواعد للغة : فكما تعين القواعد على فهم اللغة يرشد المنطق الى مسلك الضبط وتنظيم العقل •

ونلاحظ أن المقارنة التى عقدها ابن ميمون بين المنطق واللغة مقارنة قد وردت من قبل فى كتاب « احصاء العلوم » للفارابى • قال الفارابى : هذه الصناعة (أى صناعة المنطق) تناسب صناعة النحو : ذلك أن نسبة صناعة المنطق الى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو الى اللسان والالفاظ • فكل ما يعطينا علم النحو من القوانين فى الالفاظ ، فان علم المنطق يعطينا نظائرها فى المعقولات (الاحصاء ص 68) •

ويبدو لنا أن اطلاق لقب « المعلم الثانى على الفارابى » يمكن تفسيره باشتهار فيلسوف الاسلام بكتاب « احصاء العلوم » الذى خاض فى العلوم المشهورة لعهده ، كما اشتهر أرسطو « المعلم الاول » بالكتابة فى علوم زمانه ٠ ولان مؤلفاته كما يصفها ابن ميمون « مؤلفات ترشد الى سبيل الحق من يبحث عن الحكمة » ٠

ضرورة تصنيع العالم الإسلامى واختيار أحسن الطرق لتفادى الأمراض التى تعرفها المجتمعات المصنعة

محمد الهاشمى بوجملين
مـدير صناعة الحديد والصلب
والمعـادن
وزارة الصناعـة والطاقة
ـ الجـزائر ـ



ان الموضوع الذى يشغل بـالنـا اليوم يدعونا الى التفكـير فى مشكل ذى أهميـة عظمى بالنسبة لمصـير المجتمع الاسلامى · ومما لاشك فيه ان مثل هذا الموضوع واسع متشعب ، فهو يتناول بالفعل عالما اسلاميا مكونا من حقائق سياسية واقتصادية واجتماعية جد متنوعة ومن مستويات وعوامل انمائية تختلف كثيرا بعضها عن بعض وبطبيعة الحال لا نزعم اننا سنعالج موضوعا كهذا باستفاضة أى اننا لا ناخذ بعين الاعتبار الحقائق الخاصة بكل بلد اسلامى ، بل سنتطرق الى الاعتبارات العامة ·

الموضوع ليس غريبا عن اهتمامات العالم الثالث ، وهو وان كان خاصا بالعـالم الاسلامى ، يمكن أن تندرج فيه كل مشاكل العالم الثالث الخاصة بالتطور الاقتصادى ، الا ان الامر يتعلق بالعالم الاسلامى كمجموعة واسعة ذات صبغة خاصة ٠

وانطلاقا من هذا المفهوم ، سنتعرض أولا لما يبدو لنا كأسباب ودوافع قطعية تبـرر اضطرار البلدان الاسلامية لسلوك سبيل التصنيع بكل عزم فيما اذا كانت مصممة على الخروج من التخلف ، ونقول مرة أخرى اذا كانت مصممة على الخروج من التخلف لان التحرر ، هنا وفى المجالات الاخرى ليس مجرد تمنيات ولا تهريج سياسى .

ثم بعد ذلك سينصب تفكيرنا على ما يبدو لنا انه الوسيلة الكفيلة بابعاد البلـدان الاسلامية الاخذة فى التصنيع عن الامراض المنتشرة فى المجتمعات المصنعة ٠

ويكتسى المشكل أهمية بالغة لانه يتعلق بمصير قيم حضارتنا ، هذه القيـم التى تخصص لها كل سنة دراسات قيمة ومناقشات هامـة تدخل فى اطار الملتقيات التى تنظمها منذ عشر سنوات الوزارة الجزائرية للتعليم الاصلى والشؤون الدينية بطـريقة جديرة بكل تقدير وثنـاء ٠

ان الفكرة التى يدور حولها حديثنا لم يغفل عنها كل الذين فكروا فى الهزات العنيفة التى تعرض لها العالم الاسلامى منذ القرن التاسع عشر عند احتكاكه بالعالم الحديث ٠ وهذه الهزات مهما كانت الاشكال التى ظهرت فيها عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، فانها قد فرضت على الفكر الاسلامى أن يتساءل عن قدرته فى مواجهة تحدى الحضارة الغربية والحضارة المسماة بالصناعية بشكل عـام وبالتالى ان يعطى للمجتمع الاسلامى الاسلحة الضرورية للنضال الذى عليه أن يقوم به فى المستقبل تثبيتا لقيمه العالمية مرة أخرى ٠ وبالفعل ان شعور البلدان الاسلامية بتخلفها المذهل فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية يمكن تأريخه على الوجه الاكمل حسب كل بلد ٠ غير أن مثل هذا الشعور لم يكتس نفس الاهمية فى مختلف البلدان الاسلامية ٠

ومع ذلك فاننا سنلفت انتباه السادة الكرام الى ان مشكل التطور ولو أنه قد طرح بأشكال مماثلة من قبل أجيال متعاقبة من المفكرين والسياسيين المسلمين منذ ما يقرب

من قرن ، فان الحلول المقترحة كانت تختلف اختلافا كبيرا حسب الزمان والمكان • وقد احتفظت بعض المؤتمرات الاسلامية بدون شك بصدى المناقشات التى كانت تـــدور آنذاك حول مثل هذه المواضيع •

ونذكر على سبيل المثال أن تصورات مصطفى كمال أتاتورك لا تتلاءم مع مـــا كان يقترحه قبله مثلا منذ بضعة عقود أئمة اصلاحيون مثل جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده أو مع ما تتصوره الجزائر حاليا فى اطار الميثاق الوطنى الهام الذى أقـرته الجماهـير الجـزائرية •

ولتحديد أهمية ومدى النقاش الذى يقوم به العالم الاسلامى فى مجـال التنمية ، يتحتم علينا أن نضعه من جديد فى اطار التطور التاريخى الذى ظهر فيه والذى يستمر فيه بحدة متزايدة ، أن مثل هذا النقاش لا يمكن أن يكون من النوع التقليدى الخاص بالندوات التى يعقدها بعض المثقفين الذين لا يهتمون بحقائق بلادهم أو ببعض العقول التى تقوم بمضاربات عقيمة وغير مجدية وهى متقوقعة فى بروجها العاجية • بل لابد أن يكون هذا النقاش يدور حول مركز اهتمام واحد هو التطلعات العميقة للجماهـير المسلمة • لماذا ؟ لان هذه الجماهير هى التى تستغل فى حال التخلف ولانها ، بفضـــل التضحيات التى تقدمها ، أهم سند لكل مجهود يبذل فى سبيل التنمية •

وهل يجب التذكير بأن بعض القيم الثقافية الاسلامية ، التى كانت تنشر الحضارة فى الماضى ، قد اعتراها الانحطاط لانها قبلت أن تفصل عن الحقائق التى كانت تعيشها الجماهير وان المجتمع الاسلامى كان قوة اجتذاب وتأثير طيلة المدة التى عرف فيها كيف يعمل على تعبئة مجهودات هذه الجماهير وشحذ اخلاصها ؟

ان هذه الملاحظة تهدف بكل بساطة الى التذكير بأهمية الدور الذى لعبته أو لـــم تلعبه الجماهير المسلمة خلال التاريخ •

وعلى هذا ، فان الاهتمام المتزايد الذى يوليه المجتمع الاســـلامى لمشاكل التنمية يكتسى طابعا خاصا اذ انه وليد مجتمع يتناقض ماضيه المجيد بشدة مع حاضره المفعم بالامل رغم ركوده وتخلفه •

بعض المؤشرات ذات الطابع التاريخى :

وبهذا الصدد يجدر بنا التذكير بان الحضارة الاسلامية قد كونت بالنسبة للفكر العالمى منبعا ينهل منه الهامه ومرجعا يباهى به · فقد لعبت دورا بارزا فى اثراء تراث الانسانية لانها قد كانت لمدة طويلة مصدر تقدم مادى وثروة روحية ، غير انها وقعت خلال القرنين الاخيرين ضحية الاستعمار الغربى الذى اعتدى عليها فابعدها متعمدا عن التيار العالمى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ·

ولكى ينجو من الابادة فقد نظم المجتمع الاسلامى مقاومته بالانطواء على نفسه · وقد استعملت القوات المعتدية كل براعتها فى استغلال هذا الانطواء الدفاعى والمحافظة على استمراره · وقد تحول هذا الانطواء فى كثير من الاحوال ، وبفعل تضافر هذه القوات المعتدية مع الرجعية الداخلية ، الى اهتمامات مرضية بل وحتى انتحارية ، كما يشهد على ذلك النيل الذى لحق ببعض القيم الاساسية للحضارة الاسلامية بدليل أن التفسير الجبرى للمصائب التى اثقلت كاهل العالم الاسلامى طيلة هذه المدة ، كان مصدرها الصدمة الناتجة عن هذا الاعتداء ·

لقد أخضع العالم الاسلامى لسيطرة كاملة لم تقتصر على تجميد امكانياته الانمائية فحسب ولكنها تسببت فى تأخره فى جميع الميادين وخاصة الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ·

ان الهدف الاول الذى حددته البلدان ·لاسلامية هو بحكم الواقع استرجاع سيادتها السياسية وقد جاء الدفع الحاسم من الحركات الوطنية والاصلاحية · الا ان الطريقة المتبعة فى استرجاع السيادات الوطنية ، رغم طولها وصعوبتها والمعاناة التى تكبدتها من أجلها الجماهير لم تأت بتغييرات جذرية على حالة تخلفها ·

ولنلاحظ ان هذه المرحلة الاولى رغم ما اكتسته من ضرورة قد اقتصرت فى اغلب الحالات على تبنى مجموعة من البنيات الاقتصادية والاجتماعية التى كان طابعها الاساسى تنظيم التخلف والابقاء عليه · وفيما يخصنا ، نلاحظ ان هذا الاشراف على البنيات

الموروثة كان يعنى ان الطبقات الحاكمة كانت تتبنى أحيانا وبدون وعى منها المقاصد الاقتصادية للنظام الاستعمارى ، مجمدة بذلك كل امكانية للتطور ٠

ان ما ذكرناه يعتبر سببا من الاسباب التى جعلت عددا كبيرا من البلدان الاسلامية لا تجمع اليوم شروط ما يسمى بـ « الانطلاق » الاقتصادى رغم مرور فترة طويلة على استرجاعها سيادتها السياسية ٠ فالجماهير فى هذه البلدان لا يزال مستواها المعيشى منخفضا ، والفلاحون ما يزالون فى معظمهم على هامش التطور ، والتباينات الاجتماعية تتزايد ، والقليل من التطور الاقتصادى الذى يحقق سرعان ما يزول بسبب التزايد السكانى وتقع الوسائل والعوامل الانمائية الطبيعية تحت مراقبة الاجنبى المباشرة أو غير المباشرة ، واذا كانت تبعية هذه البلدان للدول المصنعة تزداد خطورة ، فليس ذلك من قبيل الصدفة ٠

وبطبيعة الحال فان الذين يستفيدون من مثل هذه الاوضاع يقدمون تفسيرات تهدف أساسا الى تبرير الامر الواقع والى تطويق القوى التقدمية ٠

أما نحن فاننا نفسر ذلك بالتكيف الماكيافيلى للاستعمار الحديث مع الحالات الجديدة المترتبة عن استرجاع السيادات الوطنية فى العالم الاسلامى وبعبارة أخرى فان قبضة الاستعمار الحديث تتم بأشكال جديدة ولكنها ترمى الى نفس الاهداف التى كان يقصدها فى الماضى ٠ ان هذه القبضة تتفنن فى اعاقة العالم المتخلف وهو العالم الاسلامى ، من استرجاع وسائله وعوامله الانمائية والتحكم فيها ٠

اخفاق نماذج التنمية الاقتصادية المستمدة من مدارس الاستعمار الجديد :

بناء على ما تقدم فقد تم اقتراح واحيانا فرضت نماذج انمائية كان هدفها الوحيد ، ابعاد البلدان الاسلامية عن الطرق الكفيلة بدفعها نحو التطور وجعلها تؤمن ايمانا راسخا بأن عجزها عن السيطرة على وسائل هذا التطور ، هو عجز متأصل فيها ٠ ونذكر على سبيل المثال بعروض التصنيع التى قدمتها الدول المصنعة والمبنية على الاكثار من الصناعات الصغيرة أو أعمال التركيب أو التكييف التى تشغل الكثير من اليد العاملة ذات الاجور البسيطة ولا تتطلب استثمار رأسمال كبير ، ويمكننا أن نذكر أيضا

بالاقتراحات الاخرى التى ترمى الى اقامة وحدات انتاجية مختارة يتعمد أن يكون طابع انتاجها الثابت تزويد الصناعات الاساسية والصناعات التحويلية فى البلدان المصنعة ٠

ولنفس الهدف فان طريقة التطور الاقتصادى التى عرفها الغرب منذ القرن التاسع عشر استدل بها فئة من داخـل البلدان الاسلامية مثلما استدل بها النظام الاقتصادى الدولى الراهن ، لان أولئك وهؤلاء متفقون على مقارنة حالات تاريخية لا تقبل المقارنة وعلى أن يستخرجوا منها مخططات انمائية تعطى صورة هزلية تشوه تطلعات جماهيرنا الشعبية الى التطور والازدهار ٠

ولنذكر كذلك وفى نفس الفكرة ، بالدور الاقتصادى الذى منحته نفس هذه الاوساط للتكنولوجيا المسمـاة « بالمتوسطة » وبمحاولاتها التعسفية الهادفة الى فـرضها عـلى البلدان الاسلامية تخصصا اقتصاديا يرمى الى ابقائها فى حالة تخلف ٠ وهكذا تعزى الى بعض بلداننا مؤهلات توصف « بزراعية » أو « حرفية » أو « سياحية » وأخيرا ماذا نقول عن العديد من أشكال المساعدة المالية والاقتصادية وغيرها التى يلوح بها لبعض البلدان الاسلامية لضمان استقرارها فى حين انها مبنية على اختلال مصالح الاطراف ٠

ان مثل هذه العلاقات ، عندما توجد ، تتمخض بصفة عامة عن علاقات لا يمكن أن تكون متساوية ، وتتحول فى ظلها المساعدة التى يدعون أنها « مؤمنة » الى مصدر افقار وتوتر اجتماعى بالنسبة للبلد الذى يتلقى المساعدة ، بينما يستحوذ البلد الذى يدعى المساعدة على جميع الاربـاح ٠

وهذه الملاحظة لا تخص طبعا ، أشكال المساعدة أو العلاقات التى تاخذ بعين الاعتبار تطور مصالح الاطراف ٠ ونلفت الانتباه الى ان النماذج الانمائية المستوحاة من مدرسة الاستعمار الحديث لا تعنى سوى التخلى عن القيادة الاقتصادية للخارج ٠ ان تطبيـق مثل هذه النماذج فى بعض البلدان الاسلامية قد أدى فى بعض الاحيان الى ظهور نوع من النمو الاقتصادى ، لا تستفيد منه ، نظرا لاقتصار منافعه على فئة معينة ، الا اقليات اجتماعية ، تاركا بذلك الجماهير تتخبط فى البؤس واليأس ٠ ومن جهـة أخرى فان مثل هذا النمو غير المحصن نظرا لتبعيته تجـاه الاجنبى ، لم يحمل فى طيـاته ، فى

نظرنا ، تطورا حقيقيا · وليسمح لنا بلفت انتباه السادة الحاضرين الى ان هذا التطور الذى لا تنتج عنه آثار انمائية لا يمثل نظرة حقيقية ولا افتراضا مذهبيا حيث أنه بكل بساطة ، موجود فعلا ، ولسبب وجوده بالضبط صار له أنصار بارعون لا مبدأ لهم ، مستعدون للتغرير ببراهين خادعة ، بأن هذا النوع من الاقتصاد المبنى على ترك أمر القيادة الاقتصادية للخارج يكون نافعا للبلد المعنى على حد قولهم وأنه لا يمثل ، فى جميع الاحوال سوى مرحلة فى طريق التطور ، لابد أن تتبعها مراحل أخرى ···

وعلى هذا فان التوضيح الدفاعى لهذه المخططات يتمثل فى « الضغط العلمى » الذى يشهده العالم الاسلامى منذ عشرات السنين وخاصة خلال العقد الاخير الذى يطلق عليه اسم « عقد التنمية » هذا الضغط العلموى الذى بدأ بصفة منتظمة بناء على تحليلات تعتمد على التضليل الفكرى لدرجة أن الفكر السليم يشوه فى كل مرة دون أى خجل ·

وقد لاحظنا أن المرحلة الاولى التى تمثلت فى استرجاع السيادات الوطنية لم تخلق فى عديد من البلدان الاسلامية ظروفا انمائية تستجيب لرغبات الجماهير المحرومة · ان مثل هذا المأزق ناتج أساسا عن ادعاء البرجوازية ، التى تربط مصالح الوطن بمصالحها الخاصة ، انها صاحبة الحق فى تسيير وتطوير الاقتصاد ·

عجز البرجوازية فى البلدان الاسلامية عن الاضطلاع بمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية

ان الملاحظة القائمة حاليا تبين انه لا وجود ، فى كثير من البلدان الاسلامية ، للطبقات الاجتماعية التى تسمى عادة بالبرجوازية الوطنية والتى هى جديرة ماديا وتقنيا بأن تاخذ على عاتقها تطورا اقتصاديا واسع النطاق يستطيع أن يضمن للجماهير ، ظروف حياة افضل يتمثل فى اقامة نظام يتسم بالعدالة الاجتماعية ويضمن للبلدان أسس تطور ذاتى الدفع أى استقلالا حقيقيا ·

اجل ؟ يمكننا ان نتصور لحظة واحدة سياسة تصنيعية مستمدة من خطط اتبعتها فى الماضى برجوازيات المجتمعات الليبيرالية المصنعة · ان مثل هذه السياسة التصنيعية تفرض ان البرجوازية الوطنية الاسلامية ، تملك الوسائل التى يتطلبها هذا التصنيع

وهي الوسائل المالية والبشرية والتكنولوجية · الا انـه من البديهى ان البرجوازيات الوطنية لعـدد كبير من البلدان الاسلامية لا تملك كـل أو بعض هـذه الوسائل التى لا يمكن ان يوجد بدونها تصنيع بالمعنى الذى نقصده · وحتى ولـو امتلكتها كلهـا ، لخصصتها قبل كل شىء لمصالحها الطبقية وذلك فى اطار تحالف مع مصالح البلـدان المصنعـة ·

ان ما نعرضه هنا ليس مجرد خيال ، اذ ان البحث عن الفائدة ، الذى هو بـدون شك هدف مشروع يراد بلوغه فى اطار مؤسسة خاصة غير مستغلة ، يتحول على مستوى البرجوازيات الوطنية الى تلهف على المزيد من الارباح الطائلة وبذلك يوجه استثماراتها نحو القطاعات ذات المردود المالى الواسع والسهل والسريع · اما تطور باقى القطاعات الاقتصادية التى تلعب دور مدعم ومنشط الدخل البرجوازى فهو متروك بكل بساطة للدولة لكى تتحمله · فالدولة بما انـه لا يمكنها ان تعبىء الا جزءا ضئيلا من الناتج الوطنى ـ اذا ان القسط الاكبر تستهلكه البرجوازية فى المشاريع التى توكل اليهـا ولمصالحها الخاصة ـ سوف لا تقوم الا بأعمال انمائية محدودة · ان البرجوازية لا تستطيع حتى فى القطاعات التى تختارها بنفسها ان تقوم بأى شىء بدون المساعدة الاجنبية ، لا سيما وان هذه المساعدة الاجنبية تستجيب بسهولة لطلبات البرجوازية الوطنية خاصة وان مصالحها هى التى توجه مصالح نفس هذه البرجوازية فى السباق الجنونى نحـو الربـح الاكبـر ·

ان مثل هذا التوافق فى المصالح والاهداف يشكل مجـالا لتشجيع كـل أشكال المضاربة : النقدية والمالية والعقارية··· الخ ، ويشجع الرشوة على جميع المستويات ، ويتمخض فى الامد القريب ، عن استثمارات عشوائية ليس لها اثر بعيد فى تنمية البلاد

حقا ان هذا النوع من الاستثمار يسفر عن عدد من النتائج التى تبدو ايجابية مثل خلق الوظائف وصنع منتجات يطلق عليها اسم « منتجات وطنية » وتكييف اليد العاملة مع أشغال تتطلب مستوى ضعيفا من الكفاءة ··· الخ ، غـير ان هذه النتائج محدودة بالضرورة كما ونـوعا بالطابع الهامشى للقطاعات المتعلقة بها ، وباهدافها المتمثلة فى تكثيف الاربـاح ·

وهكذا يحول فائض القيمة الناتج عن المجهـــود الجماعى لفائدة المصالح الاجنبية ولفائدة اقليات وطنية ·

من الواضح ان البرجوازية الوطنية لو أخذت على عاتقها نمو البلاد فانها لا تستطيع أن تحققه لاسباب ترجع لنفس الوقت للوسائل المحدودة التى تمتلكها والى هدفها المتمثل فى الحصول على أقصى حد من الربح ·

بالاضافة الى ذلك ، فان عدم التكافؤ المفرط الذى تتميز به علاقات هذه البرجوازية مع الطرف الاجنبى يكون فى حد ذاته عامل استغلال لها وبذلك فان هذه الاخيرة تمكن الاجنبى من السيطرة بأقل ثمن ، لا على القطاعات الرئيسية الاقتصادية فحسب بــل وحتى على الدولة كلها ·

لقد حاولنا بهذه الملاحظات أن بين الاسباب الرئيسية للعجز الموضوعى الذى تتميز به البرجوازية فى عدد كبير من البلدان الاسلامية فى التغلب على التخلف والقضاء على الظلم الاجتماعى الفاضح وبعبارة أخرى فى وضع حد لنظام استغلال الانسان للانسان ، تلك العاهات وكثير من أمثالها التى تساعد على ابقاء الدول الاسلامية فى حالة ضعف وقلة اعتبار وهو ما يتنافى مع القيم الاسلامية ·

الاستراتيجية الاشتراكية للتنمية ، وسيلة لتكثيف التنمية وشموليتها :

الواقع انه للتوصل الى استئصال هذه العاهات التى يستنكرها الاسلام ، يتحتـم اختيار استراتيجية انمائية كفيلـة بالقضاء فى فتـــرة معينة على مختلف العـــوامل الاجتماعية والاقتصادية التى تعمل على استمرار التخلف ·

ان الضخامة والتعقد والاستعجال التى تتميز بها الاعمال الواجب القيام بها فى هذا الميدان يفرض علينا تبنى استراتيجية تتكيف مع كل حالة معينة · واذا كانت وسائل مثل هذه الاستراتيجية تختلف من بلد لآخر ، فان الاسس واحدة ، أى من جهة ، القضا على مراكز نفوذ الاستعمار الجديد وهذا معناه استرجاع وسائل وعوامل التطـور التى اغتصبت منها · ومن جهة أخرى امتلاك الدولة لكل وسائل الانتاج الموجودة · وبعبارة أخرى ، ضرورة تعبئة مجموع الوسائل البشرية والمادية التى يمكن لبلد ان يمتلكها ·

وطريق التطـور الاشتراكى هـو الوحــيد الذى يسمح يمثل هذه التعبئة للوسائل والامكـانيـات •

واذا ما تـــم القضاء على مراقبة الاجنبى للاقتصاد واسترجاع الوسائل والعوامل الانمائية ، يصبح بامكان البلـد ان يتعهد ببنـاء مجتمع يستجيب لتطلعات الجماهـير للازدهار والرقى لا مجتمع يحمى مصالح الطبقات • ومن البديهى ان الامـــر يتعلق باختيار سياسى جوهرى يفرض على البلاد التى تلتزم به ان لا تعتمد الا عـلى نفسها ، حيث ان الامبريالية لا يمكنها أن تســـاند سياسة تهـــدد مصالحها ومصالح حلفائها الحقيقيـين •

والواقع ان مثـل هذه الاعمال لا يمكن تطبيقها الا اذا دخلت فى اطار استراتيجية انمائية اشتراكية • ولا يوجد لها بديل فى رأينا ، نظرا لخطورة الموقف والعداء الذى يمكن أن يثيره على الصعيدين الداخلى والخارجى ، انتهاج الاشتراكية كسبيل للتنمية •

مقتضيـات الاســلام الـروحية والمـادية :

هناك أمر لا يجوز لاحد نكرانه وهو ان المجتمع الاسلامى المعاصر الذى يتألف مـن حوالى 700 مليون نسمة يواجه ضرورة حتمية تتمثل فى سد الحاجيات الاساسية لجميع أفراده وذلك بأن يضمن لهم مستوى من المعيشة لائقا بهم • ان واجبا مثل هذا لا يتبغى لاى كان ان يجعله يتعارض مع الواجبات الاخرى التى جاء بها الاسلام •

ثم ، هل حدث فى التاريخ الاسلامى باستثناء عصور الانحطاط مثل هذا التعارض بين الواجبات ؟ ألم يكن الامر على العكس من ذلك تكاملا وترابطا بين الواجبات ؟

ليس هناك تعارض يستحيل التغلب عليه بين تطبيق أصول العقيدة مثلا والواجبات التقنية والمادية التى يتطلبها التطور ونعنى هنا التصنيع • ولكن اذا كان مثل هـــذا الموضوع قد بقى يشغل البال فذلك راجع فى راينا الى اصرار البعض على تفسير أصول العقيدة والقيم الاسلامية بصفة عامة تفسيرا سطحيا أو مغرضا وقد يرجع ذلك أيضا لانعدام يؤسف له فى التفكير المنظم على مستوى المجتمع الاسلامى ونقصد بذلك الاجتهاد وينتج عن ذلك نوع من التفكير الشاذ الذى لا ينظر الى الرجل المسلم على انه انسان •

وقد أكد على ذلك الرئيس هوارى بومدين فى الجمعية العامة لمؤتمر القمــة الاسلامى الذى انعقد فى فبراير 1974 بلاهور حيث قال : « ان التجارب الانسانية فى عدد مـن مناطق العالم قد برهنت على ان الروابط الروحية سواء كانت اسلامية أو مسيحية لم تستطع ان تصمد أمام ضربات الفقر والجهل العنيفة ··· فالشعوب الجائعة تحتاج الى الخبز والشعوب الجاهلة فى حاجة الى المعرفة والشعوب المريضة تلزمها المستشفيات » ·

الواقع ان الرجل المسلم ينبغى أن تضمن له حقوقه الاساسية فى المآكل والمسكـن والمعرفة أى مستوى معيشى لائـق · ان عصرا يتزايد فيــه اهتمام جماهيرنا بمصيرها المادى والاجتماعى والثقافى يكون فيه من العبث الاستمرار فى تجاهل احتياجاتها أو التمادى فى الكلام عن الطرق والوسائل التى تؤدى الى تحقيقها · الا يجدر بنا التفكير بان انحطاط الحضارة الاسلامية يعود فى بعض جوانبه الى ان الاقطاع قد عرف كيف يستغل لفائدته القيم الاسلامية فحرم بذلك الجماهير من الوسائل التى تضمن لها الحـد الادنى من الرفاهية المادية ؟

لا يمكن للجماهـير الاســلامية المعاصرة ان تصــــل الى الرقى والثقافة ، ولا ان تساهم فى تنشيطهما وتنميتهما اذا استمرت فى خمولها فى الميادين المادى والاجتماعى ، فالتطور الحقيقى للمجتمع الاسلامى يتطلب حتما رفع مستوى الجماهير ·

ان هذه الاعتبارات تهدف الى التأكيد على الاهداف الهامة والمستعجلة التى يجب أن توكل الى الاستراتيجية الانمائية فى العالم الاسلامى ، ذلك أن ميزة الاهمية والاستعجال التى تتميز بها مثل هذه الاهداف تفرض اختيار التصنيع كمحرك للتنمية · ومعنى ذلك ان على هذا التصنيع ان يدمج ، فى مسيرته التحويلية الواسعة ، الرجل المسلم ومحيطه دمجا كاملا · ان تصنيعا يرمى لمثل هذه الغاية لا يشبه المحاولات ، أو البدايات التصنيعية المعروفة فى عدد كبير من البلدان الاسلامية ، بل يجب أن يكون الاداة المفضلة لسياسة انمائية مخططة واسعة النطـاق ·

وانه لمن دواعى الابتهاج ان نلاحظ ان توجيه مجهود التنمية بهذا الشكل بـــــدأ يتجسم فى بعض البلدان الاسلامية التى احدثت قطاعا تابعا للـــدولة يشمل الميادين الاستراتيجية والحيوية للنشاط الاقتصادى والاجتماعى ·

إن هذا القطاع الذى يلعب دور القوة المحركة للتنمية لابد ان يعزز حتى لا يتراجع فى وجوده فى يوم من الايام ، أو يصرف عن الاهداف التى انشىء من أجلها اذ انه يمثل بالفعل القاعدة التى يمكن الانطلاق منها للقضاء على هيمنة راس المال الاجنبى وسيطرة الدولة على جميع وسائل الانتاج ·

التصنيع اداة لاستراتيجية انمائية شاملة :

ان التصنيع المندرج ضمن تنمية اشتراكية هو الذى يضمن للبلاد بكثرة وبسرعة وبصورة دائمة :

- توفير أسباب الثراء بفضل مختلف أنواع الانتاج التى يؤمنها والمدخولات التى يدرها على البلد ، والوفر الوطنى الذى يحدثه ·
- تكامل وتطوير مختلف القطاعات الاقتصادية للبلاد ولاسيما القطاع الزراعى ·
- توفير الوظائف المربحة ونشر التدريب الفنى والتكنولوجى ·
- نشر ثقافة علمية وفنية ·
- تحويل البيئة ·

وبالاضافة الى ذلك فان هذا النوع من التصنيع بفضل انسجام المساعى التى يجب القيام بها لابد أن يؤدى أيضا الى القضاء على بعض أشكال التبعية الاقتصادية والتكنولوجية ·

ولمزيد من التوضيح يبدو لنا من الضرورى ان نشرح النتائج التى ينتظر أن يسفر عنها هذا النوع من التصنيع الذى أشرنا اليه ·

التصنيع مصدر لتحقيق الثراء :

وعلى صعيد توفير الثراء فمن المعروف ان الصناعة تحقق الثراء الاقتصادى باستخدام مجموعة من التقنيات تستهدف أعداد مخطط شامل يبدأ فى مرحلة استخراج المواد الاولية وينتهى بتصنيعها مرورا بجميع المراحل الوسيطة ·

ان هذه الملاحظة تمكننا من ادراك الاهمية الاستراتيجية التى تكتسبها عمليات استغلال المواد الاولية المتوفرة فى العالم الاسلامى ولاسيما اذا ما قارنا اسعارها التى تتناقض أكثر فأكثر بالاسعار الفاحشة المتزايدة للمنتوجات المصنوعة والخدمات التي تبيعها البلاد المصنعة ·

وتمكننا نفس الملاحظة بأن نقصى فورا من مجال الصناعة النشاطات التى وان كانت ضرورية الا انها ترتبط بقطاع الخدمات والتى تريد بعض الاوساط التجارية الدولية ان توهمنا بانها نشاطات صناعية وتوجهنا بالتالى الى استثمار أموالنا فيها · وهكذا فاننا نسمع فى بعض الدول الاسلامية تسميات مثل صناعات التركيب والصناعات السياحية « والصناعات الفندقية » وحتى « الصناعات التقليدية » ·

ان تقنيات التسيير فى قطاع الصناعة وقطاع الخدمات على الرغم من تشابهها فى الكثير من الحالات فهى تختلف من حيث طبيعة نشاطاتها ·

وعلى أى حال فان نشاطات قطاع الخدمات يجب أن تعتبر امتدادا ضروريا للتصنيع الحقيقى وليس التصنيع بحد ذاته ·

وبعبارة أخرى فان القيمة المضافة التى توفرها الصناعة التى ذكرناها ستكون مندرجة تماما فى الاقتصاد وبالتالى فان هذا النوع من الصناعة سيشكل مصدرا هاما للوفر المادى والتقنى بالنسبة للبلد الذى يقيمها ، وعاملا حاسما لاعادة تنظيم المبادلات مع الخارج ، وفقا لما يتطلبه التقدم الذى يحققه هذا النوع من التصنيع ·

وعليه فلا يمكننا أن نعتبر النشاطات المنجمية المألوفة والتى تقتصر على عمليات اثراء وتركيز الفلزات صناعة كما لا يمكننا أن نعتبر كنشاطات ذات طابع صناعى تلك التى تقتصر على استخراج الفحوم المائية « الهيدروكاربونات » السائلة والغازية ، لان مثل هذه العمليات مهما كان الدخل الذى تحققه تندرج فى اطار النشاط المنجمى الذى تنقصه امتداداته الصناعية ·

التصنيع عامل للتكامل الاقتصادى :

وعلى صعيد التكامل وتطوير النشاطات الاقتصادية يجب أن تشكل الصناعة وسيلة فعالة لمكافحة تفكك الاقتصاد والاساليب البالية للانتاج والتسيير السائدة فى معظم البلدان الاسلامية ٠

وفيما يتعلق على الخصوص بدور التكامل فان التصنيع الذى يلعب دور الاداة الاستراتيجية الاشتراكية للتنمية هو الوحيد الذى يمكن أن يحقق التكامل على المستوى القطاعى وبين القطاعات لان التصنيع الذى يحصل نتيجة لذلك سيدفع القطاعات الاقتصادية الاخرى الى الامام بفضل ما يوفره لها من مواد الانتاج والتجهيز ومواد البناء ووسائل الدراسة والانجاز ٠

الا انه مهما كان الشكل الذى تتخذه النشاطات الاولى الخاصة باستراتيجية التصنيع كالمجمعات المتكاملة أو غيرها فمن الاهمية بمكان أن يتم أحداث وتنظيم المبادلات بين جميع الفروع الصناعية حتى يشمل التصنيع الاماكن النائية من البلاد ، ان هذا المجهود يرمى الى امتداد الصناعة الى النواحى المحرومة حتى تتمكن الجماهير من مواكبة التقدم ٠

وعلاوة على ذلك فمن المؤكد ان أحداث وتنظيم المبادلات بين الفروع الصناعية هى التى تشكل أحسن وسيلة لدفع عجلة التنمية ونشرها ٠ ومما لاشك فيه ان هذا المجهود ينتج عنه بالضرورة توفير بنيات قاعدية جديدة تتكيف مع أهداف التنمية ومع تطوير البنيات القاعدية للمواصلات الموروثة من العهد البائد ٠

ان هذا النمط من التصنيع الذى يفترض وجود بعض وسائل وعوامل التنمية ليس صعب المنال بالنسبة للبلدان التى لا تتوفر لديها هذه الوسائل أو لا تتوفر على الكفاية منها كما يريد البعض ان يقنعنا ، ذلك ان التخلف الاقتصادى الذى لا يمكن علاجه لا وجود له ٠

وبالفعل فان السبيل الذى اشرنا اليه يفترض لتطبيقه وجود ارادة سياسية وطنية أكثر مما يفترض جمع الوسائل والعوامل المشار اليها فيما تقدم ٠ وفى تقديرنا أن

البلدان الاسلامية مهما كان تخلفها واذا ما استردت كل ما سلب منها باستطاعتها ان ترسى أسسا للبناء الاقتصادى ذى المفعول المتضاعف ، على ان تتحلى بارادة سياسية لا تزعزع وان تبذل جهدا مستمرا ٠

ان ولاية عنابة التى نجتمع فيها اليوم تشكل مثالا معبرا عما يمكن انجازه فى مجال التصنيع فى خدمة التنمية الوطنية ٠ فالجهود المستمرة خلال حوالى عشر سنوات قد مكنت من تغيير معالم هذه المنطقة من الوطن وخلقت امكانيات انطلاق التكامل الاقتصادى للبلد بفضل انشاء صناعات أساسية هامة ونخص منها مركب الحديد والصلب بالحجار الذى ستصل طاقته الانتاجية عما قريب الى مليونى طن من الصلب سنويا٠كما ان هناك بالقرب منه مركبا للفوسفاط طاقته الانتاجية 000 550 طن سنويا من الاسمدة الازوتية وعددا آخر من الوحدات الصناعية المتخصصة فى الانشاءات المعدنية وانتاج مواد البناء والمواد الغذائية وستتاح لكم فرصة زيارة البعض منها ٠

وهناك ضرورة أخرى يجب ان يستجيب لها التصنيع فى البلدان الاسلامية وهى وجوب احداث الوسائل الكفيلة بترقية قطاع فلاحى عصرى مبنى على زيادة الانتاج وتنويعه وموجه اساسا نحو تلبية الاحتياجات الغذائية فى هذه البلدان ٠ ان هذا الهدف لا يستهان به ذلك ان القدرة المالية لاستيراد المواد الغذائية مهما كانت كبيرة لا تعفى البلدان الاسلامية من ضرورة احداث اصلاح زراعى بما يتلاءم مع هذا الهدف الحيوى ٠ ان تغطية الاحتياجات الغذائية واجب اساسى يتحمله كل بلد تتوفر لديه الامكانيات الزراعية ٠ ان الطابع الحاسم لهذا الواجب يبدو واضحا لا سيما وان البلدان الاسلامية تتعرض للمساومات والضغوط التى تسلطها عليها بعض البلدان المصدرة للمواد الغذائية ٠

ومن جهة ثانية فان الزراعة المتطورة باستطاعتها ان تستجيب لاحتياجات الصناعة وهكذا تعطى للسوق الوطنية أبعادها العصرية ٠

التصنيع مصدر لتوفير الوظائف المربحة

وعلى صعيد توفير العمل فان مساهمة التصنيع حاسمة فى عدة مجالات ٠ فقبل كل شىء يساهم بناء القطاع الصناعى مباشرة فى توفير الوظائف ، ليس فقط عند تشغيل

المصانع بل وحتى اثناء المدة التى يستغرقها بناؤها ولا سيما اذا نظرنا للآجال الطويلة لتنفيذ المشروعات فى العالم الاسلامى • ويجدر بنا ان نشير ايضا الى توفر كل وظيفة صناعية ينجر عنه توفير وظائف اخرى فى قطاعات الاقتصاد ويزداد عدد هذه الوظائف بارتفاع مستوى التنمية الاقتصادية •

ونشير من جهة اخرى الى انه فيما يتعلق بمحاربة البطالة الحقيقية او المقنعة ، فان فعالية التصنيع تختلف فيها وجهات النظر • فهناك من يرى ان محاربة البطالة تندرج فى اطار اقامة الصناعات التى تستعمل الايدى العاملة بكثرة ، وهناك من يرى انها تندرج فى اعادة تنظيم الارياف • اما نحن ففى نظرنا ان هذه الآراء على اختلافها تعطى الاسبقية بخصوص التنمية الاقتصادية الى الحد من البطالة فى المدى القصير •

ومن الواضح ان الاسبقية المعطاة للحد من البطالة بهذه الوسائل ، أسبقية زائفة لانها صادرة من المناهج الانمائية التى نددنا بها فيما تقدم • لانه لا يوجد بلد تحمل فيه قطاع اقتصادى بمفرده عبء القضاء على البطالة ولا سيما عند ما يتعلق الامر باقتصاد متخلف •

ان التصنيع الذى ذكرنا بصورة عامة أهم آثاره المنتظرة على صعيد تحويل الاقتصاد يقتضى فى البداية تحمل بعض الحتميات فيما يتعلق بتوفير الوظائف لا سيما وان الايدى العاملة المؤهلة غير متوفرة بالعدد الكافى ، وهى مفقودة تماما فى بعض الحالات •

الا انه ، وبالنظر لكون البطالة متفشية خصوصا فى الارياف ، فيبدو حينئذ وكما اشرنا اليه سابقا ان تنمية الصناعة والزراعة فى آن واحد هى الوحيدة التى من شانها أن تاتى بالحل الدائم لهذا المشكل وذلك بتكثيف المبادلات التى تحدثها بين القطاعين •

التصنيع عامل لنشر الثقافة الفنية

وعلى صعيد تدريب الفرد والتحكم فى فروع التكنولوجيا فان التصنيع يبدو وقبل كل شىء اطارا مناسبا لتادية هاتين الوظيفتين ، وحذارى من الخطأ ، فاستراتيجية التصنيع هى التى تقع عليها مهمة توجيه الاختيارات التكنولوجية وبالتالى اختيار أنواع

التكوين الذى يلقاه العمال على جميع المستويات • ومن البديهى ان أى خطأ فى الاختيار فى هذا المجال من شأنه أن يعرقل تأدية الاعمال الانمائية •

وبناء على ذلك فانه بفضل التصنيع سيرتفع مستوى الثقافة الفنية للعمال وتزداد معرفتهم الصناعية ، وستساعد هذه الاعمال على التحكم الحقيقى فى فروع التكنولوجيا ، واذا علمنا ان العالم الاسلامى قد أبعد لمدة طويلة عن التقنيات والثقافة العالمية ، فاننا ندرك ابعاد التخلف الذى تراكم فى هذا المجال وعلى التصنيع ان يسد هذا الفراغ فى وقت محدد غير ان لهذا التخلف التكنولوجى جانبا ايجابيا ، حيث انه يمكن معظم البلدان الاسلامية من تفادى المشاكل الناجمة عن التحول الصناعى أو بمعنى آخر عن حتميات تنظيم واعادة بنيات النشاط الانتاجى واعادة تأهيل العمال فنيا ومهنيا • ان عدم وجود هذه المشاكل يجب ان يمكن من اختيار احدث أنواع التكنولوجيا ، أى الكفيلة منها بان ترفع بدون فترة انتقال ، اقتصاداتنا الاخذة فى التصنيع الى مصاف الاقتصاديات العصرية •

وعلى صعيد تنمية الثقافة الفنية والعلمية ، نشير هنا أيضا الى ان استراتيجية التنمية تحتم بعد مدة معينة على البلدان الاسلامية ان ترسى قواعدها الخاصة للابحاث الاساسية والتطبيقية • وهذه المسيرة سوف تؤدى بها الى تكثيف فاعلية وسائل هذه الاستراتيجية ، وتحد بالتالى من التأثر بضغوط البلدان المصدرة للتكنولوجيا •

ونذكر ان العالم الاسلامى قد سبق ان برهن فى هذا المضمار على طاقته فى الابتكار والابداع فى مجالات كثيرة خصوصا فى الميادين العلمية • وفى عصرنا هذا تنشر الصحافة من حين لآخر اخبارا عن اختراعات ذات طابع علمى وابتكارات تكنولوجية حققها بحاثة مسلمون فى مختلف مختبرات العالم •

ولا يفوتنا ان نشير الى مرض يعترى المجتمعات المصنعة وأخذ يمتد الى البلدان النامية وهو ما يسمى « فرار العقول » • وبالفعل انه ليس من النادر ان نرى اطارا مسلما تحمل بلده نفقات تكوينه باكملها ، يغادر بلده ويضع حصيلة ابحاثه بين يدى مؤسسات اجنبية يشتغل بها وذلك على شكل براءات اختراع وتراخيص وغيرها • وليس

من النادر أيضا ان نرى هذا البلد الاسلامى يشترى بمبالغ باهضة نفس البراءات والتراخيص التى وضعها ابناؤه ، وبذلك يكون فى وضع غريب يحتم عليه ان يدفع مرتين ثمن شيء هو فى الحقيقة ملك له ·

وعليه يجب على البلدان الاسلامية ان تضع سياسة تكفل لها الوقاية من مثل هـذه الامراض التى تضرها أكثر مما تضر البلدان المصنعة المصابة بهذا المرض · ومعنى ذلك ان التكوين الفنى ينبغى ان يتم فى جميع المجالات بتدابير مناسبة تخلق وتعمق ما من شأنه ان يشجع الاطارات المسلمة على العمل فى أوطانها ، تلك التدابير التى تتبلور فى تحقيق افضل شروط العمل للباحثين ورجال العلم ·

وعلى أي حال فاملنا كبير ان يصبح العالم الاسلامى فى يوم قريب منتهجا طريـق الاشتراكية فى التنمية الاقتصادية ويبرهن بذلك مرة أخرى عن قدراته وطاقاتـه باسهامه فى الميدان العلمى ·

التصنيع عامـل لتحويـل البيئـة

وعلى صعيد تحويل البيئة تتمثل مهمة التصنيع فى اعادة تنظيم التراب الوطـنى نظرا لان التنظيم الموروث عن الاستعمار فى معظم البلدان الاسلامية كان يستجيـب للاهداف الاقتصادية التى حددها لفائدته ، وبالاضافة الى ذلك فعلى التصنيع ان يحول البيئة ولا سيما المناطق المحرومة وذلك بفضل منشأته الجديدة ·

وفى الحقيقة ان هذه المهمة المزدوجة ستسهم فى احداث بنيات قاعدية متكيفة مع اهداف دفع عجلة التنمية ·

ان التصنيع فى البلدان الاسلامية بصورة خاصة يجب ان يسهم فى اعادة احياء الطبيعة التى عانت الكثير من مختلف اشكال التدمير ·

ان الافاق الواسعة التى اشرنا اليها تندرج فى اطار تخطيط عام ، وهذا مطلب من مطالب بناء اقتصاد وطنى بعيد عن التبعية · وبهذه الصفة فان التخطيط يشكل وسيلة علمية فى مجال تحديد الاولويات فى الاستثمارات ورفع الانتاج كما وكيفا ، وتحقيق

أهداف التنمية فى الوقت المحدد · ان التخطيط يعطى للبلدان سلاحا فعالا ضد الرشوة والاختلاس ، والتبذير ·

غير ان الاستراتيجيه التى عرضنا أهم مبرراتها قد تزيد لمدة معينة من التبعية للخارج بسبب المستوردات من مواد التجهيز واحدث الخدمات العصرية · ومع ذلك فان هذه التبعية يمكن ان تزال بسرعة ولا سيما فيما يتعلق بالاحتياجات الاساسية ، وذلك بفضل الانسجام الذى يجب ان يتميز به تنظيم عمليات التنمية ، وبفضل الاستفادة التى يجب أن تحصل عليها من المنافسة الدولية ·

ان التذكير والشروح التى عرضناها نقصد من ورائها ان نبين ان العالم الاسلامى فى حاجة الى التصنيع من أجل التنمية الاقتصادية ، الا ان هذه التنمية لا يمكن ان تحقق الا بأنواع خاصة من التصنيع ·

وقد حاولنا بهذا الشأن ان نلفت الانتباه الى ان كل محاولات التصنيع التى شاهدها العالم الاسلامى اثناء العقود المنصرمة باءت بالفشل وتسببت فى تبذير الاموال أكثر مما كانت مصدرا لاكتساب التجربة · وقد حاولنا أيضا ان نذكر باهم أسباب هذا الفشل الناجم أساسا عن كون هذه الاستراتيجيات التى يطلق عليها اسم استراتيجيات التنمية مبنية على عدم استرجاع عوامل ووسائل التنمية التى يسيطر عليها أو يراقبها الاستعمار الجديد وحلفاؤه فى الداخل · ان مثل هذه الاستراتيجيات عاجزة عن تحقيق التنمية ولا تسمح فى أقصى الحالات سوى بتحقيق نوع من الازدهار الاقتصادى بدون تنمية حقيقية ·

وهكذا فقد أردنا أن نبين بأن المهم بالنسبة للعالم الاسلامى هو القيام بتصنيع يشكل الاداة الفعالة لاستراتيجية التنمية ولا يشكل هدفا لسياسة آنية ونتيجة لذلك فان طريق الاشتراكية هى الطريق الاشتراكى للتنمية الصناعية يمثل بالنسبة للبلدان الاسلامية الطريق الوحيد الذى يسمح لها بالدخول فى مسيرة تصنيعية سريعة مكثفة وضرورية لتحقيق الاهداف الرامية الى تعميم التنمية ·

ان هذا الاختيار الذى يهدف الى التحرير الاقتصادى والاجتماعى للجماهير فى أجل محدد لا يشكل النتيجة الحتمية للاستقلال السياسى بل ، ويتطلب تجسيده ارادة وطنية صلبة وحزما جماعيا لان المهام التى يتعين القيام بها متعددة ومتشعبة وقاسية ٠

واذا كان لابد لهذا النوع من التصنيع ان يفرض نفسه فى البلدان الاسلامية للاسباب العديدة التى ذكرناها فهذا لا ينفى أن يكون مندرجا فى مجموعة من القيم المميزة للحضارة الاسلامية ٠

ويجدر بنا أن نلاحظ فورا أن الطريق الاشتراكى للتنمية يشكل فى حد ذاته ، بفضل القيم الاسلامية ، اذا ما فهمت على حقيقتها ، الطريق الذى يمكن العالم الاسلامى من الحصول على الوسائل الضرورية للاسراع باستئصال جميع أنواع الامراض التى ورثها فى عهدى الانحطاط والاستعمار نخص أهمها بالذكر الخرافات والادمان على شرب المسكرات وعقد النقص ٠ز وحقا فان استرداد السيادة السياسية قد ساعد مساعدة فعالة على مكافحة هذه الامراض لا سيما انه كان من السهل كشفها وندد بها طويلا ٠

أمراض المجتمع الرأسمالى الصناعى

وفيما يتعلق بالامراض التى تعترى المجتمعات الليبيرالية المصنعة فسنحاول ابراز بعضها الاكثر انتشارا واخفاء والتى يمكن تفاديها بفضل القيم الاساسية التى تزخر بها ثقافتنا ، وكذلك بفضل الاشتراكية كقاعدة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الاسلامى ٠

الانسان ضحية الضغوط والمغريات

ان العالم الاسلامى يمكن ان تصيبه الامراض الخاصة بالمجتمعات الصناعية الرأسمالية اذا ما اعتمد اساليب التنمية المستوحاة من هذا النوع من المجتمعات وهذه الامراض تتعلق بصفة خاصة بالفرد ، الذى أصبح فى هذه المجتمعات هدفا للاعتداءات التى تشنها مجموعات الضغط الاقتصادية المتنافسة ، تساعدها فى ذلك القوى السياسية المتعارضة ٠

ان هذا التكالب للقوى التى تعمل فى الظاهر وفى الخفاء يستعمل كوسيلة ، تهيئة الفرد بما يتفق وأهداف هذه القوى ، وحيث يوجد الفرد نجده دائما موضع محاولات الاغراء التى تمارس بواسطة تشكيلات مدهشة من المنتجات الكثيرة التنوع ، والتى يشك فى فوائدها الاجتماعية ويستخدم هذا التكالب وسائل الاعلام التى يتزايد اثرها بسبب تركيز نشاطها على الاوساط المتعلمة ويتعلق الامر هنا بالخصوص بظاهرة الاعلان بجميع اشكالها السمعية والبصرية التى تساير الحياة اليومية الى درجة انها أصبحت جزءا لا يتجزأ منها ، على الرغم من طابعها الزائف والسالب ٠

فليس من الغريب ان نلاحظ والحالة هذه ان القيم الانسانية قد اختفت لصالح القيم الاقتصادية المبنية فى حد ذاتها عن مبدأ تحقيق أقصى الارباح ٠

استغلال الجماهير الكادحة

ان سلم القيم الذى يشكل قاعدة الاقتصاديات الليبيرالية المصنعة هو ذلك السلم الذى يبرر امتلاك وسائل الانتاج فى مجالات الصناعة والفلاحة والخدمات من قبل طبقة اجتماعية محظوظة ، وان هذا الامتلاك هو السبب فى عدم المساواة الصارخ السائد فى توزيع الدخل فى هذا النوع من المجتمعات وهو ما يؤدى بالتالى الى الفوارق الاجتماعية٠

ان مثل هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى تسيطر فيه طبقة اجتماعية محظوظة ، همها الوحيد جلب المزيد من الارباح ، على توزيع الاستثمارات والدخل مبنى فى الحقيقة على استغلال الجماهير الكادحة ٠

فلا يستغرب ان كانت هذه المجتمعات التى قطعت اشواطا فى طريق التقدم المادى والتى يحكمها هذا النظام تتعرض الى اخطر أنواع التوتر السياسى والاقتصادى ، والاجتماعى ، والاخلاقى ٠ وعلاوة على ذلك فلا يسعنا الا ان نشير الى المسؤولية الخطيرة التى تتحملها هذه المجتمعات للابقاء على النظام الاقتصادى العالمى الحالى ، مع ما ينطوى عليه من أنواع الظلم تجاه البلدان النامية ، وعدم الاستقرار فى نظام النقد ، وتهديد أمن الشعوب المتمثل فى الانتاج المتزايد للاسلحة النووية الفتاكة ٠

ان هذه الآفات نابعة أصلا من الاسس التى بنيت عليها المجتمعات الليبيرالية المصنعة • ان التناقضات الملازمة لهذه المجتمعات تحتم عليها التعبئة الدائمة لموارد هائلة لايقاف زحف القوى التقدمية المعارضة من أجل حماية جوهر النظام الرأسمالى •

التبذير الاقتصادى وخطر تفشيه

ان هذه التعبئة الدائمة للموارد تشكل بكل تأكيد تبذيرا اقتصاديا كبيرا تتجلى من خلاله النوايا الحقيقية لهذه المجتمعات فيما يتعلق بمشاركتها فى اقامة نظام اقتصادى عالمى جديد يتسم بالعدل والمساواة •

وهنالك مرض آخر يكاد يكون آفة حقيقة نظرا لما له من آثار سيئة على التراث البشرى الا وهو تبذير المواد الاولية المحدودة وغير القابلة للتجديد ، التى تشتمل عليها الكرة الارضية • وهل نحن بحاجة ان نذكر بهذا الصدد أن ضخامة هذا التبذير قد كشفت للعالم بفضل القرارات التى اتخذتها منظمة الدول المصدرة للبترول سنة 1973 ؟ يشكل هذا التبذير فى الحقيقة احدى أسس اقتصاديات البلدان المصنعة ، الرأسمالية ، وهو السيمة المميزة لاسلوب الحياة الذى تبنته المجتمعات المسماة بالمجتمعات الاستهلاكية حيث تعتبر أشكال التبذير بمثابة العلامات الخارجية للثراء ان هذه المجتمعات الاستهلاكية تخصص القسط الاوفر من امكانياتها لاكثار الاحتياجات المادية للفرد ، وذلك لاشباع رغباتها المتزايدة فى الربح •

فمن وجهة نظر اهتمامات الحضارة الاسلامية يجدر بنا أن نتساءل فى مثل هذه الحالات عن مصير القيم الانسانية • الا نرى الانسان تحت تأثير هذا المحيط النفسى يتجه بدوره الى البحث عن المزيد من الارباح فى جميع مساعيه ؟

وعليه يتحتم على البلدان الاسلامية الآخذة فى التصنيع أى التى تحاول أن تتحكم فى التكنولوجيا والمعرفة الصناعية المستوردة ان تقوم الى جانب التكوين الفنى والتكنولوجى للعمال الباهظ التكاليف بنشاطات أخرى تستهدف تعزيز تكوينهم السياسى والاخلاقى والروحى ، ويجب ان يكون هذان النوعان من التكوين متكاملين ،

ذلك ان التكوين الذى يقتصر على الجوانب الفنية والعلمية فقط قد يخلق فى بلداننا انماطا من السلوك تشبه تلك التى نددنا بها فيما سبق ·

ومع ذلك فلا يفوتنا أن نشير الى أن هذه الامراض التى تعترى المجتمعات المذكورة لا يجوز أن تشوه لنا بعض الفضائل التى تتمتع بها هذه المجتمعات والتى تفسر جزئيا التقدم الرائع الذى تسجله فى المجال الصناعى ، ونخص بالذكر روح التنظيم والمبادرة التى يجب علينا أن ننميها وفقا لغاياتنا ·

أمراض المجتمعات المصنعة بصفة عامة

ليست هذه الامراض وحدها التى تشكل خطرا على المسلم ومحيطه ذلك ان المجتمعات المصنعة بصفة عامة تتقاسم بعض الحتميات الضارة التى يكون فى صالح العالم الاسلامى أن يتفاداها · ومهما بلغت درجة التضارب فى استراتيجيتها الانمائية فان المجتمعات المصنعة الليبرالية والاشتراكية تتميز ببعض الامراض المشتركة ونذكر واحدا من هذه الامراض الذى وان كانَ من النادر أن يندد به الا أنه لا يقل ضررا عن الامراض الاخرى التى سنتعرض لها فيما بعد ، ويتمثل فى المعتقدات السائدة فى المجتمعات المصنعة ، والتى تجعلها تتجاهل بل وتحتقر كل المواقف الثقافية التى تصمد لاستقصاءاتها وتحليلاتها · وقد لاحظت البلدان الاسلامية فى العديد من المناسبات مدى حدة وعقم هذه العقلية ·

الافراط فى ضخامة الانجازات الصناعية والعمرانية

ان أول ما يشد انتباه الملاحظ أو المسافر فى البلدان المصنعة هو ضخامة المنجزات العصرية ، كما تشهد بذلك ضخامة المدن والمراكز الصناعية · ان مثل هذه التجمعات السكانية العملاقة التى هى تعبير على التنهيج الصناعى تطرح بضخامتها غير المعقولة، مشاكل مادية ونفسية وثقافية خطيرة على سكانها الى درجة أن بعض الاهتمامات فى البلدان المصنعة بدأت تتجه نحو اعادة النظر فى الاسس التى برزت فى الاصل بناء هذه التجمعات · وهكذا فاننا نسمع فى هذه البلدان ان الحديث يدور حول ضرورة التوزيع الصناعى والعمرانى ·

الآثار المنعكسة على الانسان

وتجدر الملاحظة ان هذه المشاكل نابعة عن تصنيع مكثف يبدو لنا أن هذه البلدان لم تتحكم فى نتائجه بما فيه الكفاية • وبالفعل فان التنهيج الصناعى الذى لا يدمج للمرء الا كدولب من دواليب جهاز واسع يؤول فى النهاية الى ظاهرة تفتيت شمل المجموعات البشرية ، وبالتالى لعرض المرء الى جميع أنواع الاستيلاب • ومن المؤكد ان تطبيق هذا التنهيج الصناعى هو الذى حدد للمرء أساليب سكنه وعلاقاته باسرته وبالمجتمع • ان بعض الظواهر كفتور العلاقات العائلية ، والادمان على المسكرات والشعور بالعزلة والهوان والقلق النفسى والنزوع الى فكرة المادية الجديدة التى تبعد المرء عن القيم الروحية ، هى فى نظرنا نتيجة ما يسمى بالحضارة الصناعية •

وفى هذا المجال فان الامة الاسلامية تتمتع بقيم ثقافية تجعلها فى مأمن من هذه الامراض ، نذكر من بينها على سبيل المثال مبدأ التضامن الاسلامى العريق الذى يوفر من خلال بعض المظاهر والواجبات عدة فرص لربط الاواصر العائلية وتعزيز الصلات بين أعضاء الامة والقيام ببعض الاعمال الاخرى التى تجسم التضامن الاجتماعى • ان مثل هذه القيم التى أثبتت فى الماضى فعاليتها تستحق اليوم أكثر من أى وقت مضى أن نحافظ عليها •

ومن الامثلة المتواضعة وذات المغزى المعبر نذكر أعيادنا الدينية التى لا ينبغى أن تصرف عن أهدافها الاساسية وتتحول الى مجرد مناسبات تسود فيها مظاهر الابتهاج الانانى والاجتماعى السطحى •

اضرار البيروقراطية

هنالك أضرار لا نطيل الكلام فيها ، لانها معروفة وقد سبق أن ندد بها فى جميع الاوساط ، وهى البيروقراطية ، التى بطابعها القاسى المغفل تتجاهل المشاكل الحقيقية للانسان وتشكل بالتالى حاجزا يحول دون التكيف مع الاوضاع الجديدة والحاجة الى التجدد •

ان البيروقراطية ليست فى الواقع سوى تحريف للمنهجية التى يحتاج اليها كل تنظيم ، ومظهر التحريف هذا يجعلها ضارة طالما انها تساعد على بروز تصرفـــات سلبية بل وحتى أعمال منبوذة كالرشوة • وخلاصة الامر ان البيروقراطية من شانها خنق الشعور بالمسؤولية واعاقة التنمية بشكل عام •

التلوث نتيجة وخيمة للتصنيع غير المتحكم فيه

وهناك أيضا مرض آخر بدأنا نحس بأبعاد أخطاره على وجود المجموعة البشرية • ونقصد بذلك الضرر الذى يلحق بالتراث الطبيعى والبيولوجى للبشرية وهو الذى يطلق عليه ، تجاوزا اسم التلوث والذى يشكل موضوعا خطيرا يستحق كل عنايـــة واهتمـــام •

وبالفعل فان الثروات الطبيعية الهامة التى توجد هنا وهناك فى العالم ليست غير قابلة للنفاذ ، وهى من جراء التلوث ، معرضة للتلف بسبب التطبيق الفوضوى بل وحتى الاجرامى للعلم • فنقص المياه الصالحة للشرب وانجراف التربة وتلوث الجو والمحيطات والبحار أصبحت اليوم أحداثا لا يجوز تجاهلها •

ومن المفيد التذكير بأن حجم الغازات التى تلفظهـا المصانـــع فى الاجواء تزداد باستمرار وتقول بعض الاحصاءات أنه يتضاعف كل عشر سنوات • هذا واذا أخذنا بعين الاعتبار أقوال بعض المختصين فان مفعول الضغط الذى ينتج عن تراكم الغاز الطبيعى بكميات متزايدة فى الجو يمكن أن يحدث بعد مدة زيادة فى درجة حرارة الكوكب الارضى الامر الذى ينجم عنه ذوبان الثلوج وربما كتل الجليد فى المناطق القطبية وكذلك ظواهر أخرى مضرة بالحياة البشرية • ان تلوث الانهار المعروف بالتلوث الحرارى والمتأتى من المياه المتفاوتة الحرارة المستعملة فى المصانع يترك آثار ضارة بالحيوانات ، والنباتات المائيـــة •

وهناك عناصر أخرى من محيط الانسان تصبح مهددة مباشرة بسبب الشروع فى عملية التصنيع بشكل غير منهجى يكاد يتم بعدم المسؤولية • ونذكر على سبيـــل الميثال ثروات المحيطات والثروات المعدنية •

وفيما يخص الثروات البيولوجية للبحار والمحيطات فان من الثابت اليوم انها معرضة لاخطار مؤكدة بسبب التلوث المتأتى من الفحوم المائية (هيدروكاربونات) والمعادن الثقيلة والفضلات الكيمياوية والمواد المشعة والمواد الاخرى السامة ٠

بعض الآراء الختامية

وهكذا فبالامكان سرد المزيد من الامراض المشتركة للمجتمعات المصنعة ٠ غير اننا اقتصرنا على ذكر البعض فقط من مجموع الامراض التى تمثل فى هذا المجال بالذات أهمية خاصة ٠

وعليه فان العالم الاسلامى وقد شرع فى عملية التصنيع يمكن ان يواجه بدوره مثل هذه المشاكل اذا لم يتبنى منذ الآن موقفا انتقاديا تجاه التصورات والمناهج العصرية للانجاز الصناعى التى لا زالت سارية حتى اليوم ٠

وبعبارة أخرى فان طبيعة الامراض التى سبق ذكرها تبين بان البلدان المتقدمة صناعيا تواجه صعوبات فى سعيها للسيطرة على نتائج تصنيعها ٠ وهى بذلك تعيد الى الاذهان اسطورة ٠ « الساحر الغر الغربية القديمة الذى عجز عن وقف الاحداث بعد ان تسبب فى تحريكها » فغروب التيه التى تعترى حاليا الصناعة الذرية والسباق الى التسلح بين الدول العظمى لا تشبه فى بعض مظاهرها مغامرة « الساحر الغر » السالفة الذكر والا تنذر بمستوى الاختلال الذى يمكن ان تبلغه المجتمعات الصناعية ٠

ان ما يشغل البال فى هذا الصدد ليس وجود هذه الامراض فى تلك المجتمعات بل عدم فعالية الوسائل المستخدمة لازالتها أو لتصحيح نتائجها ٠

وعدم الفعالية هذه ليست سوى عجز المجتمعات الصناعية عن التحكم فى الظواهر الاجتماعية المتمخضة عنها ٠ ان قدرة الوسائل الفنية تمكن هذه المجتمعات من اقامة انسجام فى الميدان الاقتصادى وفقا لاستراتيجياتها الخاصة ٠ ومهما كانت قدرة تلك الوسائل فهى تبدو عاجزة فى الميدان الاجتماعى أى على مستوى الانسان ٠ وفى مثل هذه الاوضاع فان الانسان قد أعد لخدمة اعتبارات اقتصادية حلت فى نفسه محل كل

القيم الروحية والاخلاقية . والامر يتعلق هنا بانحراف خطير يتحتم على العالم الاسلامى ان يتفادا مهما كان الثمن حفاظا على قيمه الروحية .

فالعالم الاسلامى بفضل العبر التى يجب ان يستخلصها من التجارب المعاصرة عليه اذن ان يتمكن من توجيه ومراقبة مسيرة نموه وفقا لمقوماته الخاصة والا ينقاد لآليـــة التنميـــة .

وفى النهاية فان المنهج الاشتراكى للتنمية هو بكل تأكيد المنهج الوحيد الذى يمكن العالم الاسلامى من تجنب الامراض المميزة للمجتمعات الليبيرالية المصنعة .

وفيما يخص الامراض المشتركة للمجتمعات المصنعة بصفة عامة ، فان المجتمـــع الاسلامى لا يستطيع تجنبها الا اذا احيا قدراته الذاتية المبدعة والخلاقة . اذ ان تلك الامراض التى ثبت بانها نتاج للايديولوجيات المادية تهددنا لاننا كلنا نتفتح وبدرجات متفاوتو وبمحض اختيارنا على الحضارة المسماة بالصناعة . وعليه فاننا نوفر لتلـك الامراض أرضية مناسبة لظهورها وتفشيها . وبطبيعة الحال فان ما يتمخض عن تلك الحضارة من ايجابيات وسلبيات سوف يظل على ما هو عليه ، وليس من المجدى فى شىء والحالة هذه أن نتنبى كل ما هو ايجابى ونترك الباقى . فالمشكلة بالنسبة الينا لا تقتضى فقط فصل الجيد عن الردىء بل تكمن بالاحرى فى الطريقة التى نمارس بها التفتح على تلك الحضارة الصناعية وفى كيفية استخدامها وفى الغايات التى نرغب بلوغهـــا .

وبعبارة أخرى فالامر يتعلق بوضع مفهوم جديد للتنمية يزود الانسان المسلـــم بالوسائل التى تمكنه من بلوغ مطامحه المشروعة فى الميدان المادى وتحفظ له استقامته فى الميدانين الاخلاقى والروحى .

وهل ينبغى التذكير بان المنجزات العظيمة التى حققتها فى الماضى الحضارة الاسلامية عند احتكاكها بالحضارات الاخرى كانت فى اساسها قائمة على التفتح الفكرى للانسان المسلم وعلى الجهد الخلاق الذى بذل فى الميادين النظرية والتطبيقية وتواصل عبـــر الاجيال المتعاقبة ؟

واليوم فان مساهمة المجموعة الاسلامية ضمن العالم الثالث فى اعادة النظر فى النظام الاقتصادى الدولى تبهر الملاحظ بما تتسم به من حيوية واصالة وتعد بكل تأكيد تعبيرا عن التضامن القائم بين البلدان الاسلامية وباقى بلدان العالم الثالث ٠

وعليه وبالنظر الى مختلف الحقائق التى تميز العالم الاسلامى وكذلك المتطلبات المادية والاخلاقية والروحية التى ترافق كل عملية انمائية فى بلداننا فانه جد هام بالنسبة لنا ان نتشاور على مختلف المستويات وكلما دعت الضرورة الى ذلك ونتبادل الخبرات التى نكتسبها فى ميدان التنمية ٠

وبهذا الصدد فان الملتقى الهام الذى يجمعنا اليوم فى عنابة وكذلك اللقاءات التى تمت على مستويات عليا مثل اجتماعات رؤساء الدول الاسلامية والمؤتمرات الاسلامية هى علامات دالة على بداية عهد جديد من التضامن والتعاون فى اطار المجموعة الاسلامية ومن ثم ندعو الى التفاؤل فى الدور الطلائعى الذى ينبغى ان يلعبه العالم الاسلامى سواء فى بنائه الذاتى أو فى اقامة النظام الاقتصادى الدولى الجديد ٠

ومجمل القول فان كل شىء يحمل على الاعتقاد بان الحضارة الاسلامية قد دخلت عهدا جديدا لتاكيد بعدها الدولى وانه لمن دواعى السرور ان نلاحظ بان بلدا اسلاميا مثل الجزائر بفضل انسجام واتزان تامله فى قضية التنمية وبحزم واستمرارية عمله الخلاق يساهم فى مجهود اثراء الفكر الاسلامى المتصل بمصير الانسان المسلم ٠

وكما ان ملتاقنا الوطنى الذى جاء بعد 14 سنة من الجهود والتجارب فى ميدان النضال الثورى ضد التخلف يأتى بمساهمة مثمرة فى هذا المضمار ٠

ولما كانت الجهود التى تبذلها الجزائر حاليا فى ميدان التنمية لم تعد منفردة بل هناك جهود أخرى تبذل فى اطار المجموعة الاسلامية فاننا نعتقد اعتقادا راسخا بان العالم الاسلامى سوف يتوصل الى التغلب على كل المشاكل التى تطرحها التنمية وذلك خدمة لمستقبل الاجيال القادمة ٠

كيف يمكن للمجتمع الإسلامي أن يتفادى آفات التصنيع؟!

د • عمر التومي الشيباني
استاذ بكلية التربية
جامعة الفاتح ـ طرابلس ـ ليبيا



المقدمة :

ان موضوع التصنيع وما عسى أن يترتب عليه من آفات وعيوب ومساوىء والسبيل الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب والمساوىء أو على الاقل التخفيف من وطاتها فى مجتمعاتنا الاسلامية ـ هو من الموضوعات المعاصرة الهامة التى تشغل بال أولى الامر فى هذه المجتمعات وتفرض نفسها على المفكرين والمصلحين المسلمين فى هذا العصر وتتطلب منهم ان يناقشوها بكل صراحة وعمق • وهم اذ يناقشون موضوع التصنيع لابد أن تشمل مناقشاتهم له : مدى ضرورة أهمية التصنيع لمجتمعاتنا الاسلامية الحديثة وما يمكن أن يترتب على التصنيع فى هذه المجتمعات من فوائد ونتائج ايجابية فى شتى

مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وما عسى أن يصادفه من مشكلات وعقبات ، وما عسى أن ينتج عنه من آفات وعيوب ومضار ، والاسباب التى تكمن وراء الآفات والعيوب والمضار التى ظهرت فى المجتمعات المتقدمة صناعيا ، ومدى امكانية تجنيب المجتمعات الاسلامية لآفات التصنيع وعيوبه وأضراره ، ونقاط الارتكاز للاطار الذى ينبغى أن يتم فى ظل التصنيع فى المجتمعات الاسلامية .

هذه هى أهم الجوانب التى ينبغى للعلماء والمفكرين المسلمين أن يناقشوها بعمق فى اطار مناقشتهم لموضوع التصنيع .

وسأحاول من جانبى ، وأنا أساهم فى مناقشة هذا الموضوع ، أن ألقى بعض الضوء على تلك الجوانب من خلال مناقشتى الموجزة والعامة للنقاط التالية :

1 ـ التصنيع كضرورة من ضرورات العصر الحديث .

2 ـ موقف الاسلام من التصنيع .

3 ـ الفوائد التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع .

4 ـ المشكلات التى تصادف المجتمعات الاسلامية فى مسيرتها التصنيعية .

5 ـ الآفات والعيوب التى ظهرت فى بعض المجتمعات الصناعية .

6 ـ الاسباب التى تكمن وراء آفات وعيوب التصنيع فى المجتمعات المتقدمة صناعيا .

7 ـ الطريق الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب فى المجتمعات الاسلامية .

أولا : التصنيع كضرورة من ضرورات العصر الحديث :

فبالنسبة للنقطة الاولى ، فانه لم يعد أمام المفكرين المسلمين أن يناقشوا ما اذا كان التصنيع فى المجتمع الاسلامى ضروريا أم غير ضرورى ، أو ما اذا كان التصنيع ضارا أو نافعا للمجتمع الاسلامى ، لان المناقشات تكاد تكون محسومة فى صالح التصنيع ، ولم يعد أمام المسلمين الا أن يختاروا التصنيع المتقدم والمتنوع فى مستوياته ومظاهره ، اذا أرادوا مسايرة عصرهم واللحاق بركب البلدان المتقدمة اقتصاديا والخروج من ربقة الاعتماد على المجتمعات المصنعة فى سد احتياجاتهم من المواد المصنعة .

ان التصنيع هو أحد السبل الهامة أمام المسلمين لتحقيق التقدم الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، ولحل كثير من مشكلاتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ٠

ولهذا ، فان التصنيع ضرورة من ضرورات الحياة الكريمة ، تقتضيه مصلحة المجتمع الاسلامى ومصلحة أفراده ، كما يقتضيه التقدم الثقافى والحضـــارى والاجتماعى والاقتصادى الذى ينشده المجتمع الاسلامى المعاصر ٠

ثانيــا : الفوائد التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع :

ولنكون أكثر تخصيصا فى بيان كون التصنيع ضرورة من ضرورات المجتمـــع والحياة الكريمة فى كل العصور وفى العصر الحديث بالذات ، وفى بيان أهمية التصنيع لمجتمعنا الاسلامى بالذات ، فانه يجدر بنا أن نشير فى ايجاز الى بعض الفوائد والنتائج الايجابية التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع فى شتى مجالات حياته ٠

1 ـ فالتصنيع من ناحية يمكن نأ يضيف الى الثقافة والحضارة الاسلامية بعدا تقنيا عمليا ، ويهيىء الفرص العملية أمام أبناء المجتمع الاسلامى أن يطبقوا عمليا ما يدرسون فى مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم من علوم وفنون تطبيقية ، ويضفى على هذه العلـوم والفنون معنى ويجعل لدراستها فائدة ملموسة وقيمة محسوسة ، بدلا من أن تبقى فى الاطار اللفظى والنظرى والتطبيق المحدود داخل المؤسسة الدراسية ٠

ومن شأن التصنيع اذا ازدهر ونجح أن يساعد على زيادة الوعى التقنى والصناعى ، وعلى ازدهار العلوم والفنون التقنية والصناعية ، وعلى زيادة الاقبال على دراستهـــا والتخصص فيها على اختلاف مستويات الدراسة ٠ واذا استمرت الصناعة فى نموهـا وازدهارها واتسع نطاق التعليم الفنى والصناعى ونطاق الثقافة الصناعية العامـــة فان الصناعة تصبح جزءا بارزا فى ثقافة المجتمع ويصبح الوعى الصناعى والاتجـــاه الايجابى نحو الصناعة ضمن ما يكتسبه الابناء من آبائهم وبيئتهم التى يعيشون فيها عن طريق التنشئة الاجتماعية والتفاعل مع البيئة ٠ ومما يزيد من فاعلية دور الاب فى بث الوعى الصناعى أن يكون عاملا فى مجال الصناعة وأن يكون ناجحا فى عمله وراضيا عنـــه ٠

ويوم ينجح المجتمع الاسلامى فى تدعيم التقنية الحديثة وغرسها فى نفوس أبنائه معرفة ومهارة واتجاها فانه يكون قد كرس البعد التقنى والتطبيقي فى ثقافته التى كان من بين المآخذ عليها فى عصورها المتأخرة أنها أصبحت فى مجموعها ثقافة لفظية نظرية تجريدية ٠ وهذا البعد التقنى للثقافة الاسلامية يقتضيه تقدم الحياة وتطورها ويباركه الدين الاسلامى الحنيف الذى يوفق بين الروح والمادة ويلبى كافة حاجات الحياة الروحية والمادية ٠

2 ـ والتصنيع من ناحية أخرى مرتبط بالنمو الحضرى ، ومظهر من مظاهره ، وميسر له ومساعد على تلبية احتياجاته ومتطلباته المتجددة والمتزايدة باستمرار ٠ ومن النتائج التى توصل اليها الدارسون المحدثون للعلاقة بين التصنيع والتحضر أنه : « لا يوجد معامل ارتباط حتمى بين التصنيع والتحضر ، ولو أنهما يحدثان كثيرا فى آن واحد ٠ ويوجد كثير من الشواهد والادلة على وجود معامل ارتباط مباشر بين تطور التحضر وتطور التصنيع ، حتى يبدو أن أحدهما سبب الآخر ٠٠٠ كما توجد الادلة والبيانات على تأثير التصنيع عندما توجد مجتمعات حضرية ، كما توجد الادلة والبيانات على تأثير التصنيع فى كثير من نواحى التحضر ٠ ويبدو أن التصنيع يؤثر تأثيرا عاما للغاية ليس فى نسبة نمو المناطق الحضرية فحسب ، بل وأيضا فى نمط النمو الحضرى وفى مستوى التنمية الاقتصادية فى المجتمعات الحضرية ٠٠٠ » (1)

وهذا الترابط بين الصناعة والتحضر الذى أكدته الدراسات الاجتماعية الحديثة قد أكده قبل ذلك أحد علماء الاسلام الافذاذ وهو عبد الرحمن بن خلدون ، فقد جعل ابن خلدون الصنائع من النتائج المترتبة على تزايد الحضارة وازدهار العمران ، فتكون « الصنائع فى الامصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها استعمال الصنائع ، خرجت من القوة الى الفعل » ٠

ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضارى وكثرته ٠ والسبب فى ذلك أن الناس ، ما لم يستوف العمران الحضرى وتتمدن المدينة ، انما همهم فى الضرورى من المعاش ، وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها ٠

---

(1) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع ٠ القاهرة : دار المعارف بمصر ، 1971 ، ص 111 ـ 113 ٠

فاذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الاعمال ووفت بالضرورى وزادت عليه ، صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ٠

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، استجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة ٠

واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات ، كان من جملتها التأنق فى الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متحماتها وتزايدت صنائع أخرى معها بما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله ٠

ان رسوخ الصنائع فى الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والوان له ٠ والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ فى الاجيال ، واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ، ولذا نجد فى الامصار التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة ، وما ذاك الا لان أحوال تلك الصنائع القديمة العمران متسحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها ، وهذه لم تبلغ الغاية بعد » ٠ (2)

3 ـ والتصنيع من ناحية ثالثة له دور كبير فى تحقيق التنمية الاجتماعية المرغوبة وفى الاسراع بعملية التغير الاجتماعى وفى توجيه هذا التغير بما يتمشى مع متطلباته ٠ فهو اذا تحقق بصورته الواسعة المتقدمة فى مجتمعاتنا الاسلامية من شأنه أن يساعد على تحويل كثير من هذه المجتمعات من مجتمعات رعوية أو ريفية الى مجتمعات حضرية وصناعية ، وعلى تغير كثير من عاداتنا وتقاليدنا والعلاقات السائدة بيننا لتصبح أكثر تلاؤما مع متطلبات المجتمع الحضرى والمجتمع الصناعى ، وعلى أن تصبح الاسرة عندنا أصغر مما هى عليه فى بعض مجتمعاتنا التقليدية ، وعلى أن يصبح المركز الاجتماعى

(2) عبد الرحمن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون (الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د. على عبد الواحد وافى) القاهرة : لجنة البيان العربى 1967 ، ص 1057 ـ 1062 .

فى المجتمع مكتسبا بدلا من أن يكون موروثا كما هى الحال فى المجتمع الاقطاعى وأن يصبح فى امكان كل فرد ، اذا ما ساعدته ظروف التعليم أو امكانياته وقدراته الخاصة أو جهده وعمله وكفاحه أن يرتقى الى أعلى درجة فى سلم الترتيب الاجتماعى ، وعلى أن تصبح الصلات فى المجتمع قائمة على أساس الكفاءة العلمية والفنية والخلقية والمنزلة الاجتماعية المكتسبة ، وعلى أن نزيد فرص التفاعل والاتصال بين أفراد وجماعات المجتمع ، وعلى أن يصبح المجتمع متميزا بالتنوع والتباين لان من يكونونه يأتون من مختلف المناطق ، وعلى أن تزيد وتتحسن فرص التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والترويحية أمام المواطنين نظرا لتجمع السكان فى تجمعات سكنية كبيرة بدلا من بقائهم متفرقين كما هى الحال فى سكان البادية والريف الى غير ذلك من التغيرات الاجتماعية التى قد يجرها أو يساعد عليها التصنيع والتى هى فى مجموعها فى صالح مجتمعاتنا الاسلامية ولا تتنافى فى مجموعها مع تعاليم الدين الاسلامى .

4 ــ والتصنيع من ناحية رابعة خير أداة للتنمية الاقتصادية حيث انه يساعد البلاد على توسيع نطاق استثمار مدخراتها ومواردها الحالية بغرض النمو وزيادة الانتاج فى المستقبل ، وعلى تحويل مجتمعاتها من مجتمعات زراعية متخلفة وبسيطة فى تركيبها الاقتصادى الى مجتمعات صناعية يكون الانتاج الصناعى فيها الجزء الاكبر من الدخل القومى ، وعلى استغلال مواردها الطبيعية وخاماتها وعلى تصنيعها محليا بدلا من بيعها بأبخس الاثمان ، وعلى زيادة حجم العمالة وتوفير العمل للايدى العاملة بها بأجور وشروط أفضل من العمل فى الزراعة التقليدية ، وعلى رفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل القومى والدخول الفردية على السواء ، حيث ان عائدات الدولة من الصناعة أكبر من أى مورد آخر حتى ولو لم تملك هى نفسها المصانع وحيث ان الاجور التى يتقاضاها عمال المصانع ــ عادة ــ أعلى من الاجور التى يتقاضاها عمال الزراعة . كما يساعد التصنيع أيضا على توفير المواد الاستهلاكية المصنعة للاسواق المحلية ، وعلى تحقيق اكتفاء ذاتى فى هذه المواد وعلى زيادة استهلاك الناس وتغيير انماط استهلاكهم ، وعلى تحقيق درجة متزايدة من عدالة التوزيع التى لا تتحقق الا بزيادة

الانتاج ، الى غير ذلك من الامور التى يمكن للصناعة الواسعة الناجحة أن تساعد عليها والتى تعتبر فى مجموعها من مظاهر ومكونات التنمية الاقتصادية .

5 ـ ومن ناحية خامسة ، فان التصنيع أحد الركائز الهامة للاستقلال السياسى وخير سبيل لتحقيق القوة السياسية . وتأتى مساهمته فى تدعيم الاستقلال السياسى وفى تحقيق القوة السياسية من حيث مساعدته : على تحقيق الاكتفاء الذاتى من المواد الاستهلاكية والمواد المصنعة وعلى تحقيق الاستقرار فى الميزان التجارى وتأمين البلاد من حدوث خلل فى هذا الميزان بسبب انخفاض قيمة صادراتها الزراعية وزيادة قيمة وارداتها ، وعلى تلبية احتياجات البلاد من الاسلحة بالذات وتخليصها من التبعية للدول المتقدمة التى تتخذ فى كثير من الاحيان من بيع السلاح أداة من أدوات الضغط السياسى على البلدان التى تشترى منها ووسيلة من وسائل سوء استغلالها وامتصاص جانب كبير من أموالها . كما يساهم التصنيع أيضا فى زيادة فرص الحرية الشخصية الفكرية وحرية التعبير عن الرأى وفى الحد من النظام القبلى والاعراف القبلية ، وفى نقل الناس من الولاء للقبلية الى الولاء للوطن والامة ، وفى جعلهم يشعرون بالاعتزاز ببلادهم وأمتهم ويحسون بهيبتها وعزتها لما يرونها عليه من قوة اقتصادية وسياسية .

هذه أهم جوانب الحياة التى يمكن للتصنيع أن يساهم فى تنميتها ، وهذه هى بعض الفوائد والنتائج الايجابية التى يمكن أن تترتب على التصنيع . وهو لهذه الفوائد والنتائج ولتلك المساهمة يصح أن يعتبر ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة وطريقا أمثل للاسراع بعملية التنمية الشاملة .

ثالثا : موقف الاسلام من التصنيع :

واذا كان للتصنيع ما ذكرنا من الفوائد والنتائج الايجابية ، فان موقف الاسلام تجاهه لن يكون الا موقف المؤيد والمبارك طالما انه تم فى اطار تعاليم الاسلام وقيمه الخلقية الخالدة ، ان الاسلام يقف على الدوام بجانب كل تقدم حقيقى ، سواء كان فى مجال المادة أو فى مجال الروح . انه دين القوة والعزة والكرامة والمصلحة العامة والعدالة والمساواة والجهاد والكفاح فى كافة مجالات الحياة . ولا يرضى الاسلام للامة

الاسلامية أن تكون متخلفة ضعيفة أو عالة على غيرها من الامم أو دون علم غيرها من الامم فى أى علم أو فن أو صنعة من الصناعات النافعة ، ويكفى المسلمين سندا فى ذلك قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (الانفال) · والقوة التى دعت اليها الآية الكريمة هى عامة تشمل كل ضروب القوة المادية والمعنوية · وسبيل المسلمين الى هذه القوة هو الايمان بالله ، والتمسك بتعاليم الدين ، والمشاركة الفعالة فى العلم والصناعة وفى كل نشاط مشروع يوصل الى القوة · ولا يجوز للمسلمين أن يهملوا علما من شأنه أن يزيد من قوتهم أو يؤمنهم من شر أعدائهم ، والا كانوا مخالفين لهذه الآية ·

بالاضافة الى هذه الآية الكريمة هناك العديد من الآيات القرآنية الكريمة الاخرى التى يمكن للمسلم أن يجد فيها بشكل مباشر أو غير مباشر السند القوى للتصنيع وللقيم الصناعية · فمن ذلك قوله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ·

وقوله تعالى: « وهو الذى جعلكم خلائف الارض » (الانعام : 165) ·

وقوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » (البقرة : 29) ·

وقوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : 12 ـ 13) ·

وقوله تعالى : « وابتغ فيما أتاك الله دار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ·

وقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض » (البقرة : 55) ·

وقوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظم لعلكم تذكرون » (النحل : 90) ·

وقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (المائدة : 2) ·

وقد جاءت الاحاديث النبوية الشريفة مدعمة ومفصلة للمعانى التى تضمنتها الآيات الكريمة السالفة الذكر · ومن هذه الاحاديث :

قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم القوى خير وأحب الى الله من المسلم الضعيف » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما كسب رجل كسبا أطيب من عمل يده » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب العبد المحترف » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وقد ظل علماء المسلمين على الدوام ينظرون الى الحرف والصناعات والعلوم والفنون الصناعية على أنها من مستلزمات التطور الحضارى والعمرانى ومن مستتبعاته أيضا ، وعلى أنها من الامور التى لا تنتظم أمور الدنيا الا بها . فأمر الدنيا ـ كما يقول الامام الغزالى ـ ليس ينتظم « الا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم . وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام : أصول لا قوام للعالم دونها ، وهى أربعة : الزراعة وهى للمطعم ، والحياكة وهى للملبس ، والبناء وهو للمسكن ... والثانى ما هى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها ، كالحدادة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها ، وكالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد عملها .

الثالث ما هى متممة للاصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالاضافة الى قوام أمر العالم الارضى مثل أجزاء الشخص بالاضافة الى جملته فانها ثلاثة أضرب أيضا : اما وصل كالقلب والكبد والدماغ واما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والاعصاب الاوردة ، واما مكمنة لها ومزينة كالاظافر والاصابع والحاجبين » . (3)

(3) أبو حامد الغزالى احياء علوم الدين (الجزء الاول) ، القاهرة مطبعة محمد على صبيح وأولاده . 1956 ، ص 12 ـ 13 .

وقد أشار الشيخ الكافى الى أن : « كل حرفة وصنعة فيها مصالح العباد كالتجارة والنجارة والحدادة (وغيرها) لها اعتبار وشأن عظيم (فى الشرع) ، لانها من فروض الكفاية ، والمباشرون لها يثابون ان اتقنوا ولم يغشوا لقيامهم بفروض الكفاية » . (4)

واذا كانت الصناعات التى ذكرها الامام الغزالى وعبد الرحمن بن خلـــدون (5) والشيخ الكافى من بعده هى الصناعات بمفهومها الواسع الذى به تشمل جميع الحرف والمهن والصناعات التقليدة فانه يدخل فيها بكل تأكيد الاعمال الصناعية الحديثة التى تتم داخل المصانع الآلية الكبيرة والتى نعنيها عادة من كلمة « التصنيـــع » ، عنـدما نطلقها فى الوقت الحاضر .

ولكن بالرغم من أن غالب العلماء فى الوقت الحاضر يفضلون استعمال كلمة «صناعة» أو « تصنيع » فى الوقت الحاضر بمعناها الضيق ، وهو العمل الذى يتم داخل المصنع فانه لا يزال هناك من يستعمل الصناعة بمعناها الواسع الذى يشبه المعنى القديـــم الذى استعملها به علماؤنا الاقدمون . ومن هؤلاء العلماء المحدثين (م. أ. سميث (M.A. Smith) الذى أستعمل كلمة « صناعية» بالمعنى الواسع لها « لتشير الى جميع مجالات العمل فى المصانع والمزارع والمكاتب والمدارس والمستشفيات طالما هى أماكن يتم فيها العمل من صناعة السلع أو توفير الخدمات » .

وقد يكون من مبررات استعمال هذا المعنى الواسع لكلمة « تصنيع » فى البـلاد الغربية هو أن التصنيع فيها دخل « كل مجالات العمل ، بما فى ذلك الزراعة والاعمال الكتابية التى تتم داخل الشركات والبنوك والمصالح الحكومية وغيرها » . أما فى البلدان النامية ، ومنها البلاد الاسلامية التى لم يتم فيها بعد تصنيع كل مجالات العمل فانه « من الافضل استخدام الصناعة بمعناها الضيق لتشير الى المصانع فحسب » . (6)

رابعا : المشكلات التى قد تصادف المجتمعات الاسلامية في مسيرتها التصنيعية :

وهكذا نلاحظ مما تقدم أن المجتمعات الاسلامية لم يعد أمامها من خيار فى مسيرتها الانمائية الا اختيار التصنيع الحديث طريقا لتنميتها وللتغلب على كثير من المشكلات

(4) محمد بن يوسف الكافى ، الفصول الكافية . 1939 ، ص 3 .

(5) عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون (الجزء الثالث) ، تحقيق : د. عـلى عبد الواحد وافى ، ص 1057 ـ 1106 .

(6) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع ، ص 3 ـ 4 .

الاجتماعية والاقتصادية التى يرزخ تحتها بعضها على الاقل ، وذلك مثل : مشكلة التزايد المستمر فى عدد السكان ، والهجرة المستمرة من الريف الى المدن ، والنقص فى عدد المهن المتوفرة أمام الراغبين فى العمل ، وانتشار البطالة بجميع صورها الصريحة والمقنعة ، وعدم وجود طبقة أو فئة متميزة تعيش على العمل الصناعى وقلة الوعى التقنى والصناعى ونقص الايدى التى تمتلك المهارة والخبرة الصناعية ، والتمسك الضيق بالارتباطات الاسرية أو القبلية أو المحلية أو الاقليمية ، وقلة انتشار الاتجاهات النفسية التى يتطلبها المجتمع الصناعى مثل احترام العمل اليدوى والعمل باجر وتقديس الوقت وتقدير الواجب والمسؤولية واحترام النظام والقانون والطاعة للقيادة والمشرفين ، وضيق الرقعة الزراعية أمام ضغط تزايد السكان ، واختلال الميزان التجارى بسبب انخفاض قيمة الصادرات وازدياد قيمة الواردات ، وضيق القاعة الانتاجية وعدم التنوع فى مصادر الدخل القومى الى غير ذلك من المشكلات الكثيرة التى تخضع لها البلدان الاسلامية بدرجات متفاوتة والتى يمكن للتصنيع ان يساهم فى حلها أو التغلب عليها .

ولكن تلك الفوائد وهذه المساهمة المتوقعة من التصنيع فى حل مشكلات المجتمع الاسلامى ينبغى أن لا تتحول بين المسلمين وبين تكوين النظرة الصحيحة الواقعية اتجاه التصنيع . انه من واجبهم ألا يكونوا متفائلين أكثر من اللازم والا يتصوروا أن التصنيع هو البلسم الشافى لكل أمراضهم ومشكلاتهم و أن التصنيع خال من المشاكل والآفات والعيوب أو انه الوحيد القادر على التقدم بهم وانتشالهم من التخلف الذى يعيشون فيه . كما ينبغى ألا تحول تلك الفوائد والمساهمة التى أشرنا اليها بين المسلمين وبين رؤية المشكلات والآفات والعيوب التى ارتبطت بالتصنيع فى البلدان المتقدمة ، سواء كانت من فعله أو من فعل عوامل خارجية مصاحبة له ، وذلك لدراستها وتحليل أسبابها وخلفياتها وأخذ العبرة منها والعمل على تجنبها أو التخفيف من آثار بقدر الامكان .

ومن واجب المسلمين أن يكونوا على وعى بالمشكلات والعقبات التى تقف عادة فى سبيل مسيرة التصنيع ليعدوا العدة لها ويرسموا الخطط القصيرة والطويلة المـــدى لمواجهتها ومن هذه المشكلات أو العقبات يمكن أن نشير فى ايجاز الى ما يلى :

1) عدم توفر الاموال الكافية لاقامة مشروعات صناعية كبيرة وشراء أحدث الآلات ·

2ـ عدم توفر المواد الخام محليا أو عدم وجودها بالكمية المطلوبة لمدة طويلـــة أو بالجودة المطلوبة ·

3 ـ قلة أو عدم كفاءة الامكانيات والوسائل المساعدة للتصنيع ، وذلك مثل مصادر المياه والطاقة وسبل المواصلات ، ووسائل النقل وتوزيع المنتجات على الاسواق، ومرافق التخزين والصرف ، وما الى ذلك ·

4 ـ عدم وجود الايدى العاملة المدربة وقلة الكفاءات الفنية والادارية القادرة على التخطيط والتصميم والتنفيذ والتوجيه والمراقبة والمتابعة والتقويم والقادرة على القيام بالعمليات الاخرى المتداخلة مع عمليات التصنيع مثل عمليات التغليف والتوزيـــع والتسويق والتصدير وما الى ذلك · فالصناعة تحتاج عادة الى أربع فئات من المهارات الفنية ، فئة المهارات المطلوبة للادارة ، أى الكفاءات التى ستكون مسؤولة عن الانشطة الرئيسية فى الصناعة ، وهى الانتاج والبيع والشؤون الادارية ، والشؤون المالية ، والفئة الثانية هى فئة المهندسين والفنيين والكيمياويين والمحاسبين وغيرهم · والفئة الثالثة هى فئة الكتابيين الذين ينجزون الاعمال الكتابية · والفئة الرابعة هى فئـة العمال الذين يؤدون عملا يدويا أو يشرفون على تشغيل الآلات · ومن المشكلات التى تواجهها البلدان النامية بالنسبة لهذه الفئات هى أن الفئة الاولى تكون غير موجودة فيها وأن الفئات الثلاث الباقية منخفضة انتاجيتها ·

5 ـ عدم القدرة على مزاحمة صناعات الدول المتقدمة فى الخارج ، وصغر أسواقها المحلية نسبيا وانقسامها الى شطائر صغيرة بسبب المسافات التى تفصل بينها ·

6 ـ عدم توفر المعلومات الصناعية والبيانات الاحصائية والمواصفات القياسية المرغوبة ، وفقدان الاساليب المتطورة فى التشغيل ، وهى ما يطلق عليها أسرار الصنعة، لانها تمثل ناتج البحوث المستمرة وتجعل الانتاج مميزا عن غيره من السلع •

7 ـ عدم وجود تقاليد صناعية راسخة ، وعدم وجود ادارة صناعية كفؤة ، وانخفاض فى ساعات العمل حيث أن ساعات العمل المحددة على مدار العام فى البلدان النامية أقل من ساعة العمل المحددة للعامل فى البلدان المتقدمة بسبب الزيادة الواضحة فى عدم أيام الاجازات الرسمية فى البلدان النامية ، وفقدان الانضباط وعدم المحافظة على وقت العمل « فكثيرا ما يبدأ العمل وينتهى فى غير المواعيد المحددة ، كما ان فترات الراحة تطول عادة عن المدة المقدرة لها » • (7)

هذه بعض المشاكل أو العقبات التى قد تعترض سبيل التصنيع فى البلـدان الاسلامية ، ومن واجبها أن تعد العدة لها وتواجهها بالعلم والايمان والصبر والحكمة لتستطيع شق طريقها الصناعى بنجاح ولجعل الصناعة بها محققة للفوائد المرجوة منها ومساهمة فى التنمية بدلا من أن تصبح عبئا على التنمية •

خامســا : الآفات والعيوب التى ظهرت فى بعض المجتمعات الصناعية :

أما بالنسبة للآفات والعيوب التى تصاحب التصنيع والتى ظهرت بالفعل فى المجتمعات المتقدمة صناعيا فان هذه الآفات والعيوب كثيرة متنوعة تكاد تغطى كافـة جوانب حياة المجتمع التى أشرنا اليها عند الحديث عن فوائد التصنيع ومساهمتـه الايجابية • فكل فائدة يمكن أن يقابلها آفة أو عيب فى جانب من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، اذا لم تتخذ الاحتياطات والخطوات اللازمـة لتجنبـه •

ولعلنا لو نظرنا الى أحوال الدول المتقدمة صناعيا لوجدنا أنه بالرغم ما فيها من محاسن تستحق الاقتباس والاستفادة منها ، فانها تعتريها كثير من الشوائب والمساوىء والعيوب والآفات ، نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

---

(7) د. عاطف محمد عبيد ، التصنيع : مبرراته ومشاكله فى الدول النامية (نظرة ادارية بيروت : جامعة بيروت العربية ، 1973 ، ص 17 ـ 20 ، 33 ـ 34 ـ 41 •

1 ـ فالدول المتقدمة صناعيا تعانى من الناحية الثقافية : ضعفا فى الوازع الدينى وطغيانا للقيم المادية ، واحساسا بالفراغ الروحى المفجع وتنكرا لتراثها الماضى ولتقاليدها حتى الاصيل منها ، وانتشارا لدعوات الالحاد وموجات الرقص كالهيبية وغيرها الى غير ذلك من المساوى الثقافية ٠

2 ـ وهى من الناحية الاجتماعية يغلب على سكان المدن الكبيرة والمدن الصناعية فيها النزعة الفردية وفقدان التراحم والتعاطف فيما بينهم ، وتغلب روح التنافس على روح التعاون فيما بينهم وتحلل أو ضعف فى الروابط الاسرية ، وتحرر فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وانتشارا للفساد والعبث من كل نوع ،وانتشار للجرائم الخلقية والاجتماعية ، وانحدار نحو الترف والشهوات والمتع الحسية وانعدام للنخوة والحمية والعصبية التى هى ضرورية للدفاع عن الاوطان والاهل والشرف ، وتفنن فى الاغراء من أجل الاغراء ، وفقدان للوحدة والانسجام والتجانس بين شعوبها ، وغلبة الاتجاه النفعى على العلاقات السائدة فيها ، وتفش للامراض النفسية والعصبية بين أفرادها الى غير ذلك ٠

3 ـ ومن الناحية الاقتصادية فان تلك الدول المتقدمة صناعيا بالرغم من كل ما حققته من تقدم اقتصادى كبير فانها لا تخلو من المساوىء والعيوب والمصاعب ذات الطبيعة الاقتصادية أو التى لها صلة بالنواحى الاقتصادية فمع الثورة الصناعية ازدادت متاعب العمال الاقتصادية والصحية والاجتماعية بسبب سوء الثروات والاستغلال السىء من قبل أصحاب المصانع ورؤوس الاموال وقلة العناية بالاحوال الصحية والسكنية والامنية للعمال ٠ فالاهتمام الاول لاصحاب المصانع هو بزيادة الانتاج وبالحصول على أكبر عائد ممكن من العمال ٠ (8)

ومن الثورة الصناعية أيضا « فقدت اجتماعيات العمل البساطة التى كانت تتسم بها على عهد الصناعات اليدوية حين كانت الوحدة الانتاجية صغيرة لا تنفصل فيها صفة صاحبها كرب عمل عن صفته كعامل فهو يتصل بعماله فى الليل والنهار ،

(8) دكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن وآخرون ، التنمية الاقتصادية والحركة التعاونية فى البلاد العربية مصر ، سرس الليان ، مركز تنمية المجتمع 1962 ص 1 ٠

داخل مقر العمل وخارجه · زميلا يمارس معهم نفس العمل تحت نفس الظروف وصديقا يبادلهم الود ويشاطرهم الآمال والآلام ··· » ·

والمجتمعات الصناعية عرضة للتضخم تارة وللانكماش والكساد تارة أخرى · والتضخم فى هذه المجتمعات لم يعد قاصرا على أوقات الحروب ، بل أصبح له وجود فى تلك المجتمعات حتى فى أوقات السلم يقلق بال الناس خاصة ذوى الدخل المحدود منهم ، ومن بينهم العمال ، لانه يهبط بمستوى معيشتهم ، ويخفض من قيمة العملة التى يستعملونها ، ويسلبهم معظم دخولهم ولا يمكنهم من الادخار ، ويشجع على المضاربة فى الاسواق واذا استمر التضخم وأصبح فاحشا يضر بالانتاج وينقص الاستثمار ويؤخر النمو ، ويهبط بالمستوى المعيشى للشعب (9) ·

وقوة روح التنافس فى المجتمعات الصناعية كثيرا ما يضر بمصالح العمال ويؤدى الى التهاون فى تحسين مستواهم المعيشى وفى حقوقهم ، خاصة ما كان من هذا التنافس فى ميدان التجارة الدولية حيث ان « المنتجين فى مختلف الدول يحاولون ترويج انتاجهم خارج بلادهم ، ويبذلون فى هذا كل ما تسعه جهودهم · ومن أهم ما يعين على رواج سلعة ما انخفاض سعرها بالنسبة لمثيلتها الناتجة عن دولة أخرى · ومن أهم أسباب انخفاض السعر خفض التكاليف وفى مقدمتها الاجور · لذلك كان المنتجون يترددون فى رفع أجور عمالهم وتحسين ظروف العمل لهم · كما كانت الحكومات نفسها تتردد فى رفع الاجور العمالية قسرا والزام أصحاب الاعمال بالتحسينات الملائمة فى ظروف العمل ، حتى لا ترتفع اسعار السلع التى تنتجها الدولة فتنكفى على عقبيها فى ميدان المنافسة التجارية الدولية ·

ان تحسين ظروف العمل يستلزم زيادة نفقات الانتاج ، ومن ثم يتعرض المنتج لخطر ارتفاع سعر سلعته ، بحيث لا يمكنه بيعها فى الاسواق العالمية ، حيث منافسة المنتجين فى الدول الاخرى ·

---

(9) جون فليب وريتت ، الرخاء بدون تضخم · (ترجمة د. حسين عمر) ، القاهرة مكتبة القاهرة الحديثة · ص 6 ـ 7 ـ 12 ـ 26 ـ 52 ·

4 ـ واما فى المجال السياسى فانه من بين الآفات والعيوب التى جرها التصنيع أو ارتبطت بـه فى الدول المتقدمة هـو ذلك الصراع الحاد بين أصحاب المصانع والعمال ، وزيادة الصراع الطبقى بين طبقة أصحاب روؤس الاموال التى تملك وسائل الحيـاة وضرورتها وطبقة العمال التى لا تملك شيئا سوى عملها ، وزيادة اضطرابات العمال وكثرة مطالبهم واضراباتهم وعنفهم وتحيزاتهم السياسية التى كثيرا ما تشغل العمـل السياسى وتسبب حالة من عدم الاستقرار فى البلاد ٠

ـ وفى تلك الدول كثيرا ما يصبح أصحاب المصانع أنفسهم وأصحاب الاعمال بصورة عامة من جماعات الضغط السياسى يؤثرون فى سير الانتخابات وفى القرارات السياسية بشتى الوسائل والطرق « وتترسم جماعات الضغط استراتيجية عامة للتأثير فى الهيئات التى تتخذ القرارات التى تمس الصناعة » ٠ ولذلك تحاول التأثير فى الرأى العـام باستخدام وسائل الاعلام المختلفة الى جانب عقد الاجتماعات العامة ٠ وأدركت الحكومات المختلفة أهمية جماعات الضغط ٠٠٠ ، حتى أصبحت قبل أن تصدر قانونا من القوانين تشكل لجانا استشارية لعرض ذلك القانون عليها لابداء الرأى فيه (10) ٠

والحكومة عندما تصبح موالية لاصحاب الاعمال ورجال الصناعة تصدر القوانين التى تحمى مصالحهم ، وتضع السياسة الضريبية المناسبة لهم ، وتتغاضى عن توقيع الجزائات على الشركات التى تخالف قوانـين العمل والقوانين الاقتصادية ، فى الـوقت الـذى لا تتسامح فيه مع نقابات العمال عندما تخالف قوانين العمل ٠ وقد يصل رجـال الصناعة والاعمال فى قوتهم الى الدرجة التى بها يستطيعون تغيير الحكومة أو احتواءها والسيطرة عليها ، متخذين فى سبيل ذلك شتى الوسائل والسبل التى قد تكون من بينها شراء وسائل الاعلام المختلفة ومنح المؤيدين لهم من رجال الدولة عضوية مجالس الادارات الصناعية ومجالس المصارف الكبرى وما الى ذلك ٠

هذه بعض الآفات والعيوب التى يمكن للباحث ان يلاحظها بسهولة بدرجات متفاوتة فى المجتمعات المتقدمة صناعيا ، سواء كانت غربية أم شرقية ٠ وهى أبرز ما تكون فى المجتمعات الغربية الرأسمالية ٠

---

(10) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع ، ص 164 ـ 165 ـ 169 ٠

5 ـ ولعل أخطر هذه الآفات والعيوب التى يهم مجتماعتنا الاسلامية أن تتعرف عليها وأن تسعى لتجنبها فى مسيرتها الصناعية هى الآفــات والعيــوب الروحية والخلقيــة والاجتماعية المتمثلة فى : ضعف الوازع الدينى ، وانتشار موجات الالحـــاد والرفض والنزعة السلبية فى الحياة خاصة بين الشباب والتحلل الخلقى وانتشار الفساد والجرائم من كل نوع ، وضعف العلاقات والروابط الاجتماعية ، وتحـــلل العلاقات والروابط الاسرية بالذات وكثرة الازمات الاسرية وضعف السلطة الابوية والرقابة الاسرية وزيادة نسبة الطلاق كاحد المؤثرات المعبرة عن تفكك الاسرة والانسلاخ من العادات والتقاليد الاصيلة فى المجتمع وعن تراث الماضى ، والفروق الشاسعة فى المستويات الاقتصادية والاجتماعية وما ينشأ عنها من شعور بالظلم والحقد قد يهدم وحدة وتماسك المجتمع ويؤدى الى عدم تكامله ، الى غير ذلك من الآفات والعيوب من هذا النوع ٠

ان كل خسارة تهون اذا كانت فى غير الدين والاخلاق والتقاليد الصالحة الاصيلة أما اذا وصلت الآفــات والعيوب والمساوىء الى الجوانب الروحية والخلقية والاجتماعية فانه لا يمكن للمسلم أن يسكت عنها ، ومن واجبه أن يبذل أقصى جهد لتجنبها وتجنب العوامل والاسباب التى تؤدى اليها حتى يستطيع المحافظة على دينــه وخلقــه وهويته الاســلامية المتميــزة .

سادسا : الاسباب التى تكون وراء آفات وعيوب التصنيع فى المجتمعات المتقدمة :

ومن واجب المجتمعات الاسلامية وهى تسلك سبيل التصنيع أن تدرس أسباب تلك الآفات والعيوب التى صاحبت الثورة الصناعية فى البلدان المتقدمة فقد تكون هــذه الاسباب مستقلة عن الصناعة فى حد ذاتها ٠ وفى هذه الحال يمكن فرزها وفصلها ورسم خطة صناعية بدون تلك الآفات والعيوب أو بأقل قدر منها ٠ ومن ملاحظاتنا الشخصية ومن اطلاعنا على نتائج الدراسات التى أجريت فى هذا الخصوص يمكننا تلخيص هــذه الاسباب فيما يــلى :

1 ـ الحرية الاقتصادية الفردية والنزعة الفردية المطلقة اللتان يقوم عليهما النظام الرأسمالى ، خاصة فى شكله التقليدى ٠ والحرية الاقتصادية من شأنها أن تدعوا الى

المنافسة التى قد تصبح ضارة للمجتمع وبالمصلحة العامة . وذلك عندما يعمل كل فرد « لتحقيق مصالحه الخاصة ويهدف للحصول على أكبر الارباح لنفسه ويرمى الى اشباع كل ما يستطيع من حاجات لذاته ، بغض النظر عن مصالح الآخرين » . والحرية الاقتصادية المطلقة تؤدى فى أغلب الاحيان الى ظهور الاحتكارات التى تضر قطعا بجمهور المستهلكين بسبب ما تؤدى اليه من رفع اثمان البيع فهى تتيح لبعض المنتجين التحكم فى مورد أو أكثر من الموارد الاقتصادية كما تسمح لهم لعقد اتفاقات فيما بينهم تتعلق بتحديد كمية الانتاج لكل منهم أو توزيع أسواق الاستهلاك عليها أو تحديد أسعار بيع منتجاتهم (11) .

2 ـ سيادة روح التنافس واتخاذ العمال وقودا لهذا التنافس بدون مراعاة لمصالحهم وصحتهم وصحة أسرهم ودون مراعاة لما يعانونه من متاعب صحية وسكنية ومعيشية خاصة أمام التضخم الاقتصادى الفاحش أو الارتفاع الزائد لتكاليف المعيشة ، بحيث أصبحت لا تفى بها دخولهم المحدودة ، حتى على فرض ضمان العمل لهم . على أن العمل غير مضمون لهم على الدوام وكثيرا ما يتعرضون للبطالة لفترة طويلة أو قصيرة

3 ـ انفصال العمال عن مجتمعاتهم المحلية التقليدية بسبب انتقالهم الى مجتمعات صناعية تختلف فى العلاقات السائدة فيها وفى أسلوب الحياة فيها عما هو سائد فى مجتمعاتهم المحلية التقليدية الاصلية . ففى المجتمع الصناعى تفقد البساطة فى البناء الاجتماعى والوحدة والتجانس والانسجام والوحدة والعلاقات الشخصية الدائمة التى يتميز بها المجتمع المحلى ، كما تنقص فيه الرقابة الاجتماعية . ويصبح العمال فيه يعاملون كأدوات للانتاج وتصبح العلاقات التى تربطهم بادارة المصنع علاقات غير شخصية ومؤقتة ومنفعية

4 ـ اكتضاض المناطق الصناعية بالسكان وتلوث جوها بآثار الصناعة .

5 ـ زيادة أوقات الفراغ فى المجتمعات الصناعية وعدم توفر المرافق والمؤسسات الكافية لتقضية أوقات الفراغ فى أنشطة بريئة وبناءة مفيدة مما يضطر الناس لتقضية فراغهم فى الملاهى والحانات وغيرها من الاماكن الضارة أو فى التسكع فى الشوارع .

(11) د. محمد حمدى انتشار النظم الاقتصادية (سلسلة الكتب الدراسية رقم 47) . جامعة اسيوط ، 1965 ، ص 49 ـ 54 .

6 ـ انشغال كل من الاب والام بالعمل الخارجى وقلة فرص اللقاء بين أفـراد الاسرة مما له تأثير فى ضعف العلاقات الاسرية وضعف رقابتها ٠

7 ـ ترك العنان للصحافة ووسائل الاعلام المختلفة لتتملق الغرائز وتلهب الشهوات وتبث ما تشاء من الاغذية السامة وتروج للمبادىء الالحادية والمادية ، وتسلى النـاس على حساب الدين والاخـلاق ٠

8 ـ ولعل أهم هذه الاسباب جميعا التى تهمنا فى هذا الملتقى هو ابعاد الدين عن شؤون الحياة وفصله عن الدولة وطغيان المادة والقيم المادية والمصالح المادية وما ترتب على ذلك من ضعف فى العقيدة وفى الوازع الدينى ومن تحلل خلقى ومن اهمال للحاجات الروحية فى النظـم الاقتصادية فى تلك البلـدان والمجتمعات الصناعية ٠ فالنشاط الاقتصادى فى هذه البلدان والمجتمعات يكاد يقتصر على تحقيق المصالح المادية ، سـواء كانت هذه المصالح المادية هى تحقيق أكبر قدر من الربح كما هو الشأن فى الاقتصاد الرأسمالى ، أم اشباع الحاجات العامة وتحقيق الرخاء المادى كما هو الشأن فى الاقتصاد الاشتراكى (الشيوعى) ٠ فالنشاط الاقتصادى ذو صبغة ماديـة ٠٠٠ وان اختلفت صورته باختلاف النظام المطبق رأسماليا أو اشتراكيا (ماديا) ٠ وفى ظل هذه النظم الاقتصادية الوضعية لا يتجاوز النشاط الاقتصادى حدود المادة ٠

وخطأ هذه النظم أنها تصورت الانسان مادة فحسب وان حقيقة العالم تنحصر فى ماديته وان الكسب المادى أو الكفاية المادية هو كل حياة البشر ومن ثم كان هذا الفراغ الروحى أو ذلك الافلاس النفسى الذى تعانيه المجتمعات التى تدين بهذه النظـم ٠٠٠ (وفى ظل هذه النظم المادية) ، الرقابة فى مباشرة النشاط الاقتصادى هى أساسـا رقابة خارجية مناطها القانون وهى رقابة محدودة قاصرة وفى كافـة النظم الاقتصادية الوضعية المصالح المادية : سواء كانت فى صورة تحقيق أكبر قدر من الربح أو تحقيق الكفاية والرخاء المادى ، مقصودة لذاتها (12) ٠

(12) د. محمد شوقى الفنجرى ، الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية ، مجلة الوعى الاسلامى ٠ السنة الحادية عشر العدد (131) ، نوفمبر 1975 ، ص 38 ـ 44 ٠

والطغيان المادى فى المجتمعات المادية لم يعد قاصرا على الجوانب الاقتصادية ، بل تعداه الى كافة جوانب الحياة ، حتى العلاقات التى تربط بين الناس ، والقيم التى تحكم تصرفاتهم والعقائد التى يدينون بها وطرق تفكيرهم وقد ساد من جراء ذلك الفكر المادى والعلمانى وانتشر الالحاد والفوضى الروحية والتحلل الخلقى والاسراف فى التمتع بملذات الحياة •

وقد أصبحت هذه المجتمعات المادية مغترة بتقدمها العلمى والتقنى وفاتها آن تقدم العلم أو التكنولوجيا ـ لا يستلزم تقدم الانسانية فى سلوك الانسان • لان التقدم فى السلوك الانسانى يرجع أولا وأخيرا الى تقلص مجال الانانية واتساع المجال الجماعى فى تفكير الانسان وفعله وسلوكه على السواء •

تقدم العلم قد يساعد على تحكم الانانية وتقدم التكنولوجيا قد يساعد على الانحراف فى استغلال الطاقات المهنية للانسان • وأحداث العالم اليوم واحتكاك الشعوب بعضها ضد بعض هى احدى نتائج الانانية فى المجتمعات ذات التقدم العلمى والصناعى •

هذه المجتمعات المادية فى تقدمها العلمى والتكنولوجى تخدم غرضا واحدا هو غرض الصراع هو غرض الارهاب فالافناء • وفى الوقت نفسه موجات الظلم والفساد والانحلال والسخرية بدين الله التنديد بالضعفاء والاعتزاز بالقوة المادية وحدها تعد من الظواهر الواضحة الاتجاه هذه المجتمعات • (13)

هذه هى ابرز الاسباب التى تكمن وراء مشكلات المجتمع الصناعى الحديث وعيوبه وآفاته ولعل الذى يهمنا من هذه الاسباب هو السبب الاخير المتعلق بالانحراف نحو المادة فى كافة جوانب الحياة وأهمال القيم الروحية لانه فى نظرنا هو السبب الرئيسى فى تلك الآفات والعيوب والمساوىء الروحية والخلقية والاجتماعية التى تعانى منها المجتمعات الصناعية •

ولعل المتأمل فى طبيعة تلك الآفات والعيوب وفى الاسباب التى ذكرناها لها يجد أنها فى مجموعها لا تكمن فى طبيعة الصناعة نفسها وانما هى اعراض وعوامل مصاحبة

(13) د. محمد البهى « آثار المادية فى سقوط المجتمع » مجلة الوعى الاسلامى السنة الحادية عشر العدد (132) ، ديسمبر 1975 ، ص 30 — 41 •

لها • وهذا من شأنه أن يبعث فينا الامل فى أن نتوصل الى نظام اقتصادى وصناعى يخلو بقدر الامكان من تلك العيوب والآفات والمساوىء الروحية والخلقية والاجتماعية وذلك اذا ما استطعنا ان نستمد فلسفة هذا النظام واهداف سياسته واخلاقياته ومعايره من مبادىء وتعاليم ديننا ومن قيمنا وتقاليدنا الاصلية ومن تراثنا الاسلامى وأن نطبقه ونمارس وقائعه فى هذا الاطار •

سابعا : الطريق الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب فى المجتمعات الاسلامية :

واذا ما حاولنا أن نبحث عن امثل السبل لتجنب تلك الآفات والعيوب فى ضوء الاسباب التى ذكرناها لها وفى اطار قيمنا الدينية فاننا نجد ان من أهم هذه السبل مـا يـلى :

1 ـ العمل على توجيه الحرية الاقتصادية وعلى التخفيف من حـدة التنافس فى المجال الاقتصادى بحيث لا يبقى من ذلك الا ما هو ضرورى للحفز على العمل وبـذل الجهد وزيادة الانتاج وعلى تحسين الانتاج واذكاء روح المبادءة والابتكار • ان كثيرا من الافكار الاقتصادية والاجتماعية القديمة التى كانت تسود الاجتماعات الانسانية فى الماضى قبل فكرة الملكية الفردية المطلقة وفكرة الفردية المطلقة ، وفكرة الحرية الاقتصادية التى ليس لها حدود وفكرة التمييز بين الطبقات لم تعد مقبولة من المجتمعات فى الوقت الحاضر وبدأت تحل محلها فى القبول افكار تقابلها قد يكون من بينها فكرة الملكية الفردية وظيفة اجتماعية وفكرة التعاون والتضامن الاجتماعى وفكرة رأس المال فى خدمة المجموع وفكرة تذويب الفوارق بين الطبقات والمساواة فى الفرص بين الجميع وفكرة التوجيـه الاقتصادى والتخطيط الاقتصادى والاستخدام الامثل للموارد المتاحـة من قبـل الدولـة • (14)

وفى اطار هذا السبيل لابد ان يعمل على نشر روح التعاون والوعى التعاونى فى كافة ارجاء المجتمع وربط فلسفة التعاون بمبادىء الدين الاسلامى وقيمه وعلى اقامـة

(14) د. محمد حمدى انتشار النظم الاقتصادية ، ص 14 ـ 15 ـ 63 ـ 81 ـ 85 •

شركات المساهمة التى يستطيع أن يساهم فى رأسمالها أكبر عدد ممكن وعلى خوض تجربة مشاركة العمال فى رأس مال الشركات التى يعملون بها وفى أرباح هذه الشركات وعلى التقويم لهذه التجربة ·

2 ـ بذل الجهد للحيلولة دون حدوث التضخم الفاحش الذى يضر بمعدل الانتاج وبمستوى الكفاية الانتاجية وينقص من مقدار الاذخار والاستثمار ويرهق ذوى الدخل المحدود لان ما يتقاضون من اجر أو دخل يفقد قيمته أو يقلل من قيمته الشرائية وسبل مقاومة التضخم يعرفها الاقتصاديون وليس من اختصاصنا ، ولعل من أهمها : أحداث التوازن بين العرض والطلب وبين تدفق النقود ومعدل الانتاج وتخفيض كمية النقود لتحد من مستوى الطلب الفعلى ، وزيادة الانتاج ورسم وتحقيق سياسة ترمى الى تحقيق الاكتفاء الذاتى بالتدريج ، ورفع الاجور للعمال بما يجعلها تفى بمطالب الحياة وتتمشى مع تكاليف الحياة والتحكم فى الاسعار حتى لا يفقد ارتفاعها أى قيمة لزيادة الدخل أو الاجر ، ورفع الضرائب على الكماليات وتخفيضها أو ألغائها على ضروريات الحياة مثل الخبز واللبن واللحم وما الى ذلك ، وجعل الطاقة الانتاجية تسير بالمعدل الذى لا يؤدى الى البطالة ، كما هى الحال عند سرعة الانتاج أكثر من اللازم ، الى غير ذلك من سبل مقاومة التضخم الاقتصادى ·

ومن واجب الدولة أن تبذل نفس الجهد فى مقاومة الركود الاقتصادى الذى لا يقل فى مضاره عن التضخم ·

3 ـ العمل المستمر لتحسين أحوال العمال وظروفهم المعيشية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية بما يجعلهم يشعرون بالامن الاقتصادى وبالراحة فى معيشتهم وبالكرامة الانسانية وبالاستقرار النفسى والثقة بالنفس وبما يرفع من معنوياتهم ويزيد بالتالى من انتاجهم ويزيد من وعيهم الثقافى الاجتماعى والسياسى · ويتحقق هذا التحسين فى أحوال وظروف العمال عن طريق : التحسين المستمر فى أجورهم وجعلهم يستفيدون من زيادة وتحسين انتاجهم واشراكهم فى رأس مال وأرباح الشركات التى يعملون بها وتحسين ظروفهم السكنية وتوفير الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية الصالحة لهم وتوفير الخدمات الاجتماعية لهم بما فى ذلك التأمين ضد البطالة

والحوادث والامراض والشيخوخة والعجز ، وتوفير الرعاية النفسية الصالحة لهم ولافراد أسرهم حتى يتحقق لهم التكيف مع أنفسهم ومع المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتوفير الاجهزة والوسائل والمرافق والبرامج الصالحة لتقضية أوقات فراغهم فيما ينفعهم وينفع مجتمعهم ويتمشى مع مبادىء وقيم دينهم ، وتقديم الرعاية المناسبة للامومة والطفولة والاحداث فى مجتمعهم وتوفير الخدمات التعليمية والتدريبية الصالحة لهم ولاولادهم ، ورفع مستواهم العلمى والمهنى والثقافى العام باستمرار ، وزيادة قدرتهم على التوافق مع وسائل وعمليات الانتاج المتطورة والمتجددة باستمرار ، وسن القوانين العمالية العادلة التى تعرف العمال بحقوقهم وواجباتهم وتنظم العلاقة بينهم وبين أصحاب العمل ، وتحسين العلاقة بين العمال وبين أصحاب العمل لانه لن يتحقق التقدم الا اذا تحقق التعاون والتفاهم بين الفريقين ، وابراز المكانة الاجتماعية للعامل وابراز قيمة ما يقوم به من عمل ، الى غير ذلك من الامور التى تساعد على تحسين أحوال وظروف العمال وتقلل من المساوىء الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية التى قد يقعون فيهـا .

4 ـ الحرص بقدر الامكان على انشاء المصانع داخل المجتمعات المحلية أو قريبا منها على الاقل لتبقى الروابط والعلاقات الاجتماعية السائدة بين العمال هى نفس الروابط والعلاقات فى المجتمعات المحلية القريبة منها وليعيش العمال بين اهلهم واقاربهم وليخضعوا للرقابة الاجتماعية وللتقاليد التى يخضع لها مجتمعهم المحلى ، وفى حال تعذر اقامة العمال فى مناطق سكناهم الاصلية فانه ينبغى الحرص على انشاء قرى نموذجية لهم مكتفية ذاتيا باسواقها ومرافقها ومدارسها ومراكز خدماتها الصحية والاجتماعية والترفيهية والانمائية والاهتمام بالبدائل التى تعوضهم عما فقدوه من روابط قوية فى مجتمعاتهم المحلية . ومن هذه البدائل النقابات العمالية ، والنوادى الرياضية والثقافية والاجتماعية والجمعيات التعاونية ، وما الى ذلك من الوسائل المساعدة على تقوية الروابط الاجتماعية بينهم .

5 ـ ارساء قواعد الدين وتوطيد اركانه فى حياة المجتمع وربط شؤون الحياة بتعاليمه واحكامه واتخاذ مبادئه وقيمه المنطلق الرئيسى لفلسفات وسياسات مجتمعاتنا

الاسلامية الاقتصادية والصناعية والمصدر الرئيسى للقيم الخلقية فى هذه المجتمعات والربط بين المصالح المادية والحاجات الروحية للفرد والمجتمع المسلم فى جميع الخطط الانمائية بما فى ذلك خطة التنمية الصناعية وتقوية الوازع الدينى وتأكيد قداسة الدين فى النفوس عن طريق التربية الدينية والخلقية الصحيحة وعن طريق تأكيد احترام السلطة الزمنية واتخاذها الحارس للقيم الدينية والخلقية وللحريات والمصالح الفردية المشروعة ومصالح المجتمع ومكتسباته . انه لابد من الجمع بين هدى الدين ووازع السلطان ورضى الله عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان حين قال : « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ان الاخذ باسباب التقدم الاقتصادى والصناعى يجب أن لا ينسينا مبادىء وتعاليم وقيم ديننا الاسلامى وأن لا يفقدنا أصالتنا وهويتنا الاسلامية وألا يسلخنا من تراثنا وماضينا المشرق ان التقدم الحقيقى فكرا واقتصادا هو الذى يهضم ماضى الامة ويستوعب مشكلاتها الحضارية وينطلق من تمثل الماضى واستيعاب الحاضر الى مستقبل زاهر كريم ويؤكد الجانب الروحى فى الكيان البشرى ويربط العلم بالايمان والقوة بالرحمة وتكون وجهته وغايته رضا الله وخشيته وتحقيق كرامة الانسان وتقوية الفرد والمجتمع من جميع النواحى .

هذه بعض السبل العامة التى ينبغى أن تتبع لتحقيق تقدم اقتصادى وصناعى خال بقدر الامكان من العيوب والمساوىء الموجودة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والله أعلم .

الاستاذ المرحوم عثمان الكعاك فى الملتقى العاشر

آخر تعليق للمرحوم عثمان الكعاك فى الملتقى وكان ذلك على محاضرة الدكتور احسان عباس



سيـادة الوزير ،

أيها السادة العلماء الافاضل ،

أبنائى الطلبة ، بناتى الطالبات ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

« قيل للارنب أنت ضعيفة وهزيلة وتأكلين دائما العشب ، فلماذا لا تأكلين اللحم ؟ قالت : « هل سلمت بلحمى حتى آكل لحم الناس ؟ ! » وأظننى فى الصباح لم أسلم بلحمى ، ولكن مع ذلك فانا أندلسى عنيد ، ولست رحيما ، فأنا ما عليش اذا أكل لحمى ، ويقول المثل العربى : « من غربل الناس نخلوه » . أبدأ بشكر الدكتور العظيم العالم المتزن المرتب المنظم المبرمج لاعماله والمبرمج لحياته العلمية أيضا على هاته المحاضرة القيمة التى ألقاها ، وأبدأ فاقول : لماذا يا سيدى تتهم نفسك ، فأنت تقول : انك لا تعرف صلات الحضارة المغربية بالاوروبيين الى غير ذلك .. أنا لا أسلم بذلك . ومن ناحية أخرى لا سبيل لاى انسان لم يزر بلدا ولم يطل المقام فى بلد أن يكون محيطا احاطة كلية بجميع ما يوجد فى ذلك البلد . ذكر أستاذنا الكريم ان مصادر انتقال العلوم والآداب والفنون الى أروبا ثلاثة : الاندلس من ناحية ، صقلية من ناحية ثانية ،

(*) هذه الصورة أخذت لفقيدنا ببضع سويعات قبيل وفاته بسكتة قلبية على سريره .

والحروب الصليبية من ناحية ثالثة · هناك يا سيدى أيضا القيروان ، وهنالك يا سيدى أيضا المهدية . وهنالك يا سيدى أيضا بجاية ، وهناك ياسيدى أيضا تلمسان ، وهنالك يا سيدى أيضا فاس ! فلنأخذ بجاية مثلا : بجاية كانت مصدرا عظيما وقويا للعلم ، وفى بجاية جاء « فيكاجو نارى بيزانى Ficagonari Pizani وأبوه ، وذهبا الى الشيخ عمر من هو ؟ لا نعرفه ، وهناك تعلم الرياضيات ، أولا الارقام العربية ، وثانيا الحساب والجبر والمثلثات الى غير ذلك ··· وهنا نفتح القوس ونقول ان هاته العلوم الرياضية دخلت الى أروبا عن طريقين ؛ عن طريق طليطلة وبواسطة محمد الخوارزمى الذى لا يزال اسمه موجودا فى كلمة algorithme ، وفى كلمة logarithme ، ولكنه نقل الى أروبا الارقام الهندية ، ونقل الى أروبا « ساندهاندا » التى هى كتاب وضعه الهنود فى علم الحساب ، والفرق بين الطريقة العربية المغربية والطريقة العربية الموجودة فى الاندلس فى الاول ، هو أن الفروق بين منازل الآحاد والعشرات والمئات وهلم جرا كانت مفصولة بما يسمى بالآباك ، ويسمى الى اليوم فى المغرب بالحمار ، أى بفصول أو بسطور ، بحيث أن دار الآحاد موجودة لوحدها ، ودار المئات لوحدها وهلم جرا · عندما جاء العلم الى بجاية ، رفعوا هذه الآباك ، هذا الحمار ، نحن لا نحتاج الى الحمير والحمد لله ، فصارت الارقام لها قيمة منزلية ، يعنى لها منزلة قيمية ، الواحد على اليسار واحد ، فاذا صار على اليمين فعشرة فاذا زاد على اليمين فمائة الخ ··· وهذا له أهميته الكبرى لان القدماء من يونان ورومان كانوا يكتبون بالحروف Alpha Beta Gamma وهى طريقة الابجد عندنا ، لكن هذه الطريقة لا يمكن أن يقام عليها حساب ، فلما جاءت الارقام العربية ـ ثم أن الارقام الهندية لا يدل الرقم على قيمته من نفسه ـ فلما جاءت الطريقة المغربية ، صار الرقم يدل على قيمته من نفسه ، فأنت اذا رأيت واحدا ، فكم من زاوية فيه ؟ اذا كانت واحدة فهو واحد ، واذا كانت زاويتان حينئذ اثنان ، ثلاث زوايا حينئذ ثلاثة ··· الى غاية تسعة ، فلما انتهينا الى تسعة وقفنا فى الآحاد ، فاذا أردنا أن ننتقل الى العشرات وجب أن نستعمل الصفر علامة الخلاء

وجعلوا الصفر علامة الخلا ★ مدور كمثل حلقة جلا

اذن فالصفر لم يعد نكتة السندا حدا ، فالصفر صار مدورا ، هذا هو الانقلاب العربى الكبير ، فلما ذهب الصفر العربى الى أروبا ، أخرجها من صفرها !· وذهب فيكاجونارى ـ Ficagonari الى مدينة بيزا ، فجعلها عاصمة رياضيات الى يوم الناس هذا · ثم فى مدينة بجاية أيضا جاء رامون لول Ramon Lull الذى كان انتقاله سهلا لانه كان من جزائر الباليار أو الجزائر الشرقية ، وفى بجاية تعلم ، لانه يريد أن ينصر البجائيين بعد

أن يتعلم لغتهم وفقههم فيقنعهم بنظرياتهم ويعكسها ، لكن عوض ان يستولى على المسلمين استولى المسلمون عليه . ولله فى خلقه أسرار ! فوضع كتــاب « أرس ماقنـــا Ars Magna » الذى أخذ اصوله من عند العرب ، وذهب الى الاوروبيين يقول لهم : « ايها السادة ، يجب أن نفعل مثلهم ، او ان نتخلى عن الميدان » ، وهذا شىء عظيم . اذا رجعنا قليلا الى شــرق المغرب ، ذكر الدكتور حفظه الله ان الترجمة انتقلت مـــن ايطاليا بواسطة جــيراردو الكريمونى Girardo الى طليطلة ، لكن مـــن علـــم جيراردو الكريمونى أيها السادة ؟ الاستاذ الكبير الذى علم جيراردو هو قسطنطين الافريقى ، أى التونسى ، الذى كان تاجرا ثم اختطفه القراصنة البيزنطيون والصقليون ، فأظهر التنصر ، وتعلم اللاتينية جيدا ، وأسس مدرسة ترجمة برباط كاسينو Cassino ، الذى ربما يكون رباط قاسم ، وهناك جاءه جيراردو وغيره ، وتعلموا عنه الترجمة ، ثم لما رأى جيراردو أنه لا سبيل الى أن يبقى مع قسطنطين الافريقى ـ كما رأى زرياب مثلا أنه لا سبيل الى البقاء مع ابراهيم الموصلى ـ انتقل الى بلاط طليطلة ، وهناك أسس مدرسة ترجمة ، وقسطنطين الافــريقى هذا قد ترجم كثيرا ، وتحدثت عن هذا فى هذا الصباح .

ما هو سبب ازدهار العلوم الرياضية هذه فى المغرب والاندلس ؟

لان فى طليطلة كان بيت الحكمة ، وفى قرطبة كان بيت الحكمة ، وفى القيروان كان بيت الحكمة ، فالمسلمون قسموا التعليم الى دينى بحت مع العلوم الآلية ، فجعلوا له الجامع ، والى جانب الجامع ـ وفى جواره على مسافة قليلة منه ـ أسسوا بيت الحكمة ، وبيت الحكمة يشبه ما كان يسمى « ليسيون ـ Lycéon عند اليونان ، يعنى معهدا للترجمة ، ومعهدا للبحوث العلمية ، ومعهدا لتعليم الرياضيات والطب والفلسفة الى غير ذلك ، فكان بيــت حكمة فى القيروان الذى أسسه زيادة الله الثالث ، والذى كان يديره ابراهيم الرياضى البغدادى ، كان مدرسة للطب ، تخرج منها ابن الجزار ، لكن هذه المدرسة للطــب ، فيها أيضا مدرسة للهندسة ومدرسة للفلك ومدرسة للنحو المقارن للغات السامية ، الذى جــاء عن طريق دوناس بن تميم القيروانى الذى ألف كتابا فى النحو المقارن ، فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، هذا هو الشىء الذى جعل هذه البلدان مركز اشعاع . ثم شىء آخر ، الذى يأتى من الشرق يصل الى القيروان قبل أن يصل الى قرطبة ، لان الى حد القرن الرابع وبداية الخامس ، كانت الحضارة المغربية أرقى من الحضارة الاندلسية فالدليل أن الاندلسيين جاؤوا ليتعلموا فى القيروان وفى سوسة وفى بجاية وفى فاس الى غير ذلك . حينئذ كانت الاشياء الحضارية ، كجهاز أو ما أسميه بالجهاز الثقافى ، وأعنى الكاغد أو

الورق . فهارون الرشيد عمل غزوة فى الصين وجلب بعض الصناع أسرى . وقال لهم أنا أطلق سبيلكم وأنفق عليكم اذا أنتم علمتم أبناء بغداد . كل يعلمهم صناعته . فجـــاءهم الكواغدى أو الكاغدى وعلم صناعة الكاغد . وجاء الغظائرى – céramiste وعلـــم صناعة الزليج – القشانى – وجاء صاحب البوصلة وعلم صناعة البوصلة . وجاء صاحب البارود وعلم صناعة البارود . وجاء صاحب الطباعة الصينية القديمة الخشبية وعلـــم أهل بغداد الطباعة الخشبية وجاء آخر وعلم التجليد . وهذا دائما فى القـــرن الثالث . والملاحظ أنه فى القرن الثالث نفسه كانت القيروان يصنع فيها الكاغد . ويصنع فيهـا التجليد . ويصنع فيها الزليج . ويطبع فيها . ولنا أوراق كثيرة وحتى فى دار الكتب المصرية توجد خزانة فيها الكثير من الكتب منها كتاب فى الحديث . والتى طبعت على الخشب منذ سنة 270 هـ . فهذه البضاعة الثقافية أو الجهاز الثقافى هو الذى كون ثورة فى الثقافة . لان وجود الكاغد أيها السادة هو أكبر عامل على انتشار الثقافة . وقبل ذلك كان الناس يكتبون على جلد الغزال . مصحف كريم يحتاج الى قتل 500 غزالة فلما جاء الكاغد كانت صناعتـه سهلة لانه يصنع من بقايا الثياب ومن القطن الذى كان يزرع فى تونس الى غير ذلـك . وأصبحت كل امرأة تحسن طبخ البريك يمكنها أن تصنع الكاغد . وهكذا اذا كان عندنا كاغد من السهل أن يكون لكل طالب كتابه ليتعلم به .

واذا كان الكاغد صار جائزا أن يكون لنا كراس التمارين . ولا يمكن أن نتعلم الرياضيات بدون كراس التمارين . واذا كان الكاغد يمكن لكل مسلم أن يكون له ما شاء من الكتـب بثمن بخس دراهم معدودة هذا مكن أولا من انتشار الكتاب بسرعة البرق . ومكن ثانيا من أن العلم صار سهل الانتقاء · شيء ثانى عندنا الاربطة . المرابطون يقسمون وقتهم الى ثلاث . الثلث للعبادة . والثلث للحواس الحية أى لمراقبة الحدود . والقسم الثالث لتعليم الصنعة المدنية التى يشتغل بها فى حياته المدنية احتسابا · فالطبيب يعالج بالمجان. والرباط هوالمستشفى . والكناد يصنع الكاغد بالمجان . فالرباط هو معمل للكاغد . والنساخ ينسخ الكتب بالمجان . فالرباط هو المعمل للنسخ . والطباع يطبع الكتب بالمجان . فالرباط هـو المطبعـة للكتاب . والبريدى ينظم البريد بالمجان الخ ··· وهذا مكن وجعل سلسلة ثقافية . تبتدئ من شمال الاندلس . وتنتهى فى دمشق . كما تبتدىء أيضا من مدينة لشبونه فى البرتغال · الى مدينة غانا . وهناك وسيلة أخرى لنشر الثقافة وهى الحج . هذا معلوم لدى الناس جميعا . خصوصا الذى يجب ان تعلمه ان صك السفر travel check يقابله عند المسلمين « المخطوط » حط فى مكتوبك عشر مخطوطات واخترها أن تكون من آخر ما ظهر .

واذهب الى الحج على بركة الله تعالى تفيد الناس بكتابك تبيعه ، وتشترى كتبا أخرى لا توجد فى المغرب ، صارت الكتب تتجول أكثر منمضيفات الهواء ، وهذا ما يفسر أن الكتب تتجول بسهولة تامة ، كما تمشى الدورة الدموية عند السليم • وهناك أمر آخر هو ما يسمى ، الذين يسمون الرهادرة ، أو الرهادنه ، وأقرب ترجمة لهم ما يسمى بالفرنسية Voyageurs de commerce الانسان الذى يسافر ويطوف بعربة يجرها حصان ، يسافر من أقصى الصين ، « وحيدة ، وحيدة !! » الى ان يصل الى نورنبيرغ ، وهو ينقل معه من مدينة كنطون ما يوجد فى الجالية الاسلامية الموجودة فى كنطون من أخبار وما ظهر من كتب ، وما ظهر من أنواع الحرير ، وما ظهر من أنواع الثياب ، فينتقل الى مدينة أخرى الى أن يصل الى البلاد العربية ، ثم الى أن يصل الى الاندلس ثم الى فرنسا ثم الى نورنبيرغ فى ألمانيا هؤلاء كلهم ينقلون الثقافة بسرعة البرق • والعامل الثالث هو وجود الاسواق الكبرى Les grandes foires ، سوق فينلندا ، وسوق هولندا ، وهلم جرا ، هذه الاسواق التى يعطى فيها المسلمون ـ لمن يريد ان يأتى اليها من النصارى ـ رخصا خاصة ، كما كانت تعطى الرخص فى جزيرة العرب أيام الاشهر الحرم ، هذا كان وسيلة كبيرة لنشر العلم والثقافة • بقى بعد هذا أمران : الامر الاول ، الثقافة الادبية ، فالموشح كان له فى الاندلس وفى جنوب فرنسا انتشار كبير ، وكذلك فى ايطاليا وألمانيا ، والموشح فى آخره توجد الخرجة ، وفى نظر غالب الناس أن الخرجة تكون باللغة الاجنبية للاقلية الساكنة للمسلمين ، وباللغة العربية للاقلية المسلمة الساكنة فى بلاد النصارى ، فالموشح فى جنوب الاندلس يكون باللغة الاسبانية ، وفى شمال الاندلس تكون الخرجة باللغة العربية ، وفى فرنسا كانت الخرجة بالعربية ، فالشاعر الفرنسى فى القرون الوسطى غيوم داكيتان Guillaume d'Aquitaine، عثر على موشح له ، خرجته باللغة العربية ، وعند الاتراك فالخرجة تكون بالعربية ، واذا كان فى البلاد العربية التى فيها أتراك كبغداد ، يكون الموشح بالعربية والخرجة بالتركية ، وكذلك بالاضافة الى الايرانيين وهلم جرا ••• هذا لان فى كل بلاد حتى فى دار الحرم هناك تعايش ، فالناس يعيشون (شوى شوى ، شوى لربى وشوى لقلبى) أحيانا مثل سى محمد على يدخلون فى خصومة كبرى انتهت الخصومة صاروا الى العادة الطبيعية ، وبذلك انتشر فن الموشح الذى غزا أوروبا كما غزاها فن الزجل ، وهذا بالاضافة الى شكل القصيد ، وبالاضافة الى وجود الموشح فيها ، ولكن هناك أمر حدث ، الاوروبيون كانوا يحتقرون المرأة ويتساءل فلاسفتهم القدامى هل المرأة انسان أو شيطان ، والسؤال مفتوح ، فجاء ابن حزم وكتب كتاب

« طوق الحمامة » الذى يمجد فيه المرأة والحب العذرى . وترجم هذا الكتاب على يدى مسلم الى اللغة الاسبانية وتحافظه الناس . فاذا بالمغرومين الاوروبيين مثل دانتى اليقرى Dante Alighieri عندما تغنى بحبيبته ، عمل أغانيه عليها بشكل موشح ، وكذلك بترارك Pétrarque كان يحج الى جنوب فرنسا ويتصل بالفرنسيين الذين هم فى جنوب فرنسا ويأخذ عنهم البلاغة وخصوصا طريقة التعبير على الحب العذرى . واذا قابلنا بين بترارك وابن زيدون نجد أن لبترارك أغانى خاصة . تقابل كل أغنية منها ما يوجد عند ابن زيدون : تخاصم ابن زيدون وولادة . فتخاصم أيضا بترارك وحبيبته . فكان ينشد الاماكن التى كانا يعيشان فيها . كما دار ابن زيدون فى الاندلس فى الاماكن التى كان يلتقى فيها مع ولادة . وذهب بترارك الى المقبرة . وصار ينشد أغانى . ــ وقد ترجمت هذه الاغانى من الايطالية الى العربية . (فى دراسة عن ابن زيدون وبترارك فى مجلة الثقافة المغربية) . حينئذ كانت العلاقات الثقافية كبيرة جدا . وترجم كتاب كليلة ودمنة وبعد هذه الترجمة ظهر فى فرنسا كتاب اسمه Le Roman de Renart أى قصة الثعلب ، وكليلة ودمنة هما ثعلبان أو ذئبان على الارجح . فنفس القصص الموجودة هنا ، نجدها هناك . ثم جاء السيد لافونتين وقال : والله يا سيدى هذى مانسيبها . وأخذ كليلة ودمنة ، La laitière et le pot au lait ثم قصة Les Animaux malades de la peste الموت والحطاب وهلم جرا . بحيث تلقى هذا كذاك . وجاء غيره وهو فيكتور شوفان والف كتابا فى خمس مجلدات كبار ضخام ، لا يستطيع العبد الضعيف أن يرفع واحدا منها . هاته المجلدات الخمس بعنوان : Livres arabes ou relatifs aux Arabes أى : (كتب عربية أو تتعلق بالعرب) . فان كان لافونتين أخذ هذه القصص ، فقد أخذها أيضا اثنان من شعراء الخرافات التربوية الاسبانية (سمانييدو أو الياتا) .

واذا كان الغزالى ألف قصة تصف مؤتمرا للانسان والحيوان ، فالحيوانات اجتمعت وأخذت تحاسب الانسان على تصرفه فى الحيوان . وأكثر من ذلك نشأ الزجل عند المسلمين وهو قصص غرامية قصيرة يكون حوارها أن المرأة اذا كانت مسلمة ــ فى رواية المسلمين ــ والذى أحبها نصرانى ، فهى تقول له : « اسلم تسلم أتزوج بك ! » . واذا كانت نصرانية والذى أحبها هو مسلم ، تقول له : « تنصر وأنا أتزوج بك » . ثم جاءت الملحمة . الملحمة الاولى هى ملحمة « جيلان دى كاسترو Guillèn de Castro التى هى السيد القامبيادور .

فأخذها كورناى ، ونسى جيلان دى كاسترو أن يذكر من أين أخذها ، وهو أخذها من نفس القصة التى ألفها ابن كربابوش التوزرى (المرجع Recherche littéraire et historique en Espagne) نفس القصة التى ألفها كربابوش التوزرى هى التى نجدها فى قصة جيلان دى كاسترو ، والاسبانيون مغرمون بالقصص التى يتغناها المسلمون من الناحية الدينية كقصة المولد النبوى أو كقصة المعراج ، وقصة المعراج ترجمت فى اسبانيا من العربية الى الاسبانية II ترجمة ، منها واحدة بقلم رجل مسلم ، وترجمت الى اللغة البروفانسانية I3 ترجمة ، وكان دانتى فى بروفانس (جنوب فرنسا) فعثر على ترجمة منها ، ففكر أن يؤلف كتابه La Divina Comedia الملهاة الالهية ، ففى الملهاة الالهية تجد مكتوبا بالحرف اللاتينى : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » وخاضت ايطاليا من أولها الى آخرها ، لانهم ظنوا أن ذلك شعر ، فما عرفوا أنه قرآن كريم ، الى أن ظهر ذلك بواسطة راهب ، فتبين أن دانتى هو أيضا أخذ هذه القصة ونسج عليها . ومن يسمون بشعراء Pleïade فى فرنسا ، يعنى رونسار Ronsard ، ودوبيلى Dubelly وغيرهما ، كانوا يستعملون البلاغة العربية الى درجة أن أحد النقاد الفرنسيين فورتنيس ستروفسكى ألف كتاب : « البلاغة وكبار البلاغيين » . La rhétorique et les rhéteurs

وذكر منهم رونسار وغيره ، فهؤلاء فى القرن I6 وكانوا كلهم يأتون بالصور البلاغية والاساليب البلاغية حتى فى أشعار دانتى « حبيبتى فياتريتشى » وبيترراركا بالنسبة الى حبيبته « لورتى » . هؤلاء الشعراء مثل شعراء بغداد ، وشعراء الجريد فى تونس ، كانوا يصطحبون الربابة ، وكانوا يستعملون نقارات ، وهما طبلتان صغيرتان ، احداهما «تيك» والثانية «دوم» أى واحدة خفيفة والاخرى ثقيلة ، وهاتان الآلتان بقيتا فى فرنسا الى الآن فى جنوب فرنسا .

بقيت قضية العود التى تكلم عنها أستاذنا الكريم ، آخر عهد للعود هو على عهد لويس الرابع عشر حينما كان عواده « لولى » ولولى هذا ، هو أول من عدل عن الموسيقى العربية وكون الموسيقى الاوروبية التى لم تبعد كثيرا عن الموسيقى الاوروبية العربية ، ولكن ما ربحه الفرنسيون من ناحية خسروه من ناحية أخرى ، لان الاتراك ارسلوا الى ملك فرنسا فرانسوا الاول طاقما من الموسيقى العسكرية بطمبورها وبالهوى الناى أو سورناى ، فهاته الفرقة جاءت مع ذيل الحصان التركى ، وجاءت مع القبعة التركية المغولية ، وجاءت مع الطمبور الى غير ذلك . (الوقت لا يتسع وأظننى أطلت ، ولا أدرى

هل لى الحق فى الزيادة أم لا ، لان هناك نقطتين ، لكن أرجئهما الى مرة أخرى ، وأشكر مرة أخرى الاستاذ الكبير ، واذا قلت هذا فلانني لا أستطيع أن أقـول انى أعـرف أكثر منه) (طلب منه أن يزيد فزاد) .

بقى أمران اثنان : انتقال الموسيقى العربية الى أوروبا ، الموسيقى العربية هى أولا التحول ، أى ما يسمى بالنوبة عندنا ، والدور فى الشرق ، يعنى أنـه مركب موسيقى ، يتركب من ثلاثة أشياء ، يتألف منها الشعر العربى ، القصيدة تبتدىء بأبيات ما تسمى : « رومى الابيات » ، ثم « موشح » ، ثم « زجل » ، هاته الاقسام الثلاث تتكون منها النوبة ، ثم أن النوبة تتكون من مفارقات فى السـرعة : « البطـايحى Modérator » « البرول l'aculérato » ، الهروب Fugue » لست أدرى لماذا يسمونه « فـوجه » بالعربية ، ويسميه ابن سيده ــ الانسياب ــ ، وهذا يسمى النوع من الترتيب الشعرى الذى ينبنى عليه ترتيب موسيقى أيضا ، يسمى بالاسبانية (Brondo) بروندو ويسمى بالفرنسية « Rondo » حينئذ ، هذا التأثير الاول . التأثير الثانى خرجنا بالموسيقى مـن الغراميات السفلى الى الغراميات المترفعة ، يعنى الى طريقة ابن حزم ، ثم بعد ذلك دخلت الآلات العربية العود والرباب والكمان الذى صار فى حقبة ما من تاريخ تطـوره « الماندولين » ، ثم الشطحات ــ الرقص ــ حتى رقص الدين ، فالرقص العربى انتشر فى الانـدلس بنفس الوسائل وبنفس الثياب الراقصة أيضا ، وبنفس الشقشقات الى غير ذلك ، ثم جاء الرقص الدينى،والرقص الدينى جاء على الخصوص عندما انتصرت الشاذلية فى الاندلس ، فجاءت الرقصة الشاذلية الكبرى ، الشاذليون عندما يتوجهون الى الخالق بالابتهالات ، يقولون : « الليه الليه الليه ...؟ » لا يقولون « الله » بل يقولون « الليه » ، والاسبانيون يقولون « أولى أولى » بمعنى الاستحسان أو الاستحباب ، ويقولون « أولى » أيضا فى رقصة خاصة تسمى « خورطه » بالاسبانية ، جاءت من كلمة الشطحة ، يشطحون ويقولون « أولى » وكثيرا من الشطحات فى فرنسا ، فى الاندلس هى من هذا النوع ، ثم شىء آخر جاء « ريبيرا » وأراد أن يبـين أن الاغـانى الكنائسيـة الكبـرى التى تسـمى بـ «شانط غريغوريا» Le chant grégorien هى ليسـت أغـانى كنائسيـة بـل هى مأخـوذة مـن المدائـح الدينيـة الاسـلامية ، وألـف كتـاب (لاموسيـكا دو لا سكامبيكاس) « موسيقى الاغانى الدينيـة » وبـدأ بألفونس العـاشر المسـمى بالحكيـم أو العـالم وأخـذ الصـور التى جمع لها الفونس الحكيم العرب واليهود والنصارى لكى يؤلف كتابا فى تطور الموسيقى ولا سيما فى تطور التصوير الموسيقى ، يعنى الترقيم الموسيقى ، فتبين بمقابلة الصفائح

من عصر ألفونس العاشر فى القرن الثالث عشر الى القرن السابع عشر أن الترقيم الموسيقى هو ترقيم عربى ألفا بسيطا(ا)يعنى DO-RE-MI-FA-SO وأن ما يسمى بالقو DO-RE-MI-FA- تسمى القوءلان : 7 وتدخل فى 7 ثانية ألف ـ بسيطا ـ غما DO - RI - MI - FA - SO ترجع DO فى مقام الثانية هذه تسمى بالعربية الجمع فاذا فرضنا أننا نقرأها كالمصريين فصارت « جمع » . فاذا فرضنا أن الاوروبيين يقرأون كلمة جمع فتصير جام gâm لم يقل ذلك عثمان الكعاك بل قال ذلك فارمور Farmer فى دائرة المعارف الاسبانية « وفى دائرة المعارف الاسلامية » فى كلمة Gâm وقع شيء آخر ما يسمى بالمدجنين ، والمدجن . بدأت La Reconquista أى حرب الاسترجاع ، وكلما يسترجع الاسبانيون مدينة ، ابتداء من الشمال ذهابا نحو الجنوب ، الا ويقولون : « براني على برا ! دام الفرح ، وفى العرس ، وفى المرء ، كل حديث يدبر » الا وعدا وحاشا ، الا الحدادين والنجارين والبنائين والمعماريين والملاحين والموسيقيين والاطباء الى غير ذلك . هذا شبيه بما عندنا فى المغرب الآن ، ونسميهم « المتعاونين Les coopérants » ، فهؤلاء المدجنون كانوا أولا فى تأليف الشعر الدينى ، يعطى لهم الموضوع ، وهم يؤلفون الشعر الدينى باللغة العربية أو الاسبانية على طريقة الزجل والموشح ، ثم يلحنونه بحيث الى حد القرن 17 ذكر ريبير فى كتابه هذا ، وأعطانا أسماء 150 موسيقى كانوا يؤلفون الشعر للكنائس .

فالدكتور احسان عباس ـ حفظه الله ـ الذى كان يقول انه لا يعرف شيئا من هذه الاشياء ، قد اكتشف لنا فى كتابه « تاريخ الادب الاندلسى » الجزء الثانى ، كيف كان باعة الجوارى المغنيات ، كانوا يبيعونهن الى بلاطات الامراء والملوك من النصارى ، هذا فى كتابه ، ولم أزد شيئا عنه .

والآن عشر دقائق على موضوع آخر ، هو موضوع المعمار فى الاندلس ، المعمار فى الاندلس هو سلسلة انتقالات ، فالمرحلة الاولى هى جامع القيروان الذى لا يمت بنسب الى الكنيسة ، أحب جورج مارسيل Georges Marcel أم كره ، ولا يوجد فى أى جامع أكان جامع القيروان أم جامع قرطبة آية نسبة للنصرانية ، مارسيل يقول : « ان بلاطة المحراب هى أعرض ، وأن مسكبة المحراب التى هى أمام المحراب أعرج » ، هذا لا يوجد الا فى الجوامع الاميرية ، لان السيد الامير يأتى بحشمه ووزرائه وجنوده ، فينبغى أن تكون البلاطة أعرض (البلاطة هى الممشى الموجود بين الباب والمحراب) ، وكذلك عندما يريدون أن يسجدوا فيجب أن يكون المكان رحبا ، فليس هذا شكلا صليبيا ، هذا أدب ، أدت اليه الحاجة

بدليل أنه اذا انتقلنا الى جوامع ليست بأميرية ولا يأتيها الامير ، فجميع البلاطات ، وجميع المساكن هى متساوية ، هذه فرية طرحناها . ويقولون دائما : « ان المسلمين يسرقون أعمدة الكنائس ، ويسرقون أحجار الكنائس ويبنون بها الجوامع » . فى جامع القيروان يا سيدى تجد أعمدة للجامع وتجدون رؤوس الاعمدة بصيغ غير الصيغ الموجودة عند الرومان ، فعند الرومان رأس العمود يكون بورق الأقامبى ، أى بورق الخرشوف ، وعند الاغالبة يكون بورق العنب ، يكون من الداخل مفرغا بحيث يمكن أن نضع شموعا هناك لتكون الاضاءة المختلفة الالوان ، وينطبع شكل الورق على الجدار بألوان مختلفة .

ثم أن المسلمين أدخلوا الى الجامع ــ ولم يكن موجودا فى الكنيسة ــ المحراب ، أولا لتمييز الامام ، لان عندنا الامام والمأموم ، المهم أن المأموم يرى الامام حيثما كان ، فجعلناه فى المحراب كما نجعل قائد جيش فوق الحصان يمشى فى الامام ، والمحراب له صفة سماعية، وهو أنه يضاعف كم من مرة ، ويضخم الصوت ، كنا يوم الجمعة فى جامع الباى[1] ، ورفعت رأسى فرأيت فيه قببا كثيرة ، اذا تكلم الامام يكون هناك دوى،تردد أصوات عجيبة ، وكذلك فى الجوامع الاندلسية ، هذا دخل الى الكنيسة ، والشيء الثانى الذى دخل الى الكنيسة هو المنبر الذى اذا ذهبنا الى مدينة رافيلو باسبانيا نجده قد صنعه المسلمون وكتبوا عليه بالكوفى . والشيء الآخر هو قبة المحراب ، الرومان واليونان لم يعرفوا القبة ، لم تكن القبة موجودة ، كانت توجد قبة بسيطة فى جنوب الجزائر ــ فى مدينة تبسة ــ فى باب كركلا (2) ، فأخذها المسلمون وزادوا عليها وبنوا قبة ، والقبة بنوها لامرين ؛ الامر الاول تضخيم الصوت ، والامر الثانى ليرسلوا نورا على رأس الامام ، ويبقوا بقية المأمومين بدون نور ، عندما تكون هناك محاضرة ، يكون الظلام من ناحية والضوء من ناحية ثانية ، تكون هناك رواية ، المسرح يكون فى الضوء وبقية المتفرجين فى الظلام وهلم جرا ، فأخذت الكنيسة قبة المحراب . بقيت الجوانب اليمينية واليسارية من الجامع ، قليلة الاضاءة ، فجعلوا لها ما يسمى بالشمسية أو بالقمرية أو بالقوة ، ويسمى بالفرنسية Vitraux أعنى شباكا من الجبس ، نخرمه حتى نبنى فيه أشكالا هندسية أو أشكال زهور أو أشكال بشر ، ونرصعه بالمع الالوان التى يقتضيها الحال ، وتصير تلفزة ملونة ، فترسل نورا لطيفا تأتى عليه الشمس وتطبعه فى الجدار فكأنه صورة تدعو الى التأمل ، كل هذا قد ذهب الى أوروبا ، فالفيترو ، هذه القوة الموجودة فى قبة القيروان التى أنشئت فى القرن التاسع نجدها لاول مرة فى كنيسة « نوتردام » دو باريس فى القرن الحادى عشر ، فجامع القيروان انتقل

(1) فى عنابة . (2) Caracalla

بحذافيره الى جامع قــرطبة ، وجامع قـــرطبة انتقل بحذافيره الى قبر الحوارى النصرانى « سان جاك دوكوميوستال St Jacques de Compostel » القديس يعقوب كونشتالى فى الشمال الغربى من الاندلس ، وقالوا للبنائين المدجنين المسلمين ، نريد أن تبنوا لنا الكنيسة مثل جامع قرطبة ، فبنوا لهم كنيسة كجامع قرطبة ، هى جامع ، ولكن زادوا عليه الصليب ، وفى جامع سوسه بتونس توجد كتابات بالكوفى فيه السيادة للاسلام ، وللعلم الاسلامى وللبنك العلمى الاسلامى الذى تحدثنا عنه ، لاننا نريد أن نأخذ مكاننا من الشمس ونريد أن نشترك مع أوروبا ، النصارى يقولون"العلم العربى ليس هو علم ! النصارى عندهم علم"! كانوا يتعاونون على الترجمة • السريان والصابئة والنساطرة والمروئيون أنفسهم يتعاونون على الترجمة ، ترجمت الكتب الى العــربية ، وازدهرت الثقــافة ، ومــا قــالوا «فك ثورك من ثورى شبعنى الحرث الا هذا البحث » ، وفى الاندلس مثل الشرق ، يــوم كان الاسبانيون يكتبون بالعربية ، ويشاركون فى العلوم العربية ، ولما كان بلاط ألفونس العاشر يزدهر بالعرب العلماء ، واليهود العلماء ، وبالنصارى ، كانت الامـــور ماشيــة ، (قال ايزى الزاى ، العرب روحوا على ريحاتهم والعلم تأخر شوى) هل نريد من جديد أن تزدهر دولة العلم؟وهذا على هذا الشباب ليس بعزيز وخصوصا اذا تكون فى نفسه أنـــه صاحب عقد مشاركة ، أنه شارك فى دولة العلم بقسط كبير ، حينئذ تشتد همته ويعتــز ويقـــول :

« نبــنى كما كانت أوائلنــا تبــنى ونفعــل خـيرا مما فعلــوا »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (I)

(I) كانت هذه الكلمات آخر ما تفوه به فقيدنا الكبير وآخر ما سمعه منه الملتقى من المنصة ، حيث توفى ، رحمه الله ، فى الليلة نفسها ، نحو الثالثة صباحا ، حسب تقديــر الطبيــب •

ونداؤه هذا الى الشباب أخذ بعد وفاته نغمة وصية • هل تسمع ؟

عثمـــان الكعـــاك

علــم مــن أعــلام الاســلام والانسانيــة الخالديــن

فقدت الامة الاسلامية،والانسانية عامة ، بوفاة المغفور له الاستاذ العلامة عثمان الكعاك، علما من أعلامها المرموقين ، وعبقرية فذة من عبقرياتها التى ساهمت بقسط وافر فى بناء صرحها الثقافى ، وجنديا ثقافيا ملتزما كما كان يقول لنا ــ رحمه الله ــ فى كل مرة نطلب منه القاء محاضرة ، أو كتابة دراسة :

لقد كان الفقيد لا يعرف الراحة ، وقد ذكر لنا الاستاذ الصادق بسيس،أحد الاساتذة التونسيين فى الملتقى،انه بعد الرحلة فى الحافلات الى مدينة القالة وبعد الغداء جاء وقت القيلولة سأله الاستاذ بسيس هل أخذت غرفتك لراحة القيلولة ؟ فأجابه المرحــــوم : "الآن اشتغل ، أما الراحة فلدينا متسع لها من الوقت فى القبر". وان شماره الدائـــم : العلم والبحث المستمر والحوار مع الجماهير بالاتصال المباشر من خلال محاضراته العمومية، أو بالتآليف،أو عن طريق أجهزة الاعلام المختلفة .

ولقد كان من اهتماماته غرس روح البحث وحب المعرفة والتفتح على ثقافة الغير فى نفوس الاجيال الجديدة .

لقد أحب الفقيد الجزائر وناضل من أجل ابراز أصالتها التاريخية والثقافية والحضارية التى عمل الاستعمار وبعض الجاحدين الحاقدين من أبناء ملتنا على تشويهها وحتى انكارها . فقد ألف عن الجزائر كتابا تاريخيا عنوانه : « موجــز تاريخ الجزائر » ، وكتابا عنوانه : « بلاغة العرب فى الجزائر » ، فضلا عن « تاريخ البربر » الشامل لبلدان المغرب كلها .

وتتلمذت على يديه مجموعة كبيرة من الجزائريين لا تزال تذكر بحب وتقدير ما كان يبثه فيهم من حماس وطنى وما كان يكن للجزائر من عواطف تفيض بالحب والاخلاص .
وبعد استقلال الجزائر كان الفقيد يحرص ابتداء من الملتقى السادس للفكر الاسلامى سنة 1392 عــلى حضور جميــع الملتقيات التاليــة التى تنظمهــا وزارة التعليم الاصــلى والشؤون الدينية ، ويساهم فيها مساهمة فعالة . وكان لا يتردد فى قبول الدعوات الكثيرة والملحة من طرف المواطنين والمثقفين فى المناطق الجزائرية الاخرى لزيارتها والقاء محاضرات فيها مهما كانت نائية .

ان مناقب فقيدنا الكبير أكثر من ان تعد أو تحصى . انه موسوعة يعز على الدهـــر ان يجود بمثله ، خاصة فى عالمنا الاسلامى المقفر ، المدقع ، المفلس !

رحم الله فقيدنا الكبير رحمة واسعة والهم اسرته والاسرة الادبية والعلمية فى مغربنا والعالم الاسلامى الاوسع ، بل والانسانى عموما ، عزاء وسلوى .

« الأصـــالــة »

تأبين المرحوم عثمان الكعاك في قاعة الملتقى

اثر سماع خبر وفاته (I)

خبر مفجع لدينا

ان أحد رجال الثقافة العربية الاسلامية ، بل والثقافة العالمية ، وهو الاستاذ الكبير عثمان الكعاك ، أصبح منذ بضع ساعات فى ذمة الله ! رحمه الله ، وعوضنا جميعا بأمثاله !

انه رحمه الله كان يشارك فى ملتقيات الفكر الاسلامى بانتظام منذ الملتقى السادس سنة 1392 هـ ـ 1972 م حتى الآن ، وكان يبقى كل مرة بعد الملتقى ليجوب مختلف جهات البلاد ، من القالة حتى مغنية ، ومن العاصمة حتى ورقلة ، بدون كلل أو ملل ، يلقى المحاضرات ويدير المناقشات عن تاريخ الجزائر ، وتاريخ الاسلام عموما ! وكان يحرص فى طريقه الى المدن المختلفة على أن يتوقف فى أصغر القرى ليجعلها تنال نصيبها من ذلك النشاط الثقافى الخصب الذى كان يقوم به ، وهو دائرة المعارف المتنقلة والمكتبة الفسيحة الارجاء ، المتنوعة الغنية ، والمعين الذى لا ينضب !

انها لخسارة كبرى لنا جميعا ! رحمه الله !

(وقد تليت هذه النبذة مع الفاتحة ، والملتقون جميعا،أساتذة ، وطلبة ، وصحافيين ، وجمهورا ، واقفون !) .

(I) وقد نزل هذا الخبر كالصاعقة فى قاعة الملتقى فى اللحظة بالذات التى كان من المنتظر ان يصعد فيها الفقيد الى المنصة ليلقى محاضرته .



لحظة تلاوة الفاتحة فى قاعة الملتقى على روح الفقيد عند اعلان نبا وفاته · وان الجمع الذى وقف هنا والمتمثل فى العالم الاسلامى الواسع وفى غير العالم الاسلامى شرقا وغربا ليرمز الى الطابع العالمى لثقافة الفقيد ·

برقية تعزية من المشاركين فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى

الى عائلة الفقيد

بكل أسى ينعى اليكم المشاركون فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى المنعقد حاليا بعنابة الفقيد العزيز عثمان الكعاك أحد رجال الفكر الاسلامى العظام، وأحد أفذاذ علماء الامة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا.

اننا اذ نقدم اليكم تعازى جميع المشاركين فى ملتقى الفكر، نعلن لكم تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل الذى ألم بالامة الاسلامية فى أحد أفذاذها، ومشاركتنا لكم فى الاسى، نسأل الله لكم الصبر والسلوان، وللفقيد فسيح الجنان.

برقية تعزية من المشاركين فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى

الى السيد وزير الثقافة بتونس

بكل أسى ينعى اليكم المشاركون فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى المنعقد حاليا بعنابة الفقيد العزيز عثمان الكعاك أحد رجال الفكر الاسلامى العظام، وأحد أفذاذ علماء الامة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا.

اننا – اذ نقدم اليكم والى الحكومة التونسية والشعب التونسى الشقيق تعازى جميع المشاركين فى ملتقى الفكر – نعلن لكم عن تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل الذى ألم بالامة الاسلامية فى أحد أفذاذها، ومشاركتنا فى الاسى، نسأل الله لكم الصبر والسلوان وللفقيد فسيح الجنان.

برقيــة تعزيــة من وزيــر التعليــم الاصـــلى والشـؤون الدينية الى عائلـة الفقيــد

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ينعى اليكم ـ بكل أسى ـ الفقيـد العـزيز عثمان الكماك ، أحد رجال ملتقيات الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامـة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا ٠

واننا اذ نقدم اليكـم تعازينا وتعـازى جميع المشاركين فى الملتقى العاشر للفكـر الاسلامى المنعقد حاليا بعنابة ، نعلن لكم عن تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل ومشاركتنا فى الاسى ، ونسأل الله لكم الصبر والسلوان ، وللفقيد فسيح الجنـان ٠

مولود قاسم نايت بلقاسم

برقيــة تعزيــة من وزيــر التعليــم الاصـــلى والشـؤون الـدينية الى السيد وزير الثقافة بتونس

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ينعى اليكم ـ بكل أسى ـ الفقيـد العـزيز عثمان الكماك ، أحد رجال ملتقيات الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامـة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا ٠

اننا ـ اذ نقدم اليكم والى الحكومة التونسية والشعب التونسى الشقيق تعازينا وتعازى الحكومة الجزائرية والشعب الجزائرى ـ نعلن لكم عن تأثرنا العميق بهذا المصاب الجلـل الذى ألم بالامة الاسلامية جمعاء فى أحد أفذاذها ، وعن مشاركتنا لكم فى الاسى ، نسأل الله لكم الصبر والسلوان وللفقيد فسيح الجنـان ٠

مولود قاسم نايت بلقاسم

الأبعاد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعبادات وأهميتها لكل من الأمة والفرد [1]

عثمان الكعاك

مؤرخ ـ تونس



هذه صورة للفقيد اخذت له بساعات معدودة قبيل توقف قلبه ووفاته.

المواطن المسلم أراده الله كاملا : روحيا ، واحساسيا، وبدنيا ، وعلميا ، وفنيا ، وأدبيا ، واجتماعيا .

أولا : البعد الروحى

أ ـ الصلاة :

اذا قال المسلم الله أكبر ، ورفع يديه نثر وراءه الدنيا وما فيها ، ولم يعد يتصور الكبرياء الا لله تعالى، فيحقر كل ما وكل من دون ذلك .

فهذه تربية وعقيدة وتصور يتربى عليها منذ السابعة من عمره الى أن يلاقى وجه الله تعالى .

ثم اذا قرأ الفاتحة ، قال الحمد لله ، فلا شكر الا لله ، لان النعم كلها والخير كله بيده ، فهو المعطى والمنعم والهادى وكل من هو غيره فهو معط باذنه ومنعم باذنه وهاد

(1) هذه المحاضرة لم يلقها فقيدنا الكبير لانه توفى قبيل موعد القائها ببضع ساعات . وعوض القاء الفقيد محاضرته القى رئيس الجلسة خبر وفاته .

باذنه • ربى ان الهدى هداك ، ومن اعتصم بغير الله ذل • ذلك لان الله رب العالـمين لا رب غيره ، ولا معبود سواه • واذن فقد شفانا من عبادة البشر Anthropolâtrie ومن الاشراك به ومن تعدد الآلهة ومن الاسرار الخفية ، التى لا يسلمها العقل ، **الاه له ولة أو بقرة الاهة أو الاه يحب القرابين** • قال أبو العلاء المعرى :

عجبـــت لكسرى وأشيـاعـــه ... وغســل الوجـــوه ببــول البقـر

وقـــول اليهـــود الاه يحـــب ... أصيص الـــدمـاء وريـــح القتـــر

وقـــول النصـــارى الاه يضـــام ... ويقتـــــل حيـــــا ولا ينتصر

فواعجبـــا مـــن مقالتهـــم ... أيعمى عـــن الحـــق كـــل البشر ؟

هذا الاه ملء بالرحمة ، رؤوف بعباده ، يفيض عليهم سحائب رحمته ، وشآبيب رضوانه ، وهو مالك يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم • فهو الديان الاعظم ، يوم القصاص الاكبر والحساب الاعظم • فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يـــره ، ومن يعمل مثقـال ذرة شرا يـــره • لذلك جعـــل الاســـلام المحاسبة Examen de conscience ويفسرها الغزالى بأنها محاسبة يومية كمحاسبة التجارة والمداخيل والمخاريج ، فهو عند المنام ينظر فى ضميره فيحصى ما تم على يديه من حسنات، وما فيه من محاسن ، وما تم من سيآت • وما اكتسبه من مساو ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فيجعل عمودا ايجابيا وعمودا سلبيا وعمودا تفاضليا ، ثم يرسم السيآت فى رزنامة ليمحوها منها فى اليوم ، وفي الاسبوع ، وفى الشهر ، وفى السنة ، حتى يقضى عليها • ولاجل تقوية نفسه على الطاعة يستعين بالله وبمطالعة القرآن الكريـــم مع تفهمه ، والاحاديث الشريفة التى هى منبع الخيرات ، وكنز الاخلاق وروح التربية وهى لا ينضب معينها ••• ترسم لنا المحجة فى الحياة فى هذه المعادلة العجيبة الكاملة المغرية : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا • وقال تعالى : ولا تنسى نصيبك من الدنيا • وقال الشاعر :

ما أحســن الديـن والدنيـا اذا اجتمعا ... وأقبـــح الكفـر والافـــلاس بالرجل

ـ **اياك نعبـــد** • أى لا نعبد الا الله ولا نشرك به أحدا من الاصنام ، أو الكواكب، أو بنى الانسان • واذن فقد زال عن المواطن مركب الرعب من الطغاة الجبابرة •

ـ **واياك نستعـــين** • أى لا نستعين على مصائبنا ومشاكلنا الا بالله سبحانـــه وتعالى ، فنعتصم به ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فتذهب ريحكم • ومن اعتز بغير الله ذل • فهو الذى يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم والعياذ بالله ، ولا الضالين • اذا أمعنا النظر فى هذه الســـورة وجدناها أم القرآن حقا ، لذلك جاء وجوب استعمالها فى كل ركعة ، وفى كل مناسبة من مناسبات الحياة ، مثل الزواج ، والصفقات ، والترحم على الموتى وغيرها •

وأما الصوم فهو رياضة روحية كاملة • لا سيما صوم الخصوص ، فهو صـــوم العين عن النظر الى حريم الناس ، والكشف عن أسرارهم ، والتعرض لاحوالهم ، والتطلع الى ما لا يريدون أن يعرفه الناس عنهم فيجب أن يصوم عينه عن زنا العين ، وعن كشف الستر :

فان ستـــروا عنى ستـــرت دونهـم وان بحثـــوا عنى ففيهـــم مباحـث

وجعل عينه تفطر على قراءة القرآن فى العشايا ، والليالى ؛ وسماع اختتام الحديث ، والنظر الى المشمومات ، وجمال الطبيعة ! تصوم أذنه عن سماع الكذب والافتراء والوقوع فى أعراض الناس ، والنميمة ، والتمشى بين الناس بالفتنة • ثم تفطر أذنه عن سماع القرآن ، والحديث ، والقصص الطيبة ، والموسيقى الدينية الرائعة ، وتاريخ الاسلام المدهش ، وعلى بث السلام بين الناس ، والقول الطيب ، والكلمات المعسولة الصادقة • قيل للجمل كيف تاكل « ضلف الهندى وفيه الشوك قال : الرطوبة فى اللسان • ويقول المثل التونسى « الكلام الحلو يندفع فى الدين » والى معندوش عسل فى أركانو يحطو على طرطوشة لسانو» ويقال فى العراق «الكلام الحلو يخرج الافعى من زاغوريها (غارها)» •

والحـــج : هو تطهير لما فى العقل من جهل وأوهام • فالحاج اذا كان طالبا وهذا أكثر ما كان يكون فى السالف ينتقل من مدينة الى مدينة فى طلب العلم من الاندلس ، الى المغرب ، الى الجزائر ، الى تونس ، الى ليبيا ، الى مصر ، الى الحجاز ، الى الشـــام ، الى

فلسطين ، الى العراق ، الى ايران ، الى ما وراء الهند ببيـــع travel check الـذى هـو المخطوط العربى النادر ، الجديد الظهور • ويشترى ما ظهر فى الشرق ويأخذ الاجازات ويحضر الملفات ثم هو يعرف جغرافية العالم الاسلامى ؛ جباله ، وسهوله ، وصحاره ، وبحاره ، وبحيراته ، ومدنه ، وقراه ، وباديته ، وسكانه ، من بيض وسمر ، وســود وحمر ، وصفر ، يتكلمون لهجات عربية مختلفة ، أو لغات اسلامية من أعجمية أندلسية أو بربرية أو تركية أو ايرانية أو كردية أو هندونيسية أو سودانية وغير ذلك • فيرجع عالما بعلم المسلمين والعلوم الدخيلة، ويتحول دماغه الى متحف بشرى كامل القوة والعدة. فهذا كسب روحى تزول به الاوهام ، والتصورات الخاطئة ، والاحكام المسبقة • والاسلام وضع علم التصوف من نثر ، وشعر ، وخرجات ، وحلقـات ، ومـدائح ، وجـزيات ، وشطحات ، وكلها ترمى الى انصراف القلب الى الله وحضور الحضرة التى تكون فيهـا حضرة الجلالة فلا يراها الا المكاشفون ؛ لكن يتطهر فيها الحاضرون •

والشعر التصوفى كرائية شيخ العشاق عمر بن الفارض .

شربنــــا عــــلى ذكــر الحبيب مدامة   سكرنـا بهـا مـن قبل أن يخلق الكرم

هى ملحمة تصوفية رائعة •

وما قرأت بالفرنسية أجمل من : Dermenghem - L'Eloge du vin وهو كتاب صغـير وجليل يشمل مقدمة سليمة فى التصوف الاسلامى • ثم ترجمة الرائية مـــع شرح النابلسى عليها ، فاعتقد أن مطالعة ذلك يدعو الى تطهير النفس من أدرانها ، وتطهـير العقيدة من المشكوك والارتياب ، والمذاهب المستوردة التى ما أنزل الله بها من سلطان• ولجمال التصوف الاسلامى الذى هو مغذ أحسن تغذية روحى ليست فيه مكروبات الشك ولا السر الذى لا يقبله العقل كالافخارستية التى هى أكل لحم يقرأ عليه القسيس وشرب خمر يقرأ عليها القسيس واعتقاد أنهما لحم عيسى عليه السلام ودمه • وهـذا بهتان وتأويل سىء لقول عيسى : كلوا واشربوا هذا لحمى ودمى فانما أرادها على المعنى المجاز أى أن هذا طعامكم المادى والروحى ، وهذا شرابكم المادى والروحى ، فالله أعطاكما الخبز وهو أجل طعام حتى أننا نسميه فى تونس « نعمة ربى » وهو معنى لطيف جـدا

يدل فى عبارة مختصرة على معنى عظيم • فلا ننسى أن 60 بالمائة من البشر يتضورون جوعا ، فاذا وجدنا نعمة ربى فقد وجدنا خيرا كثيرا • ونسمى العمل فى تونس « الخبز » بحسب ما يؤول اليه « انى أرانى أعصر خمرا » •

ولما رأى النصارى أن النصرانية التى آلت لديهم الى ما آلت اليه أقبلوا على دراسة التصوف الاسلامى فترجم المنقذ من الضلال للغزالى الى اللاتينية فأخذ منه ديكارت قوله : الشك أولى مراتب اليقين Le doute est le premier pas vers la certitude وأخذ منه منهاجه . وكلمة Discours بمعنى منهاج، الى غير ذلك . وأخذ St François de Salles من احياء علوم الدين كتابه Introduction à la vie dévote الذى كان ترجمة للاحياء ، وأخذ القديس طوماس الاكوينى St Thomas d'Acquin الطريقة الشاذلية بالاندلس التى انتشرت هناك لدى المسلمين ، فأخذها النصارى من الاسبان والبرتغاليين ، حتى أن الرقصة التصوفية لديهم تسمى Holé برنة خاصة ، وهى آلهة الشاذلية التى تنطق « آليه » بتفخيم اللام وجاء Miguel Palacios ألف كتابه العظيم عن تأثير الشاذلية على الطوماسية ، وهو كتاب يجب أن يترجم الى العربية ، ونفس الافلاطونية الجديدة التى ترمى الى التوفيق بين الدين والعقل ؛ فان الاوروبيين لم يأخذوها مباشرة عن أرسطو . ولكن عن ترجمة أرسطو وشرحه لفيلسوفنا المغربى العظيم ابن رشد وهذا موضوع درس ومفروغ منه •

والحج هو تطهير دينى ، فالانسان يتغذى من مناهل الاسلام الاول ، ويشاهد الروضة الكريمة ، وينجذب لديها ، وتذرف عيناه ، ويتطهر من ذنوبه ، ويسوى قضاياه ما بينه وبين ربه . وبينه وبين الناس ، فيروه طاهرا كيوم ولدته أمه •

والحياة الروحية فى الاسلام لا تتناول الفرد فقط بل تتناول الاسرة ، وهى عالم الانسان الخارجى الصغير ، والخلية الاجتماعية الاولى « وجعلنا بينكم ودادا ورحمة » • والمرأة هى أمنا ، وزوجنا ، وأختنا وبنتنا ؛ فتلتقى فى نفوسنا منها محبة الام ، « وبالوالدين احسانا » ، ومحبة الزوج « وجعلنا بينكم ودادا ورحمة ومحبة الاخت » •

أخاك أخاك ، ان من لا أخا له كساع الى الهيجاء بغير سلاح

وقول المثل التونسى « خوك خوك لا يغرك صاحبك » لذلك يجب أن نصون هـذا الكائن الضعيف الذى أوصى به النبى (صلى الله عليه وسلم) مع العبد ، « أوصيكم بالضعيفين : المرأة والعبد » وعندنا قصة تونسية نوردها لطرافتها : كان رجل عـلى أبواب الموت فأوصى ولده : « واذا لزم باش تضرب مرتك ما تضربها الا بعد ما تكتفها من الاربعة ، وجب أن يضربها ، فى نظره على الاقل . فاستشار شيخا كبيرا كان صديق والده كيف أكتفها من الاربع ؟

قال : بأن تلد معك أربعة أولاد • وهذه حكمة كبيرة •

ثم ان الروحيات تتناول المجتمع الاسلامى كله ، فالمسلم حر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » والمسلم متساند متراص مع أخيه المسلم • المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا • لذلك جاء الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالمسلم مسؤول عن المسلم فى دينه ودنياه وهو نصيحه فى الاثنين . لان النصيحة من الايمان • وعلى هذا المبدا قامت سياسة الدولة الموحدية فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الواجب على كل مسلم ، ليس من خصوصيات الامير وحده ، أو المحتسب فقط ، على أن المحتسب هو عون تنفيذ ، ويحتسب على من جل وعلى من قل ؛ فهو يحتسب على الامير وعلى القاضى ، وعلى الامام ، وعلى الاسواق ، وعلى المكاييل ، والمقاييس ، والموازين ، والغش والسعر ، لذلك سمي فى الاندلس صاحب المدينة ، أى هو البداية والنهايـة من حياة المدينة ، فى بيوتها وأسواقها ، ورحابها ، وحراستها ، ومبيعتها ، ونظافتها المادية ، والادبية ، وسلامة عامة أمورها •

وألفوا فى ذلك كتب الحسبة العامة والخاصة ، وكانت الحسبة مدمجة فى كتب الفقه ، فاخرجت منها ، وأفردت بالتآليف كمعالم القربى فى الحسبة لابن الاخوة الاندلسى وكتاب الحسبة للسقطى ، وكتاب الحسبة لابن عبدون ، ثم أخرجت من الحسبة أحكام خاصة ، كاحكام السوق ليحيى بن عمر دفين سوسة ، وترتيب السماسرة للابيانى دفين حمام الانف ، وكتاب المعلمين لمحمد بن سحنون ، وكتاب المعلمـين لابى الحسن القابسى ، وأحكام البناء لابن الراعى الاندلسى ، وآداب القضاة لكثيرين ، وآداب الوكيل

لعيسى بن مسكين ، وهو أول كتاب فى القانون الاساسى للمحاماة ، ألفه عيسى بن مسكين سنة 294 هـ، ثم حتى الملوك لم يطلقوا على عواهنهم، فألف الطرطوشى الاحكام السلطانية، وألف أبو حمو موسى الثانى ملك تلمسان أجل كتاب فى سياسة الملك ، وتولد من ذلك فى أوروبا أدب جديد يسمى بالفرنسية Le Miroir des Princes وهو يعد بالعربية بالمآت (أنظر : كشف الظنون للحاج خليفة) وحتى نصيحة الآباء للبنين صارت بابا جديدا من أبواب التربية والتهذيب (فانظر : كتاب أيها الولد للغزالى) ونصيحة محمد الظريف التونسى لولده ، وقد طبعناه فى آخر تاريخ ابن الشماع للدولة الحفصية وترجمه الى الفرنسية ٠

وحتى آداب الكتاب تالف فيه فى الاولى صفحات رائعة لعبد الحميد الكاتب وتشمل رسالته الجانب التقنى والجانب الروحى من الزمالة والاخوة فى المحنة أو مراعاة شيخوخة الزميل ٠ وهى من أجود ما يوجد وانتهت القضية فى تطورها الى كتاب صبح الاعشى للقلقشندى ٠

ويجب أن نقول ان تربية المسلم فى حياته الدنياوية والاخروية تتلخص فى الحديث الشريف : اذا مات أحدكم انقطع عمله الا من ثلاث : « ولد صالح يدعى له من أجله ، وكتاب علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية » .

وكتاب علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية » ٠

فالولد الصالح الذى يدعى له من أجله جعل المسلمين يهتمون بتربية أبنائهم وبناتهم ، وكان اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة يوكلون ذلك الى العبيد ٠ فأما المسلمون فالفوا الكتب التى فى التربية اقتباسا من القرآن ، والحديث ، وأصول التربية ، وأقوال الفلاسفة ، والمربين ، والقصائد الحكمية ، والقصص التربوية التى على ألسنة الحيوانات كلقمان والقليوبى ، وكليلة ودمنة ، وغيرها ، فتكون من ذلك أدب كامل اقتبس منه الاوروبيون ، كما اقتبس لافونتين من كليلة ودمنة ، وكما اقتبس رونسار كتابه Le Roman de Renart من كليلة ودمنة ، Samaniego Iriarte الاسبانيين من كليلة ودمنة الاسبانى من الغزالى فى قصة الحيوانات التى تالبت على الانسان ،

أنظر : Livres arabes ou relatifs aux Arabes

وجعل الاسلام المساواة بين الناس : لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ·

لذلك رأينا القرن الاول لا ينتهى بعد حتى أسلم كل البربر ، وأقبلوا على الجهاد مع المسلمين : كسيلة ، طارق بن زياد فاتح الاندلس ، وصاروا يتزعمون الموسيقى ، فقد كان الغريض البربرى موسيقار السيدة سكينة رضى الله عنها ، وذلك قبل نهاية القرن الاول · وكان المحرر البربرى من أكبر الكتاب والخطاطين . وصارت مدرسة للنحو مغربية أندلسية (أنظر طبقات النحاة للزبيدى) ومدرسة فقهية مالكية ، ومدرسة اباضية (أنظر عياض المدارك والدرجينى طبقات الاباضية) · والحقيقة هى أن الاسلام امبراطورية ، فيها كل مواطن امبراطورى ذو نصيب كامل فى الحقوق والواجبات · لذلك أقبل كل أعضاء الامبراطورية ، من البربر ، والزنوج والحبشة ، والعرب ، والايرانيين ، والاتراك ، والصينيين ، والهنود ، والهندوسين وغيرهم بأعباء السياسة ، والعلوم ، والآداب ، والفنون ، والمعمار الاسلامية فى تساو بينهم · لذلك ما عاشت الامبراطورية الرومانية الا ستة قرون لظلمها ، وعاشت الامبراطورية الاسلامية أربعة عشر قرنا ·

وهى حية ، من نهضة بعد كبوة ، وظهور بعد خمول ، وما عاش الاستعمار الا 132 سنة على الاقصى ، وذلك لانه أشد ظلما وحرمانا من الحقوق المشروعة ، من الاستعمار الرومانى · وما عاش الاستعمار الايطالى الا 35 سنة لانه أتعس من الفرنسى، وهكذا تقاس الامور ·

والسياسة الاسلامية مبنية على دولة الله التى دستورها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وحكمها الفقه ، وأصول القضاء ، ودينها الشورى « وأمرهم شورى بينهم » فالقاضى له مشاور ، هكذا كان يسمى ببجاية ، وتلمسان ، والاندلس ·

والوزير له مشاور · وقال تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم « وشاورهم فى الامر » وتسمى دار الدولة بتلمسان المشور من الشورى ·

ثانيـــا : البعـــد السياسى :

وأما السياسة الاسلامية الخارجية فهى لا اكراه فى الدين ، ونظام الذمة الذى شوه معناه النصارى . واليهود ، والذمى هو الذى تلتزم له الدولة الاسلامية بحفظ أمنه ، وماله . وحرمه ، ودينه ، ما دفع الجزية التى هى ما يلزم من مال للنفقات التى يوجبها الشرطة ، والامن ، وحفظ الارزاق . والاموال ، والاعراض ، والاديان فاذا أخلت الدولة بشىء من ذلك لحقها الذم • كما يقول الطرقى : عارى عليك يا سيدى عبد القادر• وهذه العقدة هى التى تسمى بشكل آخر عقدة الولاء Contrat de clientèle
ثم ان المسلم يعتبر خلق الله اخوة له :

مـا للتشاحـــن والبغضـــاء بينكمو وأنتمـــوا يا عبـــاد اللـه اخـوان

حضرت مؤتمرا بسبوليطو Spoleto بايطاليا سنة 1964 فى أفريل ، وكـان موضوعه : هل دخول العرب لاوروبا كان خيرا كله أو شرا كله ، أو بعض خير وبعض شر • وحضرته نواب عن سبعين دولة ، فاتفق الجميع ـ ماعدا ستيرن Stern الاسرائيلى أن دخول المسلمين أوروبا كان خيرا كله فسبحان الله العظيم •

ومليحـــة شهـــدت لها ضراتهـــا والحـــق ما شهـــدت بـه الاعـداء

وذلك ظاهر لان المسلمين أدخلوا لاوروبا نباتات جديدة :

1) أشجار مثمرة لم تكن معروفة كالنارنج ، والليم . والليمون ، والاترج ، والخروب، والزعرور •

2) ونباتات صناعية كقصب السكر ، والزعفران ، والتوت الخاص بدود القز •

3) وأشجار غابية مثمرة ، كالقسطل ، والجوز ، والفستق . والبندق ، وأبى فروة ،

4) وأدخلوا زراعة الارز •

5) والنباتات العطرية كالعطرشاه والانيسون ، والشونيز السينـــوج (Nigelle) والبسباس والفودنج (المنتهى) واللويزة والطرنجان والزيزفون (التيلو Tilleul وخضرا مختلفة كالارضى شوكى Artichaud والاسبارج Asperge والسلـــق (بالاسبانية Acelga والتنبث Aneth الخ •••

وأدخلوا أساليب فلاحية جديدة ، وجلبوا أزهارا لم تكن معروفة كالعطرشاه وشب الليل (نوار عشية ، والسوسن . والليلك Lilas ، والياسمين Jasmin الفل Jasmin d'Espagne والخيرى (بالاسبانية Acheli) وجلبوا علم التقطير ، ومن ذلك بالاسبانية Agna de Azaher أى ماء الزهر · وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم قال : من ذهب منكم الى الجامع فليتعطر ، وليتبخر · فانبرى الفيلسوف الطبيب الكندى يضع تاليفا عظيما فى العطور وصناعتها قد نشره بعض الالمان وترجمه الى اللغة الالمانية مع التعاليق · وأدخلوا الى أوروبا البخورات التى منها الجاوى Benjaoui اللبن الجاوى ومن Benjaoui جاءت كلمة بنزين ·

وجلب المسلمون من أمريكا وأدخلوها الى أوروبا الطماطم (مطيش ـ توماطيش ، والبطاطة ، والدخان ، والقطانية (' الذرة Maïs) بالايطالية Gambureo أى القمح العربى (التركى هو العربى الامريكى) ومنها الانكليزية Turkey الديك الرومى الذى هو فى الحقيقة الديك الهندانى Dindon سردوك الهند لان كولومبوس عندما وصل أمريكا اعتقد انه الهندانى وصل من الغرب فسمى ساكنها الهندان : Indiens Peaux Rouges والصبر والتين الشوكى « والهندى لنفس السبب . وقرع بوطزينة الذى يسمى فى الجزائر الجريوات وبالمشرق الكوسة Courgettes ونقل المسلمون البيض والسود الى أمريكا القهوة العربية ، والسكر العربى ، والقمـــح ، والحصان العربى ، والمعمار العربى فى كافة الجمهوريات ماعدا الكاندا ·

وأدخل المسلمون الى أوروبا أدويتهم ، ومقطراتهم ، ومواد الزينة النسائية مثل الغالية Crème de beauté التى تسمى بالاسبانية والبرتغالية Algalia ومثـــل الاكسير Elixir ، ومثل Lozence وهو اللوزينج وهو دواء من لوز مخلوط بعقاقير جلاء للصدر وسكر بشكل لوزى ، ولذلك سمى الشكل اللوزى (المعين) بالفرنسية Lozence, Losange بالانكليزية ، وفيها يطلق على الشكل والدواء معا ·

وأدخل المسلمون الى أوروبا أشغال الرى ، من السدود ، وقسمة مياه الانهـــار على الواحات ، وبناء البرك (بركة الاغالبة بالقيروان) ، والحنايا Acquedus والقنوات.

والسيارات • من ذلك الفوارة والحنايا بصقلية ، وتوزيع المياه ببلنسية ، وقرطبة واشبيلية وطليطلة ، وايجاد محاكم عرفية للمياه Tribunal de Cas Agnas

وقد وقع مؤتمر لدراسة هذه المؤسسة العربية فى مدينة بلنسية ، فدعى اليها مسلمون، فكان اعجابهم أشد من اعجاب غيرهم ، ونسوا نظام حماه ، وحمص ، ودمشق الذى منه نظام درنة فى ليبيا ، ونظام قابس لابن الفلاح ، ونظام توزر ، ونفطة ، ودقاش فى الجريد التونسى لابن الشباط التوزرى ، ونظام سيبوس بعنابة ، ونظام المسيلة ، ونظام بسكرة ، وميزاب وشلف ، ووادى فاس ، وطوحين ووادى الرحا بوهران • ونظام وادى الاوريط بتلمسان الى أن نصل الى بلنسية Valence بالاندلس ، والالفاظ المتعلقة بالرى كثيرة ، فى الاسبانية ، والبرتغالية ، من ذلك Zubia زوبية مكان فيه ماء كثير : Zafa الصخنة ، Alj'afaine الجعفينة Adufa الدفقة باب الخزان : Ador الدور : الحصة التى تنوب كل مستحق للماء Porte declase, vanne Arcaduz القادوس : قناة الماء Noria الناعورة ـ الرافعة للماء Acênia طاحونة الماء ناعورة Acenero الطواحنى السانى Acequia الساقية ترعة صغيرة الرى Acequiero السقاء ، وهو حارس ترعة السقى •

وبالاضافة الى التجارة ، اختص المسلمون فى طريق التوابل من الصين ، الى الهند الى أوروبا ، وافريقيا ، وطريق الزعفران منذ عهد الفاطميين ، تقول أغنية الاطفال :

يا جميل بوك على الفاطمى وين تمشى وين تيجى
تمشى طريق الزعفران

ولهذا عرف الزعفران فى أوروبا باسمه العربى بالاسبانية Azafran وبالفرنسية Safran Safrano الخ • • •

وكذلك اختصوا بطريق الحرير ، واختصوا بصناعة الشاشية ، وصناعة الملف والطراز وكان الاسطول الفاطمى فى البحر المتوسط ، والبحر الاحمر (بحر القلزم) ، وبحر الشمال وبحر نيطلش (البحر الاسود) وبحر مانيطش Mer d'Azov وبحر قزوين ، والخليج العربى ، وبحر القلزم (الاحمر) وبحر الهند والصين ، وحده الموجود،

ووحده الشارى ، ووحده الموزع ، ووحده البائع • فهذه طبعة ثانية لما كان عليه الاسطول البونيقى فى العصور القديمة •

والاسطول الاسلامى مجهز بالدقة Gouvernail والبوصلة Boussole والاسطرلاب لتدقيق خطوط الطول وخطوط العرض ، والراهنامج Porthulan أى الخريطة البحرية ، والمراسى مجهزة بالباب والشبكة ، والمر المخطر كما هو الحال فى مرسى القالى الى الآن ، ومرسى بجاية الحمادى ، ومجهز بالمشرف وهو رئيس المرسى ، والديوان والديوانى ، والمقصود بالديوان ديوان البحر الموجد عند باب البحر ، وبالترجمان ، وبفنادق القناصل الذين هم رؤساء التجار الأجانب (شاهبندر) ، وبالمنادين والسماسرة (بالايطالية Semsare) ومن كلمة المشرق جاءت الاسبانية Almajarife ومن كلمة ديوان جاءت الفرنسية Douane والاسبانية Aduana وكلمة Almoneda • الاسبانية من العربية المناداة أى بالبيع بالمزاد العلنى Vente à la criée.

ومن الكلمات المختصة بالتجارة Tarif التعريفة و Tare الطرح فى المكيلات ، وهو طرح وزن المكيال ، أو طرح الحاوى من الجملة لمعرفة المحتوى ، و Alquile للكراء (اسبانية) وهى بطاقة فوق عربة للاعلام على أنها للكراء ، و Risque بمعنى غرر من رزق Hazard زهر أى بخت •

ومن المكيلات Alquez الاسبانية الكأس مكيال للخمر ، والاسبانية Almotaceb من العربية المحتسب لمراقب الموازين ، والمكاييل ، والغش فى البضاعة •

ومن أسماء العقاقير بالاسبانية Ajenuze السينوج Nigelle وعربيته الشونيز • و Ajebe الشب Alum السيناف ، الخرذل Ajengibre الزنجفير G ingembre

ومن ألفاظ الديوان Alcabala من العربية القبالة من الفارسية كاباله فرنسية la gabelle وهى مكس على الابواب ، أو الاسواق • ومن المواد النسيجية Algodon القطن و Merinos المرينى أى أغنام بنى مرين ، التى لها صوف حريرية ممتازة • ومن أسماء الاقمشة Mousseline الموصلية •

ولمعرفة كل هذا أنظر Dozy : Dictionnaire des vêtements arabes
وقد ترجم بعضه فى مجلة « اللسان العربى » ·

وللتجارة أعوان تجارة ، ومسافر تجارة ، يسمون بالعربية راهدان أى صاحب الطريق ، أى الموكل بالطريق ، من أقصى الصين الى أقصى أوروبا · راهدان الموجود بالطريق ، وسوق الرهادرة أو الرهادنة من ضمن الاسواق العربية فى كبريات المدن كبغداد ، والقاهرة ، والقيروان · ولاشك تلمسان ، وفاس ، وقرطبه ، بلا خلاف ·

والرهدان يبدأ رحلته من أقصى الصين من مدينة زيتون Shantung الى المانيا (نورنبيرغ) والى روسيا (كياف) متنقلا من بلد فيه جالية من بنى جنسه بنـــزل عليها ، ويعطيها الاخبار · وما جد من المبيعات ، وينقل عنها الاخبار وما جد مـــن المبيعات أو آخر ما ظهر من الكتب ؛ وينتقل الى التى ما بعدها الى نورنبيرغ وبولونيا وكياف (الروسيا) وفيلاندا · والذين يتولون ذلك هم يهود من الخز ، وقد أسلموا فى البعص وبقى البعض · والمسلمون أول من سن قانونا تجاريا ، وقانونا بحريا ، وقانونا للاسواق (أحكام السوق ليحيي بن عمر) وأعطوا فى بيان انعقاد الاسواق أكبر رخصة اقامة فى دار الاسلام ·

أنظر عن كل هذا ميتز Metz حضارة العرب فى القرن الرابع · الاصـــل بالالمانيـــة Die Renaissance des Islam ترجمـــة الدكتـــور عبـــد الهـــادى أبـــو ريـــدة .

ـ والجاحظ : التبصر بالتجارة ·

ـ وكتب المسالك والممالك : ابن رسته ، اليعقوبى ، ابن حوقل ، والمقدسى ابن جبير وغيرهـــم · و

DE MAS - LATTRIES : Traités de paix et de commerce entre les Républiques européennes et les pays barbaresques.

ـ وجرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ·

ـ كرد عـلى : خطط الشـــام ·

ـ المقريـــزى : خطط القاهرة ... الخ ·

وابتدع المسلمون فى التجارة الصك Chèques والحوالة Billet de change وقرر ابن خلدون أصول التجارة فى مقدمته · فمن ذلك نظرية الغرر وهو أن البضاعة كلما كانت أكثر استهدافا للاخطار كانت أغلى ثمنا · وأعدوا المسالك التجاريـــة البرية ، والبحرية ، وأسسوا لها الفنادقة والاربطة والمسافر خانات · وجعلوا المسافة من الرباط الى الرباط 6 كلم · من طنجة الى الاسكندرية · والرباط هو مكان يسكنه المرابطون لحراسة الثغور ، والعناية بالمسافرين ، وتزويدهم ، وضبط بريدهم ، بحمام الزاجل ... الخ ·

فالمسلمون ربطوا تجارة العالم من جزائر واقواق (اليابان) ومن سيبيريا الى أمريكا التى اكتشفوها قبل كولومبوس (وكولومبوس نفسه كان مرفوقا بملاحين مسلمين ، لهم خرائط مضبوطة · وأنظر ما كتبه البكرى فى المسالك والممالك عـن قضية المغاورين الذين كانوا فى أشبونة فيسافرون بحرا الى الغرب ، ويدوم سفرهم عاما ، واقامتهم عاما ، ورجوعهم عاما ثالثا ، ويأتون باناس حمر الجلود ، سبط الشعور، يتكلمون بلغة يعرفها المغاورون ، ويترجمون عنها 0 ووجدت النقود بشمال أوروبا ، وشمال آسيا ؛ مما يدل مدى تجارتهم · وفوق كل ذى علم عليم · لا شك أن الثروات الطائلة التى جمعها المسلمون من الفلاحة ، والصناعة ، والتجارة التى احتكروها ، لها أثرها الواضح فى مجتمعهم ، فى قصورهم الفخمة ، وأبنيتهم العجيبة (أنظر وصف قصر بلارة ببجاية لابن حمديس) ، وجوامعهم (القيروان ، قرطبة ، جوامـع الجزائر ، والمغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق ، والاندلس ، وصقلية) وفخامـــة أسواقهم (القيروان ، سوسة ، سفاقس ، تونس ، عنابـــة ، قسنطينـــة ، بجاية ، وهران ، تلمسان ، الاندلس ، القاهرة ، (خان الخليل) ، دمشـــق حلـــب اصبهان ، طهران ، سمرقند ، بغداد) · وأنظر مبلغ تظرفهم فى كتاب الوشاء : الظرف والظرفاء وهو أبدع كتاب فى الموضوع · وأنظر قصص الف ليلة وليلة التى تعكس صـــورة واضحة دقيقة عن الترف · وأنظر روعة حفلات المسلمين التقليدية ، والدينية التى هى من الترف والطرافة بمكان · فكان المسلمون يبيعون،ووحدهم يبيعون ولا يشعرون ·

فجاء الرحالة البرتغالي Vasco de Gama واصطحب رائدا ملاحا أندلسيا عربه من رأس الرجاء الصالح ثم التحق بالخليج العربي ، وهناك التقى بالملاح الكبير ابن ماجد وصاحبه ابن مهرى وهما أميرا البحر العربى والهندى والصينى فأرياه الهند والصين أى طريق التوابل والاقمشة ·

(وكم علمته علم القوافى فلما قال قافية هجانى)

ويقول المثل التونسى : علمو الصلاة سبقو للجماعة · ويقول اخواننا المشارقة : علمو الشحاتة سبقو على الابواب العالية · فانتقلت التجارة الخارجية الى البرتغاليين سنة 1537 . ومات الاسطول التجارى العربى ، ثم مات احتكار البيع Monopole ثم ماتت الاسواق التى تولاها اليهود البرتغاليون من أهل ليثورنو ويسمون بالجزائرية قورنة وبالتونسية قرنة وقرانة ، وسوقهم بتونس تعرف بسوق القرانة · فتحولنا الى البيع بالتفصيل مع النسيئة والفوائد الباهضة ، فأفلس المسلمون ، وضعفت حالهم ، وباعوا قصورهم ، وخرجوا من ديارهم ·

وتحولوا من مصدرين الى مستوردين ، لا يبيعون ، ولكن يشترون بالنفقة الموجعة ، كما يقول الجاحظ ، فصار لهم نزف دموى ، أعدهم للاستعمار ، وللجهالة ، وللمرض ، وللاخلاق السيئة · ويقول المثل التونسى : اللى مدخولو خماسى ، ومصروفو سداسى ، ما يموت الا يساسى ·

وبقى ذلك الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما بعد استقلال الجزائر · فأنعم الله على المسلمين بخامات البترول ، والغاز ، والارصدة الذهبية ، واحتكار المواد الغذائية : فصاروا يبيعون ولا يشترون ، لذلك قلت فى مقال لجريدة « المجاهد » الغراء فى 26 يوليو 1973 « الثلث الاخير من هذا القرن تكون فيه السيادة للمسلمين » وكما يقول المثل : اللى عندو الذهب يلعب كيف ما يحب ·

فالاسلام الذى كان كله تحت الاستعمار ، وكان يورد ولا يصدر « فيبيت رطلا ويصبح أربعة أوراق » قد استقل ـ ما عدا فلسطين الشهيدة ـ وهى فى كل يوم تقترب من استقلالها · فالاسلام يملك اليوم مصيره بيده ، وسياسته فى قبضة كفه ،

واقتصاده رهن اشارته ، وتعليمه وفق ما يسن من برامج ، ومشاكله المتولدة من أزمات النشوء Crise de croissance هو بصدد حلها جماعـة فى كل يـــوم ·

والاسلام اليوم ذاهب الى وحدته ، والى تبوء مقعده من الشمس ، على كرسى مـن ذهب وهاج ، وترصيع بالعاج ·

بقى أمـــر : هل الاسلام الذى رأيناه ، روحيا ، وعقليا ، وسياسيا ، واقتصاديا واجتماعيا ، هو أيضا تقنى ؟

لقد طرقت آذاننا لفظنمات تقنى ، وتكنولوجيا ، وتكنيك ، وما أشبه · فأقول ، معتمدا على الله تعالى : ان الاسلام هو أول ديانة تقنية جامعة فى الدنيا · وعلى البيان :

1 ـ **تقنية الصـــلاة** : الصلاة أولا طهارة ـ طهارة بدن ، أوجدوا لها الميضاة ، والحمام العام ، والمنزلى ، والمغطس والمسرب (دوش) · وأوجدوا لها الكاسة التى يحك بها البدن ، والمحكة العاجية التى يحك بها الظهر · واخترعوا من أجلها الصابـــون الذى ما كان يعرفه الرومان ، ولا اليونان ، وأوجدوا لها المناشف والبشاكير ودورات الحمام ، أعنى السطل والطاسة والطافلة · وأوجدوا لها التعطير ··· لقول النبى صلى الله عليه وسلم « من ذهب منكم الى المسجد فليتعطر ، وليتبخر » فاستحدثوا آلات التقطير ، وأوجدوا سوق العطارين متكئة على الجامع كسوق وظيفية بالاضافة اليـه · وألفوا الكتب فى ذلك · منها : كتاب العطور للكندى ، وهو كتاب جليل · وكتاب تحفة العروس للتجانى التونسى ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس لمحمد بن أحمد ابن الخليل بن سعيد التميمى المقدسى ·

وأهم مرجع سهل التناول ، هو الجزء الثانى عشر من نهاية الارب للنويرى · وهو فى أصناف الطيب والبخورات والغوالى Crème de beauté والندود والمستقطرات Eau de fleurs distillée كماء الزهر ، وماء الورد ، وماء العطرشاه ، وماء النسرين ، وماء القرنفل ، الى غير ذلك ، وهى ما يرش به ، عادة ، فى البيوت ، والجوامع ، والمحافل، والادهان ، وهى الزيوت المعطرة ، كزيت الياسمين، التى تعالج بها المقشرة، والنضوحات،

وهى العطور التى تصب على اليدين والبدن ، ومن طالع هذا الجزء رأى العجب من دقة الحضارة الاسلامية • وكل هذا تقنيات ، لاننا لم نخرج فى ذلك عن الكيمياء أى عن الامبيق والقابلة •

وعانى المسلمون الامرين لجلب البخورات من أقصى الدنيا ، فجلبوا اللبن الجاوى من جاوة ، والقمارى من بلاد القمار Khmers أى كامبوديا • فالصابون والعطور والبخورات والطفل المعطر هى أساس النظافة والتقنية •

ثم ان الصلوات منها ثلاث ليلية ، واثنتان نهارية ، والليلية تحتاج الى استصباح ، فاخترع المسلمون الشمعة التى تسمى بالفرنسية Bougie منسوبة الى مدينة بجاية عاصمة الحماديين بالجزائر ، والشمعة قد تطفؤها الرياح بين البيت والمسجد ، فجعل لها فنارا واقيا لذلك نجد سوقا مقابلة من الشرق لجماعة الزيتونة وسوق الشماعين مقابلة للعطارين ، وسوق الفنارية (ج . فنايرى صانع الفنارات الواقية للشموع) فى الجدار القبلى من جامع الزيتونة • واكتشف المسلمون الاستضاءة بالنفط فى صقلية، واخترعوا الوقيد Allumette بالاسبانية Alguaquedoe بصقلية أيضا ، فانتشرت فى العالم • وذكر دوزى فى ملحق المعاجم العربية الوقيد والوقيدة وترجمها بـ allumette ونحن نحتار فى ترجمة اللفظ اعتقادا منا أنه من أصل أوروبى ، بينما هو عربى فصيح، ومغربى صميم ، أصيل أنيق ، ومن اختراع المغاربة أيضا ، وهو بطبيعة الحال من ضروريات ايقاد النور فى الجوامع ـ فهو من تقنيات الصلاة •

ونصل الى بيت القصيد وهو أن أهم آلة لمعرفة أوقات الصلاة فى الليل ، والنهار ، وهى الساعة التى اخترع لها مخترعها اسما عربيا وهو الميقاتة ، والميقانة ، ومنه المنقالة بالتونسية ، فقد اخترعها العباس بن فرناس التكرنى ، القرطبى ، البربرى • وهى ساعة بالزمبالك ، بعد أن اخترع المسلمون الساعة المائية التى هى الطرجهارة ، ولنا صورة منها فى تلمسان الزيانية • وقد وصفها لنا يحيى بن خلدون فى كتابه بغية الرواد فى تاريخ الملوك من بنى عبد الواد • وأخرى مالطية قد وصفت لنا فى كتاب دمية القصر لحمزة الاصفهانى • ولا تزال توجد هذه الساعات فى بعض جوامع فاس ، ودرسها لنا العلامة المغربى الدكتور عبد الهادى التازى فى مجلة المجمع العلمى العراقى • ثم اخترع المسلمون ساعة النقالة والبندول المسماة بالتكوك ، وهى جدارية ووضعوها

فى الجوامع ، وعندنا مثل منها فى جامع تستور ، عاصمة المدن الاندلسية بتونس ، لا تزال ماثلة ، فى صومعتها ، وأرقامها عربية ، وهى تسير من اليمين الى اليسار : 1/12/11 ، لا من اليسار الى اليمين 11/12/1 • ثم لما فتح الفاطميون جنوب فرنسا الغربى ، ودخلوا وادى الروى ، ووصلوا ليون تركوا بها صناعة الحرير ، ثم سويسرة ، فتركوا بها الساعة • وكتب العباس بن فرناس أبياتا على هذه الساعة التى اخترعها على منها :

الا اننى للدين خير أداة : اذا غاب عنكم وقت كل صلاة • وصومعة الجامع هى أداة للآذان ، ولكنها مرصد مجهز بالآلات الفلكية ، والازياج ، والاسطرلابات لضبط الوقت، والقيام بمعرفة مداخل الشهور ، وسير الاهلة التى نعرف بها مداخل الشهور ، لصيامنا وافطارنا ، وأعيادنا ، وعامة مواسمنا • هكذا كان جامع الزيتونة بتونس ، وهكذا لا يزال بعض جوامع فاس •

ومن تقنيات الصلاة معمار الجوامع الذى نموذجه الاول جامع القيروان (51 هـ) بناه عقبه بن نافع ، كجامع وقلعة لحراسة المدينة ، واعداد فتح الجزائر ، والمغرب الاقصى ؛ فصار جامع الزيتونة نفسه جامعا ، وقلعة ، به أربعة أربطة ؛ فى كل ركن رباط لحراسة ثغر تونس • وحول الجامع أسواق السلاح « السرايرية » « القنداقجية » أى الذين يصنعون القسم الخشبى من البندقية ، و «الزنايدية » الذين يصنعون القسم الحديدى • فعندما يأتى الخبر على طريق الحمام الزاجل بأن أسطول العدو قد لاح فى الآفاق يصعد 12 مؤذنا الى الصومعة يؤذنون فى غير وقت صلاة ، ثم ينزل كل مؤذن الى الباب المختص به فيأتى الناس ويخطب فيهم الامام بالجهاد ، فينزل الى السرائرية ، والزنايدية لتناول السلاح ، ولا يبلغون باب البحر الا وهم مدججون •

فانظروا هذا التخطيط العجيب الذى هو عام فى جوامع العواصم ، أو جوامع المدن الساحلية ناهيك أن جامع الخالصة بمدينة بالرم العربية قد تحول الى كنيسة سانت آنا اتكأت على جداره سوق العطارين ، وكتب عليها فى لافتة البلدية Socco Laharini Grandi سوق العطارين الكبار وهكذا تسمى بتونس •

ثم يأتى معمار الجامع الذى لم ياخذ شيئا من معمار الكنيسة ، وأضاف اليها القبة التى هى لاضاءة الامام المقصود بالذات ، فلهذا أول ما وجدت فى جامع القيروان ، وفيها كوى من الجص ، المفرغ ، المرصع بالزجاج الملون ، حتى لا يكون النور ساطعا ، باهـرا ، وهو ما يسمى بالفرنسية Vitrail وبالانجليزية Glas window فما دخلت الكوة المسماة شمسية الكنيسة مع القبة الا عن طريق جامع القيروان · فالجامع الاموى بقرطبة الذى هو صنو القيروان ، ثم كنيسة القديس يعقوب القمبوشتل Saint Jacques de Compostelle شنت ياقب الحوارى المبنى باسبانيا ، ثم كنيسة نوتر دام بباريس ·

واخترع المسلمون المحراب ، لفرز الامام ، واظهاره ، وتصويره حتى يراه المأموم ، ولتضخيم الصوت،لان نصف تكويره يضاعف الصوت عدة مضاعفات·أليست هذه تقنية يا اخوانى ! وشيء آخر اذا نظرنا فى أعمدة الجامع وجدناها متساوية الابعاد عن بعضها En Quincoce بحيث أنها تقابل المحراب فى أى زاوية من الجامع كان المصلى · فهو يرى الامام الذى هو بيت القصيد · ثم فكر الناس فى جلب الماء الى الجامع ، وبالتـــالى الى المدينة ، على الحنايا ، وهذا يحتاج الى تقنية ما عليها من مزيد ، مثلما فعل المستنصر بالله الحفصى فى جلب الماء على الحنايا من زغوان الى تونس (70 كم) وتوزيعه على مدينة تونس وأحوازهـا ·

الجهــــاد : كان الجهاد الاسلامى الاول يعتمد على السيف، والقوس ، والرمح والحربة، ولا مزيد · فلما جاء الاسلام استعمل ذلك فى صدر الملة ثم حول الرمح الى بلطة ومنه بالفرنسية Hallebarde وهى رمح فيه زج ، وفاس ، وشاقور ، وهـــو بالاسبانية Alabarda من العربية ، وبالانجليزية Hellebarde من العربية أيضا ، ثم جاؤوا الى القوس، فحولوها الى قوس البندق Arbalète والى قوس الرجل · ثم اخترعوا الاسلحة النارية من القربوص Arquebuse وهى البندقية الاولى ، والمدفع ؛ وكان ذلك بالمهدية ببيت الكيمياء على عهد الصنهاجيين ، عندما هاجم الاسطول النرمانى هذه العاصمة الاسلامية الكبرى فرماه المدفع بالقنابل ، وذلك ظاهر فى شعر ابن حمديس ، وهو كثير الورود فى ديوانه وكان ذلك سنة 505 م : فلا عبرة فيما يقوله الافرنج من أن المدفع اخترع فى معركة كريسى بين الفرنسيين والانكليز فى حرب المائة سنة ·

وأما حرب البحر فقد جهز لها المسلمون النفاطات ، أو الحراقات ، وهى سفن مجهزة بالنار الفارسية Woepeke : Journal Asiatique, le, feu

ج ـ زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ـ باب العسكرية ـ ٠

ثم جاءت النفاطات وهى سفن ترمى النفافيط ، أى أنابيب مملوءة بالبترول ، والبارود ، فتقنبل الاسطول المقابل ٠ وأهتموا بالحصون قبنوا الاربطة على طول السواحل ، من طنجة الى الاسكندرية فهنالك 1000 رباط فى مسافة 6000 كلم ، أى بين الرباط والرباط 6 كلم ٠ وألف يحيى بن عمر كتاب أهمية الحصون والمرابطة فى القرن التاسع قبل L'art des forteresses : Vauban فى القرن السابع عشر وجعلوا فى القلعة المسقط machicoulis وهى جذوع فارغة وملآنة قاعة قوية فوق المدخل يقف النفاط على جذعين ملآنين ، ويصب الزيت الحامية ، أو النفط الملتهب من الجذع الفارغ على المهاجمين ٠

واخترعوا الحسك Herse وهى سكاكين مركبة فى شكل شبكة فيها خيط ، وعروة ، فاذا جذب الخيط وبالعروة ، انغلقت السكاكين ، فقطعت الارجل والايدى بدون رحمة وقد كتب عن ذلك المهندس Lesne فى كتابه المهدية التى بها ثمانية أبواب من الحسك ، وست مفروشات من الحسك ، فلا سبيل الى اجتيازها ٠ أليس كل هذا فى منتهى التقنية ؟

الحج : الحج سفر برى وبحرى ، فالسفر البرى يحتاج الى طرقات معبدة ، ومسافر خانات ، وفنادق ، وأدلة من الناس ، ومن الكتب ٠ فأدلة الكتب هى مثل Guide bleu فى غاية التقنية تبين المسافات ، والمشاهدات ، والمزارات ، والمكاييل ، والمقاييس ، والنقود ، والمبيعات ، فيتعلم منها سبيله والجغرافيا ، والتاريخ ، وتمصير المدن ، وعلم طبقات البشر وعلم عادات البشر ، الى غير ذلك ٠

ولضبط المسافات بخطوط الطول ، وخطوط العرض ، حررت مقاييس الخطوط فى تونس ، وليبيا ، فجاءت محررة بغاية الدقة ، بما لا يخالف ما وصل اليه الحساب المعاصر ، الا بدقائق ؛ وأحيانا بثوان ، وجهز الحاج بالاسطرلابات ، وبوصلات معرفة

القبلة ، حتى يعرف من تقاطع الطول والعرض المكان الذى هو فيه ، بالاضافة الى مكة ، والى مكان انطلاقه • وجعلت المآكل المناسبة للحجاج ، من غليط ، وبشماط ، وقديد ومسلى وبنـــادق ، ومصبرات تحتمل المدة الطويلة ، وصنعت له السحارة ، وهى صندوق خاص ذو أدراج ، كل درج لغاية من الغايات ، وبها مفاتح سرية بالارقـام ، وجعل له أسبوط أو الكمال وهو جلدتان مخيطتان يخيط فيما بينهما نقوده ، فلا يستطيع أحد أخذ شىء منها •

فترى كل هذه التقنيات من أجل طريق البر ونظمت قوافل الابل بالمرازيـــق بالاضافة الى تونس ، فأدلة المزاريق المختصين بتربية الابل للحج ، وقطع الصحراء يجهزون لمن شاء ، قافلة كاملة ، بابلها ، وحدائها ، ومائها ، وغذائها ، وخيامها مقابل مال معلوم • وللقافلة أمير الحج ، ويكون فى الغالب من الاشراف • ثم للحج كتـــاب مناسك ، وكتب المناسك كثيرة وهى تبين له شعائر الحج ، وطرق أدائها ، وأوقاتها ، وما يجب فيها •

فهذه هى تقنية البر • ثم هناك ما يسمى بالتشويق ، وهى حفلات دينية محمسة Mise en condition تتألف من مدائح الرسول ، والحرمين الشريفين ، والكعبة ، وعرفات ، ومنى ، وغيرها من المزارات ، وتلاوة القصائد الواردة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، كالبردة ، والهمزية ، وراثية ابن الفارض وتائيتيه ، وغير ذلك • وتقع حفلات مبائت (ج • مبيتة وهى سهرة ليلية فى زاوية ، أو جامـع ، أو دار ، لهذا الشأن ولهذا الغرض) •

أما الرحلة البحرية فى الغرب ، فقد اخترع لها المغاربة سفينة خاصة تسمى المكية • ذكرها دوزى فى ملحق المعاجم العربية • ج 2 • ص 606 ؛ وهى لا شك مجهزة بالبوصلة لاجتناب السحل Cabotage حتى تستطيع مخر البحر بالليل والنهار على السواء ، وبالدقة ، حتى تستطيع أن تحمل 3000 حاج بأغراضهم ، مـع المرافق ، وبالاسترلاب لمعرفة مواقع الامكنة ، وبالخريطة البحرية المسماة داهنامـــج Porbulant فأنت ترى أى شوط قطعته البحرية الاسلامية من أجل الحج ، فقد بلغت بالسفينة الغاية القصوى •

الصــــوم : الصوم فيه تقنية ، وهو رؤيا الهلال ، والحساب اللازم لذلك • فحول المسلمون الصوامع الى مراصد ؛ علاوة عن المراصد ذاتها ، مجهزة بآلات المكبـــرة ، والمقربة ، والضابطة لمسالك الكواكب ، حتى لا يقع اختلاف الرصد •

وأوجدوا المراصد الكبرى بسمرقند ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وتونس ، والجزائر ، وفاس ، والاندلس • وقاموا بعمليات حسابية تسمى أزياجا ، وزايرجات ، والصحيفة الى غير ذلك من الاسماء وعلموا الاسترلابات المختلفة ، والآلات المصورة للسماء ، المرسومة فيها النجوم ، والشمس ، والقمر ، تتحرك تحركا طبيعيا ، حتى يعرفوا منها بدقة أو على سبيل التقريب ، مسالك النجوم ، ومواعيدها • والفـــوا كتبا فى ذلك ، حتى أن أحدا الف كتابا سماه التقويم العام لخمسة آلاف عام • فوصلوا الى حسابيات كبرى ، وتحولوا من علم النجوم الاستطلاعى للغيب Astrologie الى علم النجوم الحسابى ، العلمى ، التقنى ، المبنى على المشاهدات ، ودراسة النجوم ، فى مسالكها ، ومحاولة معرفة أجرامها ، وابعادها ، ومواعيد كسوفاتها ، وخسوفاتها • فتوصلوا بذلك الى معرفة استدارة الارض وحركات دوران حول نفسها Rotation وحركات الانتقال حول الشمس Translation وحركـاته فى جملـة المجموعة الشمسية ، فاكتشفوا المجموعة الشمسية قبل كوبرنيك ، واكتشفوا حركتى الدوران والانتقال قبل غاليلا وغاليلاى •

وسنطرق هذا الموضوع بمزيد الاطناب فى حديثنا الآخر •

ورمضان احتاج الى « مسحر » أى الى انسان عنده طبيلة صغيرة يطوف عـــلى الازقة ، ويطرق الابواب ، وينادى أرباب الديار : « يا سى فلان ، قوم للسحـــور ، يجعل معاك الله والرسول • ويسمى فى الاندلس الدقاق ، وفى المغرب النفار ، لانه ينفخ فى النفير من الصوامع ، قبل ان يدق على الديار • وفى تونس « بوطبيلة » ، وفى طرابلس سهار الليل ، وفى مصر المسحراتى ، وفى سوريا المسحر ، وقد اخترعوا له نوعا من الشعر ينشده يسمى « القوما » باعتبار أنه موجه للخليفة وزوجـــه • وهو ضرب من الموشح ، فى غاية الجمال ، اخترعه صفى الدين الحلى نجد نماذج منه

في ديوانه ، وكتابه المعطل الحالى والمرخص الغالى · اما فى تونس فينشد بوطبيلة حكميات تسمى العروسيات نسبة لسيدى أحمد بن عروس منها :

الدنيـــا مثلتهـــا دلاعـــة   تتكركـــب مـــن جملـــة الدلاع
مـاذا تغـــروا بيهـــا ناس طماعة   رماتهـــم فى بـير مالـــو قـــاع

* * *

أو قـــوال سيـــدى أحمـد سقـــا   الـــلى ما يشـــقى مـــا يلـــقى
يوحـــل فى الديـــن الغـــارق   أمـا خـــير يقـــولوا يا سقـــا
والا يقولـــوا يـا ســـارق ؟

كنشيد بنغمة رقيقة مستحبة ، فى صمت الليل ، فيكون لها تاثير عميق · واخترعوا اطعمة مناسبة لرمضان مثل أنواع الحساء ، وأنواع العصير (عصير الزبيب ، عصير المشمش المجفف ··· الخ · واخترعوا البريك الذى هو مع البيضة طعام كامل · فالعصير لرفع الجفاف عن المعدة ، يتناولونه بالمسجد ، عند صلاة المغرب ، ويتناولون اثره تميرات ، ثم يصلون ، ويرجعون الى البيت ، بعد أن انطلقت المعدة من جفافها ، فياكلون البريك · واخترعـــوا للسهرة أنـــواع البوزة التى أبسطها حساء الدرع Crème de Sorgho وكريمة البوفريوة ، أبى فريوة ، وكريم الفستق واخترعوا للسحور « المسفوف » أو السفة · وهو كسكوس ، حلو ، جيد الحبات ، يسقى بالحليب ويخلط بالفواكه الجافة ، المهروسة ، من جوز وأبى فروة ، وفستق ، وبندق ، وسكر ، وتكون فيه الكفاية ، فيصبح الصائم لا يشتكى جوعا ولا عطشا ، ففيه : شبع ورى ·

وسخروا المدفع للاعلان عن الافطار ، والامساك · وابتدعوا اختـــام الحديث فى عشايا رمضان فى الجوامع ، والزوايا ، والبيوتات ، يحتفلون بها غاية الاحتفال ، وفوق ذى كل علم عليم ·

ومن العلوم الاسلامية علم الفرائض ، وهو القسمة على المستحقين ، وضع لـــه علم الجبر ، ليتحولوا من المجهول الى المعلوم ؛ ولاجل العمليات الحسابية الجبرية ،

او الفلكية اخترعوا الارقام التى نعرف قيمة كل رقم منها بعد الزوايا التى يشتمـــل عليها • فالواحد زاوية ، والتسعة تسع زوايا •

هذه القبمة الخاصة بالعدد ، وهنالك القيمة المقامية ، فهنالك دار الآحاد ، ودار العشرات ، ودار المآت ، ودار الآلاف ، وهلم الى ما لا نهاية له ، فالواحد واحد اذا ما كان فى منتهى اليمين، ثم يصير عشرة اذا تأخر ، ثم مائة اذا زاد تأخرا ، ثم ألفا اذا بالغ ؛ وليقس ما لم يقل •

والارقام هى : 1/2/3/4/5/6/7/8/9 • فاذا كانت منزلة من المنازل خالية من الرقم زادوها (0) وجعلوا الصفر علامة الخلاء مدورا كمثل حلقة • ونقلوا الصفر الى أوروبا فاخرجوها من صفرها •

وابتدعوا المثلثات لمعرفة ارتفاع الجبال ، بقيس الظلال المتولدة عنها • وقدم كل ذلك محمد الخوارزمى الى الاندلس فأخذها الاوروبيون عنه •

ثم قدم كربونارى بيزانى وأبوه الى بجاية الحمادية ، فتعلما الحساب بجامعة بجاية عن الشيخ عمر فبرعا فيها ، ورجعا الى مدينة بيش بمعلومات وافرة فصارت عاصمة الرياضيات بايطاليا •

أردنا نأ نبرهن بكل ذلك على أن الاسلام تقنى فى عامة فروضه ، وهذا هو بيت القصيـــــــد •

والسلام عليكم ورحمة الله •

كلمــات تأبــين المرحــوم
الاستــاذ عثمــان الكعاك فى مطار عنابة

كلمة السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

... ها قد اختفى فيك يا أستاذ عثمان علم من أعلام ، لا تونس ولا المغرب ولا حتى العالم العربى والاسلامى وحدهما ، ولكن علم من أعلام الفكر ، من أعلام الحضارة ، مــن أعلام الانسانية فى مجموعها .

لقد كنت دائما روح الاستعداد نفسه ، كنت الاستعداد نفسه فى كل لحظـة ، كـان هناك أعلام يوجدون اليوم فى العالم وسيوجدون ، ولكن أولئك الذين كانوا يخرجون من سياج البروج العاجية ـ وليسمح لى حضرات الاساتـــذة الافاضل الموجودين هنا وغــير الموجودين ـ ان الذين يخرجون من البروج قليلون وكنت من أعلمهم .

كنت ذلك الذى لا يكتفى بالكتـــب والمكتبات ، ولا يكتفى بقاعات المحاضرات ، ولا يكتفى بالمجالس العلمية ، ولكنه ذلك الذى يقبل أن يختنق فى سياج محيط به من الشباب ، يزدحمون حوله ، يكادون يختنقونه ، وبصبر وجلد ، بل وابتسامة وفرح وسرور يستمر . كنا نتحير ، كنا نخاف عليك ، ولكنك انت تهدئنا وتقول : دعوا الشباب ، دعوه يستمر فى أسئلة ، دعوه يستمر فى مناقشته ، وكنت ترضى حاجتهم بكل صبر ، وبكل اناة ، بل وبكل سرور ، وبكل ابتسام ، وبكل تشجيع .

كنت ذلك الذى لا يكتفى بالطلبة فقط ، ولكنه أيضا يجوب القرى والمداشر ، وكــم من مرة كنت فى طريقك الى القاء محاضرات مبرمجة فى هذه المدينة أو تلــك ، كما كان شأنك ، كما كانت تلك عادتك فى جميع الملتقيات التى حضرتها والتى شرفتنا فيها، واثريتنا بها ، منذ الملتقى السادس بالعاصمة ، كنت كل مرة تجوب جهات البلاد فى الجزائر حتى فى



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، يلقى كلمة التأبين فى المطار قبل اقلاع الطائرة التى تقل الفقيد الى تونس

حرارة الصيف وأنت الحضرى ، وأنت ابن تونس الحاضرة ، كنت لا تخاف من الغبار ولا من الحرارة ، وكنت تدور ، وتخرج ، وكم من مرة خرجت عن الطريق المعبدة فى طريقك الى المدن الصغيرة والكبيرة ·

نعم ، كنت تخرج وتسلك الدروب الوعرة المغبرة فى تلك الحرارة عند ما تلوح لـك قرية على حافة الطريق ، وتقول لا بد ان تعطيهم حظهم ، لا بد ان نقف لديهم ، ولست من أولئك الذين يحرصون عى ان تكون قاعة محاضرات ، وكرسى وثير ··· ، كنت تكتفى بقاعة المسجد ، ورددت للمسجد دوره كما كان فى العهود الزاهرة للحضارة الاسلامية ، تحـول حصيرة المسجد فى لحظة بين عشية وضحاها وبدون سابق انذار وبدون اعداد الى مجلـس علم ، ويحيط بك الشعب فى المسجد فى المداشر ، فى الارياف ، كنت تحاضرهم فى تاريـخ القرية ، فى تاريخ الاسلام ، فى معالم الانسانية،وفى جميع جوانب الفكر ·

هذا كان شانك يا استاذ عثمان ، يا فقيدنا الكبير ، يا فقيد لا تـونس وحـدها ، ولا المغرب وحده ، ولا العالم العربى ولا العالم الاسلامى وحديهما ، ولكن فقيد الانسانيـة فى مجموعها ، فقيد الحضارة ، فقيد الفكر ، فقيد القيم يا استاذ عثمان !

كم من انسان ، فى تونس بالدرجة الاولى ، وفى غير تونس أيضا ، اتهمك بالمبالغـة ، وكم منهم الآن ، وقد شاهدت بنفسك وسمعت ، يومين او ثلاثة قبل وفاتك ، أناسا من الذين كانوا يتهمونك بالمبالغة ، اعترفوا بمبالغتهم فى اتهامك بالمبالغة ، ولم تكن مبالغا ، وكان علمك يدفعك الى ذلك ، وكانت فروضك العلمية حتى عند ما كانت لا تتوفر لديك المعلومات الدقيقة لتحكم فى هذا الامر او ذاك ، عند ما كنت تحيط بك الجماهير ، يحيط بك الطلبة ، يحيط بك الشعب ، فى هذه القرية او تلك فى جبال مليانة ، فى المدية ، فى جبال جرجرة ، او الونشريس ، او الاوراس ، فى جبـال بجاية ، وفى جبال تلمسان ، وفى ندرومـة وفى غيرها ، كنت ترتجل ، وتفكر ، وتستخلص بسرعة ، تعطى الفروض العلمية !

وتلك هى شيم العلماء ، عند ما يقدمون الفروض العلمية ، عند ما تعوزهم المعلومات الدقيقة يقدمون فروضا على اساس معلوماتهم ، وعلى اساس تجاربهم ، وعلى اساس احـدث المناهج العلمية · وكنت من الذين يدفعون بالشباب دائما الى الامام ، وكنت تحفزهم الـى المناقشة ، وتشجعهم على الاستمرار ، وكنت تحثهم على ان يتجرأوا عليك يا استاذ عثمان ، ولم تكن ذلك الحساس كما يتهمونك بذلك !

(وهنا اختنق المؤبن متاثرا وتوقف)

والسـلام عليكم

كلمة الدكتور المنجي الكعبي

أستاذ بالجامعة التونسية ـ تونس

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول الله الكريم

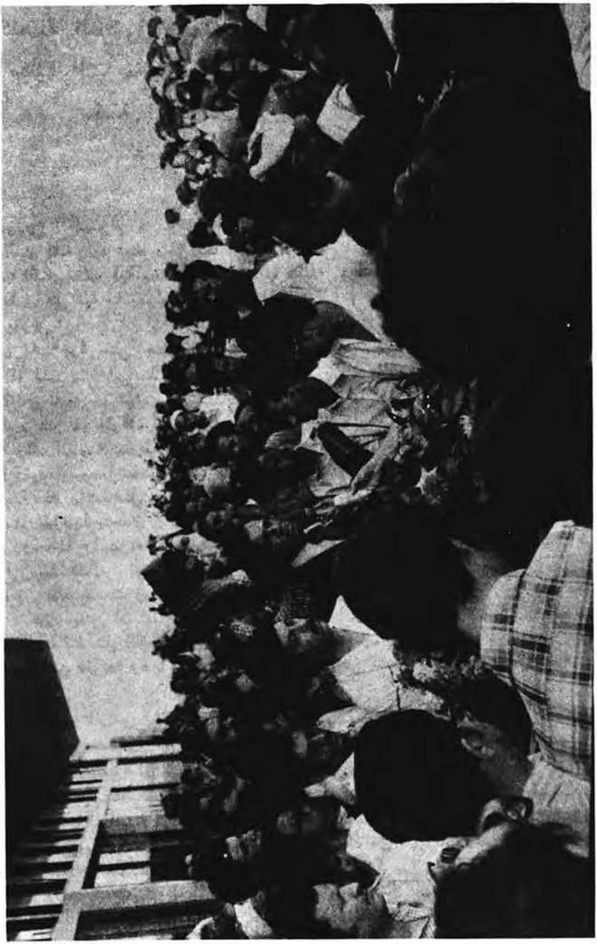
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،

ايها السادة ،

أيها الملتقون الكرام ، ايتها الطالبات ، ايها الطلبة ، مات عثمان الكعاك ، مات مؤرخ تونس العظيم ، مات العلم الشامخ.هو الرجل الكريم الفاضل بعلمه وأخلاقه ، بنكتته وروحه المرحة ، بمحبته للعلم والعلماء ، بتفانيه من اجل أكتساب المعرفة ومن اجل اعطاء ما عنده من المعرفة ومن العلم ، مات وهو في الملتقى الاسلامي مكافحا من اجل الفكر الاسلامي . من اجل نصرة الدين وترسيخه وتجديده وابقائه بهذه الارض الافريقية المغربية ، في العالم الاسلامي باجمعه ، كان رجلا عظيما ، علم تونس ، مؤرخ تونس ، عظيم تونس بعد ابن خلدون رحمه الله .

أيها السادة ، أيها الطلبة ، أيتها الطالبات ، أيها المسلمون في الجزائر هل تعزونني في والدي الروحي ؟ ام أعزيكم في والدكم الروحي ؟ فقد ولد في تونس وهذا شرف لتونس ، ومات في الجزائر ، في عنابة وهذا شرف له انه ابن تونس وابن الجزائر وابن المغرب وابن العالم الاسلامي بأسره ، لقد رأيتموه او كدتم ترونه بالامس واقفا على المنصة يلقي عليكم في شان العبادات وتأثيرها في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لقد كدتم ترونه امس واقفا طوال ساعة او اكثر وهو يحاضر كالشاب ، كأشد الشاب نشاطا وقوة وألمعية ، رحمه الله ، لكن القدر عاجله وعاجلكم به فاختطفه منكم ، اختطفه في ارض الجزائر . جاء راكبا طائرة وسيعود جثمانا في الطائرة الى تونس ، لو كان حيا وسالوه أين يدفن لقال ادفنوني في عنابة ، هنا في عنابة ، انني أحب عنابة ، انني احب كل أخ جزائري ولكن هو رجل أعظم من المكان وسيبقى خالدا ، دمتم أيها الاخوان وعزائي عزاؤكم ، صبرا ، صبرا على هذه المصيبة العظيمة التي أجتمعنا كلنا ، كان فيكم ان شاء الله خلفا عظيما لهذا العلامة الذي قد لا يجود الدهر بغيره سماحة خلق وعلم ، وبحثا وتدقيقا من أجل احقاق الحق في سبيل العلم الاسلامي وفي سبيل الدين الاسلامي ، و فيسبيل الاخلاق الفاضلة ، رحم الله هذا الرجل العظيم ، جزاكم خيرا أيها الاخوة الجزائريون الكرام ، وجزى الاخ الوزير مولود قاسم ، جزاه خيرا عن هذا الرجل العظيم الذي كان يحبه ويقدره ويجله ويقدره كثيرا ، ويتحامل على نفسه رغم الكبر ، رغم السن ، ليكون حاضرا دائما معكم في الملتقى الاسلامي ، اذكروه بخير في الملتقى القادم ، اقرأوا تراثه ، اعتنوا به كما كان يعتني بمهجكم وأرواحكم .

أيها السادة ، السلام عليكم ورحمة الله .



الدكتور المنجي الكعبي يؤبن الفقيد



كلمة الدكتور محمد المبارك
أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية
مكة المكرمة

اخواني الكرام ،

هذا هو الذى نشعر به تجاه رجل كنا نتمنى أن تتاح لنا الفرص كل عام ، نشد الرحال هو الموقف الذى نقف فيه محتارين (I) ، أما والله لم أجد فى يوم من حياتى نفسى فى موقف ينطبق على فيه ما يقول أبو الطيب المتنبى فى بعض مراثيه كما وجدت فى موقفى هذا اذ يقول :

طوى الجزيرة حتى جاءنى نبأ   فجعت فيه بآمانى الى الكذب
حتى اذا لم يدعنى سلته أملا   شربت بالدمع حتى كاد يشرق بى

هذا هو الذى نشعر به تجاه رجل كنا نتمنى أن تتاح لنا الفرص كل عام ، نشد الرحال لكى نلقاه ، هذا هو الموقف الذى نودع فيه رجلا ملأ قلوب العالم اعجابا لا قلوبنا فقط ، هذا هو الموقف الذى لا نعرف فيه ماذا نقول ولكنه قضاء الله وقدره ، لقد كان أمة لنفسه ، لقد كان فقيدنا مجمعا علميا قائما بذاته ، لقد كان فقيدنا موسوعة عالمية سيارة ، لقد كان فقيدنا مثلا رائعا لكل من يعشق الحقيقة العلمية ويحب أن يكون له فيها القياد ، لقد كان فقيدنا نموذجا يتحدى ، لقد كان دماغا الكترونيا وحاسبا الكترونيا بلغة العصر وأسلوبه ووسائله وأجهزته ، رحمه الله رحمة واسعة وعوض الامة خيرا منه ، لقد قرأت فيما قرأت من حياتى أن عمر رضى الله تعالى عنه أمير المؤمنين مر بأناس من الصحابة جالسين فى بيت فقال : ليت لى مثل هذا البيت أو ملء هذا البيت من مثل أبى عبيدة ابن الجراح ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول : أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة ، وهنا أقول ليت لنا مثل الكماك لا ملء بيت ولا ملء مدرسة ليت لنا خلفا يخلفه ويعوضنا عنه ، ويزيح عن قلوبنا وعن أنظارنا قتاذ الظلمة التى نشعر فيها بعده بالفراغ ·

اخواني ،

لكأن الشريف الرضى ينظر الينا هذه الساعة حين يقول فى رثائه للصابى

أعلمت من حملوا على الاعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادى
جبل هوى لو خر فى البحر   ابتدى من وقعه متتابعا فى الزادى
قالوا أضاع وحيدا فى شطن الردى   أيدى المنون ملكت اى قيادى

فى ذمة الله فقيدنا العظيم ، فى ذمة الله والتاريخ يا فقيد العالم ـ كما قال السيد الوزير ـ لا فقيد الامة العربية والاسلامية وحدها ، لقد انتفع بك غير المسلمين وغير العرب من سائر علماء العالم كما انتفع المسلمون والعرب ، لقد كنت مثلا فريدا رحمك الله رحمة واسعة ، ستلقى ربك وأنت قد أديت الرسالة وقمت بالامانة ولم تأل جهدا عوض الله الامة منك خيرا وجعل ورائك خلفا يسد الفراغ ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

كلمة الدكتور صلاح الصاوى

أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة طهران ـ ايران

يا طائرا وقلوبنا تبكى وراك … هلا كأنك الدقائق من دعاك
لمودع لو كان يدرى ما المصيبة … حال دونك والمنية وافتداك
قد كنت بهجة ملتقانا … ما جرى حتى تبدل أمس مجلسنا عزاك
قد كنت حجتنا وفيصل رأينا … والكل مأمون العواقب فى حماك
النشر فى قلل النهى متجبرا … بالله كيف تحط لا تهوى سماك
أمحرك الافكار فى آفاقها … ماذا عراك فلم تعد تدرى حراك
الجمع خلفك واجم لا يستفيق … مع اليه الالمعية من معاك
ما كاد يركب لحظة فيها يراك محاضرا … حتى تهافتوا من دهاك
عثمان قم فالملتقى ناداك داعيه … فألف البحث منتظرا هناك
قم للمنصة مثلما عودتها … اطلق لمنبرها العنان الى السماك
لتكاد تهلك حسرة لغيابكم … وتلفت الكرسى يبحث عن كماك
قد جئتنا والعلم فى يمناك … فبعض تباك والافضال يحدوها سناك
واليوم أنت شهيدها فارجع كما تهوى … لحيث أردت أن تلقى عصاك
أكذاك يا كماك يوم رجاك يوم نواك … يا رباه كيف يكون ذاك
رباه لا أدرى سوى ان المصيبة … لا تطاق ومالها أحد سواك



الدكتور صلاح الصاوى يؤبن الفقيد



كلمة الاستاذ سليمان داود بن يوسف

بحاثة فى التاريخ ـ الجزائر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، يقول الله العظيم فى محكم كتابه الكريم فى مثل هذه المصيبة « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . ان الله سبحانه وتعالى يخفف علينا وقع هذه المصيبة بهذه الآية الكريمة فجعل للصابرين بشرى ، اذن بشرى لكم أيها المسلمون المصابون ان صبرتم فما علينا الا الصبر . عرفت الفقيد رحمه الله وأنا لم أبلغ العشرين من عمرى وذلك اننى قدمت الى تونس سنة 1925 فوجدته يقوم بالتعليم فى الخلدونية وارشاد الشبيبة وقد جلب الشبيبة كلها الى علمه والى ناحيته . وكان له محبة غريزية طبيعية فى الجزائر ، ولهذا متعنا الله به مدة ليست بالقصيرة . ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الامن ثلاث ولد صالح يدعو له وعمل صالح ينتفع به وعلم صالح ينتفع به » . اذن ان هذا ترك علما صالحا فائدته لا تنقطع وأجره لا ينقطع ، واننا ربما ننبهكم ان ما كتب فى تاريخه من أنه كان عمره ثلاثة وسبعون سنة . لا هو أكثر عن ذلك فى ذلك الوقت سنة 1925 وأنا صغير كان يدرس الا بعد ان نال شهادة الليسانس ، اذن عمره أكثر من هذا . ثم اننى أقول ان الجزائر متشرفة لانه انطلق الى الجنة من هنا ، انه أخذ طريقه الى الجنة وأخذ طريقه الى الخلود من الجزائر رحمه الله . ولا نقول فى هذا المقام الذى لا يسعنا فيه الاطالة الا أن نقول : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخل جنتى » .

والسلام عليكم .

كلمة الدكتور كامل البوهى

مدير اذاعة القرآن الكريم ــ جمهورية مصر العربية

أيها الاخوة المؤمنون :

« كل نفس ذائقة الموت » · ونحن انما عزاؤنا فى هذا الحدث الجلل ، فى هذا الفقيد العظيم ، انما عزاؤنا هو أن الاسلام يبين لنا أن الموت ليس نهاية للحياة ، الموت فى نظر الاسلام ما هو الا انتقال من حياة فانية الى حياة باقية ، والموت بالنسبة للمؤمن هو انتقال من حياة جهاد وعمل الى حياة كلها نعيم وكلها جنة الخلد ، فان ذلك هو عزاؤنا فى فقيدنا ، وهو الذى يجعل المسلم يصبر فى أحلك الاوقات ، فى الحق ان الموت دائما يهز النفوس ويملأ القلوب بالحزن ، ولكن حينما يكون الفقيد نجما قد هوى ، حينما يكون الفقيد أمة قائدا عظيما من قواد الفكر الاسلامى ، بل من قواد الفكر الانسانى فان المصيبة فيه جلل ، ولكننا مع ذلك نعرف كما يقول أبو العلاء :

خلق الناس للبقاء فظلت أمة يحسبونهم للنفاد

ليس الموت نهاية للحياة هو مجرد انتقال من حياة الدنيا الى حياة الآخرة ، وكما نعرف فى القول المأثور فان اخلاء بنى آدم ثلاثة ، واحد يتبعه الى أن تصعد روحه الى بارئها وهو ماله ، ثم ينصد عنه بعد ذلك ، وواحد يتبعه الى أن يوارى فى قبره وهو أهله ، ثم ينصدون بعد ذلك ، والصديق الثالث يتبعه بعد موته ، يتبعه دائما أبدا وهو عمله · وكلنا يعرف والحمد لله عمل فقيدنا العظيم خير عمل ، لقد اختار لنفسه واختار له الله أن يكون من المجاهدين فى سبيل الدعوة الاسلامية أن يعمل بخير عمل ، وأن يمتهن خير مهنة وهذا وحده دليل على توفيق الله سبحانه ، وعلى رضوان الله سبحانه ، من أجل ذلك فانا ندعو له بالرحمة الى جنة الخلد يا فقيدنا العزيز ، وندعو أخانا الوزير الى الصبر والسلوان ، وندعو أنفسنا وندعوكم جميعا الى الصبر ، ليس للحزن مكان فى صفوف المؤمنين ، انه الصبر ، الصبر دائما من سمات المؤمنين كيف نبكى شهداء أصبحوا فى الخالدين ، لم يموتوا ، لم يموتوا ، أنهم فى الخالدين ، فالى جنة الخلد يا فقيدنا العزيز ، والى الصبر والسلوان يا أخى الوزير ، الى الصبر والسلوان يا أهل الجزائر ، ويا أهل تونس ، ويا أهل البلاد الاسلامية ، الى الصبر والسلوان ، والى رحمة الله وجنة الخلد يا فقيدنا ·



الدكتور كامل البوهي يؤبن الفقيد

كلمة سليم كـلاشة الغبرينى

أستاذ مساعد بجامعة الجزائر

بسم الله والله أكبر « انا لله وانا واليه راجعون » شيخنا الجليل لقد استقبلناك حيا بجثتك ، وها نحن الآن نودعك ولكن فكرك لا يزال حيا ، أقول لك باسم الشباب الجزائرى الذى حاضرتهم ، نم قرير العين فان مجهوداتك وان جهادك لن يذهب سدى ، نم قرير العين والى رحمة الله ورضوانه ، حياكم الله أيها المؤمنون ان تجلوا العلماء ·

والســـلام عليكـم ·

كلمـة طالـب تـونسى

باسم الطلبة التونسيين الحاضرين فى الملتقى

بســم اللــه الــرحمن الرحيــم

فى هذا اليوم المبارك يوم الجمعة الافضل يودع الطلبة التونسيون أستاذنا الجليـــل الكـريم العـالم العـلامة أستاذنا عثمـــان الكعـــاك رحمــه اللــه وتغمــده برحمتــه وجعلنـا فيه خـــير خلـف لخـــير سلف فى بـلادنا وفى كـل الاقطـار الاســـلامية . « والذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » ·

والســـلام عليكـم ·



كلمة التأبين
التى ألقاها رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
على قبر الفقيد
عثمان الكعاك رحمه الله
صبيحة يوم السبت 19 رجب هـ 17 يوليو 1976 م

رافق الاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، والاستاذ على شنتير ، نائب رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، جثمان الفقيد فى طائرة جزائرية خاصة الى تونس • وشاركا فى دفنه وتأبينه وهذا نص كلمة التابين التى ألقاها الاستاذ أحمد حمانى فى مقبرة الجلاز :

كنت فخرا لتونس والجزائر والعروبة ،

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين .

الحمد لله الذى استحق الحمد على كل حال ، نحمده فى السراء والضراء هو مولانا واليه المرجع والمآل ، تبارك اسمه وتعالى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا • فطوبى للمحسنين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، انهم الفائزون فى الامتحان (فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز) ونعوذ بالله من مصير من غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور • وواها لهذه الحياة ! ما أقصر ايامها ! وأعجب اهوالها ، وأخلب متعها ولذاتها ! كل شىء ــ ما خلا الله ــ باطل ، وكل نعيم ــ عدى نعيم الجنة ــ زائل •

العيش نوم والمنية يقظة ★ والمرء بينهما خيال سار

وها نحن نودع فى رمسه أخا لنا عزيزا علينا ، يودعنا ويرتحل عنا ، ويختار لقاء الله على البقاء معنا (وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا) •

لقد كان عثمان الى آخر لحظة من حياته يمتلىء حيوية ونشاطا ، يعمل لاحياء أمتـــه وعزة دينه وارضاء ربه وفاء بما أخذ الله على العلماء من الميثـــاق أن يبينوا للناس ولا يكتموا • وما كان يعيش لاسرته وشعبه فحسب ، ولكنه كان يعيش لامته •

أحب عثمان أرض الجزائر وشعبها ، لان الجزائر جزء من وطنه وطن الاسلام ، وبنى الجزائر بنو أمه ، فعمل للانقاذ ــ يوم المحنة ــ بما وسعه •

ألف للجزائريين في تاريخ بلادهم ، وبلاغة العربية في لسان آبائهم ، فأبطل مزاعم الذين أنكروا ماضي الجزائر ، وعملوا لتحريف ألسنتهم بالعجمى ، والذين اتهموهم بقلة الوفاء الصريح فسبهم • وكان الفقيد من خيرة الرواد لابناء الجزائر وطلابها ضيوف الشعب التونسى النبيل ــ أيام طلبهم ــ ، بما يبثه فيهم من روح اليقظة ويبعثه فيهم من النخوة ، ويزودهم به من المعارف الانسانية • ولقد بقى ــ رغم تقدم سنه ــ وفيا لمهمته ، وفي كل سنة ــ منذ خمس سنوات ــ كان يمنح الجزائر شهرا أو شهرين هي أيام راحته ، يحضـــر ملتقى الفكر الاسلامى ويثريه بتدخلاته ، ثم يرتحل بعد انتهائه فى أطراف البلاد يـــؤم المدن والقرى فى السهول والجبال والوهاد ، يحاضر ويسامر ، يحدث ويحاور ، ويجيب عن أسئلة الشواب والشبان والرجال والنسوان ، ويرضى الجميع بمعارف واسعة ، ومعلومات دقيقة ، ومواعظ بليغة ، وأنباء صحيحة يفند ما زيفـــه المبطلون ، ويصحح ما أفســـده المغرضون ، ويقوم ما حرفه الجاهلون ، ويذكر بما نسيه الغافلون • فلا عجب أن يحبـــه الجزائريون ويقدروا له ما غرسه في أنفسهم من ثقة غالية ، وما أشعرهم به من مـــودة صادقة ، ونصيحة خالصة ، من اخوانهم التونسيين الذين مدوا اليهم ايدى التعاون على البر فى كل حين ، وقد كان عثمان ــ رحمه الله ــ نعم السفير الناصح الامين •

لقد كان الفقيد ــ رحمه الله ــ مثال العالم المحقق والباحث المدقق ، والمحدث اللبق ، والاديب اللبيب ، والخطيب البارع ، والمؤمن العامل • وكان فى ملتقياتنا للفكر الاسلامى ــ النجم الساطع والبرهان القاطع على كفاءة رجالنا ، علماء المغرب العربى الباحثين ، وعلى استحقاقهم مكان الصدارة بين زملائهم فى الشرق والغرب ، وكان للفقيد فى نفوسهم جميعا المكانة السامية ، ولقد وقع عليهم نبأ وفاته وقوع الصاعقة ، فبكاه الجميع وشيعوه بقلوب دامية ، وعيون باكية ، وقال فيه شعراؤهم مما قالوا :

أخـــي عثمـــان انــك كنــت فخـــرا   لتـــونس والجـــزائـــر والعـــروبـــة
ولـــلاســـــلام بالتـــاريـــخ ، لكــــــن   يـــراعـــك ليس تـــوقفـــه صعـــوبـــة

فنـم بجـوار ربـك مطمئنـا — ويـا هـول الفجيعـة والمصيبـة

* * *

ان عثمـاننـا غـداة تـولى — قـد طـوانا بالحـزن طـى الستـور
مـا درى نعشـه ولا حـاملـوه — مـا عـلى النعـش من جـلال ونـور
غيـب المـوت ــ اذ طـواك ــ جـلالا — كـان موسـوعة جلـت عن التصـوير

انى هنا باسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى حكومة بلادنا أعلن ان الجزائر تقف بجانب أختها تونس فى هذا المصاب • فليست الرزية فى الفقيد مصيبة عائلته وشعبه فحسب ، ولكنها رزية العلم ، والامة الاسلامية جمعاء واننا ــ اذ نقدم فيه التعزية لعائلته الكريمة ولحكومة بلاده الفخيمة ، ولشعبه النبيل ــ نتقبل فيه التعزية ، لان المصاب فيـه مصابنا ، فانا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرنا فى مصيبتنا ، وعوضنا خيرا مما أخذت منا ، ونسأل الله الكريم الرحمن الرحيم أن يتلقاه بقوله سبحانه :

(يايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) •

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

صور عن توديع الفقيد فى مطار عنابة



التابوت المحمول •• نحو الطائرة

توديع الفقيد فى مطار عنابة



جثمان الفقيد يدخل الى الطائرة



بعد نقل الجثمان الى الطائرة قبل اقلاعها مباشرة من عنابـــة الى تونس ، والناس واجمون ··· والتأثر بالغ ، والأسى عميق !

بمناسبة ذكرى يوم الاربعين لوفاة
الاستاذ عثمان الكعاك

كنت عظيما ورحلت كذلك !..

العروسى وادى
المبعوث الخاص لجريدة المجاهد
الاسبوعية الى الملتقى العاشر
للفكر الاسلامى فى عنابة



رحلت عنا فجاة ، وباى رحيل غادرت جمعنا وتركتنا ننهل من واديك الغزير وعقولنا وقلوبنا معلقة برحيلك يوم ناداك لجواره فاستجبت فى سكون وخشوع للقائه ، وما كانت بايدينا وسيلة أو قدرة على ايقاف الحكم ولا باستطاعتنا تضحية أو ارادة للتصدى ، ولو كان التعويض ممكنا والتضحية جائزة لما ترددنا لحظة فى ذلك لكان من الهين تقديم كل غال ونفيس من أجلك !.

مركب الحجار ، ومصنع الفوسفاط ومنجزات أخرى شيدت بسواعد أبناء الثورة كانت فداك ، تعذر كل شيء أمام الفاجعة ووقفنا فى خشوع مثلك تجاه المحنة ، بل واضعف منك ، وتقبلنا العزاء فيك وما كنا لنتقبله لو خيرنا ، لكنه حكم الله لا مفر منه ولا رجعة فيه ..! فضلك عن غيرك فاختار لك الموقع وناداك الى جواره ، وخيرك من بين المشاركين فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فوهبك وأعز وعظم رحيلك .

كانت جماهير بونة ـ عنابة ـ التى حضرت، للتعريف بهـا وباصالتها التى استقبلتك وامثالك من رجالات العلم والمعرفة من مختلف الاقطار الاسلامية وغيرها الذين جمعتك بهم وحدانية الـدين وقوة الايمان بعظمـة الاسـلام تودعك وهى مكسورة الجوانح ، مختنقة الحناجر ، مبللة الاعين ، مكسوفة الشعور ... ارادت ان تخرجك من الجثمان ، وان تضمك اليها ، وان تتحدى القدر فى مصابها اياك ..!

شبابها وشيوخها ، فتيانها وفتياتها ، زملاؤك الذين سامرتهم ورحلت فجأة عنهم ، أخوك وصديقك معالى الاخ مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بجمهورية الجزائر ، سلطات الولاية كلها ، كافة طبقات الشعب الجزائرى المثقفة ...

ليت المنية أمهلتك ومنحتك فرصة الرؤيا لتدرك بحق ، وان كنت لا تشك فى تقـدير واخلاص ابناء الجزائر الثورية للمثقفين ـ لو كنت موجودا فى تلك اللحظة لا ما تأسفت ولا ما ندمت عن طريقة رحيلك ،، عظيما مثلما كنت ..!

ان طريقة رحيلك عن عالمنا فى تونس والجزائر والاقطار الاسلامية جمعاء امنية كـل مثقف .! شيعت جثمانك الجماهير بعيونها وجوارحها الى حيث غابت ناقلتك الخاصة عـن مطار « الملاحة » وبقيت قلوبها متعلقة بـك وباحاديثك وفصاحتك وشجاعتك ، وودعتها أنت بروحك وجسدك لا بافكارك وصدق مشاعرك ونيـل اخـلاقك ،، وقبل ذلك أبنـك الكثيرون ، طلاب وأساتذة ومشاركين وفى مقدمتهم الاخُ الوزير مولود قاسم الذى قاطعته دموع الرثاء والاعتراف والتقدير بعظامتك مرارا ..! وقد قال فيك من بينهم :

أخـــى عثمـــان انـــك كنـــت فخـــرا
لتـــونـــس والجـــزائـــر والعـــروبـة

ولـــلاســـلام بالتـــاريـــخ ، لكـــن
يـــراعـــك ليـــس تـــوقفـــه صعـــوبـة

فنـــم بجـــوار ربـــك مطمئنـــا
ويـــا هـــول الفجيعـــة والمصيبـــة

لقد وقع عليهم نبأ رحيلك وقوع الصاعقة فبكاه الجميع وشيعوه بقلوب دامية وعيون بالية .

ومن عنابة الى تونس انسجمت الصور ببعضها وامتزجت الشعـور بالعطف والتقدير . حيث تهاتف لاستقبالك على أرضية مطـار قرطاج الـدولى والحسرة تقطـع النفوس سامى رجالات العلم من بنى قوميتك وأمتك الاسلامية وكبار موظفى الدولة وفى مقدمتهم السيد

محمود المسعدى وزير الشؤون الثقافية ،، ومن المطار الى بيتك الذى خرجت منه على قديمك وعدت له حسب مشيئة الاقدأر لتودع فيه الوداع الاخير ،، هنالك كان لك موعدا مع الاحباب والاقارب والاصدقاء ،، كان المشهد أكثر ارتباطا بالواقع ، وبالمقامة ، والموضعة التى خصت بها من طرف هؤلاء كلهم ، لقد أولوك قيمة عملك اعترافا بما قدمته من أجل انارة الطريق للتعريف بالواقع وبالتاريخ الذى هو اليوم يذكرك بكل فخر واعتزاز ٠

لقد رافقت جثمانك الى جانب الوفد الرسمى وحضرت أعظم حدث مقدس لمدى الاعتراف بتضحيات وخدمات رجل الثقافة فى عصرنا ومكانته بين بنى جنسه وأمته ، لقد تجلى ذلك بكل صدق من خلال الموكب الجنائزى الرهيب الذى خصصت به من الجزائر الى تونس ، ومن المشاعر الخلاقة الصادقة التى أجمعت على ان فى رحيلك خسارة كبرى لا لعائلتك وبلدك فحسب وانما للامة الاسلامية قاطبة بل وحتى للتاريخ الذى كرست من أجله جهودك لجعله مرآة صادقة يخدم مستقبل الاجيال خال من كل لبس أو تزوير ٠٠!

ان الحدث التاريخى الذى شهدته مقبرة الزلاج صباح يوم السبت 19 رجب الموافق الى 17 جويلية 1976 ما هو الا صورة لمدى الاعتراف بتضحياتك الجسام ودعم لمواصلة الطريق الذى سرت فيه من طرف غيرك من المثقفين ٠ لقد كنت الى آخر لحظة فى حياتك تمتلىء حيوية وقدرة ونشاطا ، وتعمل لعزة دينك وارضاء ربك وفاء منك بما أخذ الله على العلماء من الميثاق ٠! احببت أرض الجزائر وشعبها لان الجزائر جزء من وطنك ، وبنى الجزائر بنو أمك ، فعملت للانقاذ أيام المحنة بما فى وسعك ٠!

لقد كنت رحمك الله مثال العالم المحقق ، والباحث المدقق ، والمحدث اللبق ، والاديب الذكى اللبيب ، والخطيب البارع ، والنجم الساطع ، والبرهان القاطع على كفاءة رجالات العلم الباحثين فى المغرب والمشرق ، لقد اختار لك الموقع وناداك فوافتك المنية على أرض المليون ونصف المليون شهيد ، على أرض الجزائر الطاهرة ، على أرض الثوار والمكافحين وقد قال بهذا الصدد من بين من قالوا فيك :

امحرك الافكار فى افاقها	ماذا عراك فلم تعد تدرى حراك ؟!
الجمع خلفك واجم لا يستفيق	نعى اليه الالمعية من نعاك
ما كاد يرقب لحظة فيها يراك	محاضرا ، حتى دهاه ما دهاك
عثمان قم فالملتقى ناداك دا	عيه ، فالق البحث منتظرا هناك
قم للمنصة مثلما عودتها	اطلق لمنبرها العنان الى السماك
لتكاد تهلك حسرة لغيابكم	وتلفت الكرسى يبحث عن كماك

أبك المنون ؟ أم الحياة عرفتها ... فكففت زهدا فى رشاويها خطاك
لقد جئتنا والعلم فى يمناك بعض ... نداك ، والافضال يحدوها سناك
شرف المعلم ان يموت على الصحائف ... والمجاهد ان يموت على العراك
وجمعت للشرفين اخلاق النبوة ... واصطفاك الموت تحت لواك
واليوم أنت شهيدها فارجع كما ... تهوى لحيث أردت ان تلقى عصاك
أكذاك يا كماك يوم رجاك؟ يوم ... ، تواك ؟! يا رباه كيف يكون ذاك
رباه لا أدرى سوى ان المصيبة ... ،، لا تطاق ، ومالها احد سواك ·

فى هذا الجو الملىء بالتهليل والتقدير ، وبهذه المشاعر الخلاقة المؤمنة بواقع الرسالة الثقافية ودعت عالمنا ،، لقد كنت عظيما فعلا ورحلت كذلك ·

مراعاة العبادات هى أسس سعادة الإنسان المسلم

د . داود كاون
أستاذ بقسم الشرق الادنى والاوسط ـ معهد الدراسات الشرقية والافريقية ـ جامعة لندن ـ



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ـ « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون) .

بسم الله الرحمن الرحيم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم

امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فلولئك هم الفاسقون ـ صدق اللـــه العظيم » ٠

أما بعد فعندما استلمت دعوة معالى الوزير السيد الأخ مولود قاسم للاشتراك فى هذا الملتقى الثقافى العاشر المبارك سررت غاية السرور وذلك انى صرت بعد بضع زيارات أحب هذه الجمهورية الجزائرية الباسلة حب الرجل لوطنه وقد وهبت لها جزءا من قلبى غير أنه قد خالط فرحى لقبول الدعوة الكريمة شيء من التردد ، وذلك بالرغم من تقديرى الفائق لهذا الشرف العظيم ٠ وكان سبب ترددى ، ـ والحق يقال ـ بسببين : أولهما أنى مع زيارات كثيرة جدا لاقطار العالم العربى لمدة أربعين سنة ما حضرت الا نادرا الى قطر عربى حبيب لاعلم بل لاتعلم وأشرب من مناهل العلوم العربيـــة والاسلامية فى أوطانها وعلى أيدى شيوخ وأساتذة متبحرين فى العلوم لكى أقتبس قبسا ضئيلا من نورهم المستفيض ، أما السبب الثانى فهو علمى بأن ما يقوله رجـل اسكتلندى مثلى قد لا يراه اصدقاؤه واخوانه العرب كافيا من حيث الفصاحة العربية ، غير أن شوقى الى هذه الجمهورية المباركة غلب على ترددى فها أنا الآن أمامكم وبــين أيديكم ، وارجو اخوانى الاساتذة الكرام أن يعذروني اذ أوجه كـلامى بالاخص الى شباب هذا الحفل الكريم شباب الجزائر النبيل ـ فقد استمعتم وسوف تستمعـــون أثناء هذا الملتقى الثقافى الى محاضرات علمية قيمة تلقيها عليكم نخبة من علماء العرب وغير العرب ٠ أما ما سوف تستمعونه منى هذا المساء فليس محاضرة علمية بل مجرد حديث بسيط ، سلسلة خطرات نفسى ، أحاول بواسطتها أن أستعرض أمامكم السعادة والطمأنينة اللتين يجنيهما العبد من عبادة ربه حق عبادته . كما أريد أن أتداول بعض القيم الاسلامية الخالدة التى دفعت العرب بعون الله تعالى وبارشاد رسوله الكريـــم (صلى الله عليه وسلم) الى مسرح التاريخ العالمى حيث لعبوا دورا جبارا فى خلق مجتمع عادل وفى دفع الانسانية الى مرتفعات من السعادة والهناء والتقدم الحضـارى والخلقى لم تكن لتبلغها لولا هداية القرآن الكريم والرسول الامين ، مرتفعات من السعادة والهناء والتقدم الحضارى يمكن أن تتحقق من جديد على أيدى الشباب العربى الطموح ٠

وذلك اذا حافظ الشباب العامل النشيط على تراثه الديني والثقافي ، وبذل كل جهوده في خدمة جاره وأخيه وأسرته وشعبه وأمته بل الانسانية قاطبة .

أرجو من هذا الحديث القصير ، وذلك بعون الله تعالى ، وما توفيقى الا بالله ، أن أبرز بعض فضائل الاسلام وقيمه المثمرة التى من شأنها أن ترفع مستوانا المادى والمعنوى الى ذلك المستوى المرموق الذى كان المسلمون يتمتعون به فى أوج حضارتهم الاسلامية الباهرة التى أضاءت نورا على العالم باسره فى وقت كانت بقية الانسانية منغمسة فيه فى الهمجية والجهل والخرافات ـ ولكن لن يتحقق هذا الا اذا سعينا كلنا نحن المسلمون الى تحقيقه فى مجتمعاتنا ونفوسنا بكل ما أوتينا من قوة وجهد ومثابرة ـ من المسلم به أن الله تعالى أرسل أحدا من رسله أو أنبيائه المباركين لهداية الانسان الى حياة أفضل فى وقت كان العالم غارقا فيه فى الجهل والكفر والشقاق والشقاء ونؤمن نحن المسلمين برسالة جميع أولياء الله هؤلاء ، وقد ذكرت أسماء بعضهم فى كتاب الله عز وجل ، بينما فقدت أسماء بعضهم الآخرين فى رمال الصحراء ما قبل التاريخ ، والاسلام الذى جاء به سيدنا محمد (ص) وعلمه ونشره وتاذى من أجله هو التحقيق الاكمل الافصح لعناية الله بخلقه وعطفه عليه ـ قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (صدق الله العظيم) ـ هذه الكلمات البسيطة السامية تؤكد لنا أن الاسلام أكمل الاديان وآخرها بل هو الدين عند الله ، ولا يحتاج الله بعده الى ارسال نبى لانقاذ الانسان من براثن الجهل والشقاء ـ ان الطريق واضحة أمامنا هى طريق الاسلام الصراط المستقيم الذى يأمر الانسان بالكد والاجتهاد والسعى الى كل ما هو خير ونافع للمجتمع الانسانى يجب علينا نحن المسلمين أن نعلن بأصوات مرتفعة فى مشارق الارض ومغاربها أن فى كلمات الله تعالى التى يؤكد بها أنه ارتضى لنا الاسلام دينا توكيدا لنا بأن المسلمين هم الذين سوف ينشرون راية السلام والاخاء والحب والرخاء فى العالم بأسره ، وذلك بالرغم من الحالة التعسة التى نرى العالم الاسلامى فيها فى هذه الايام العصيبة ـ هذا كان هدف أجدادكم الاماجد وسعيهم والذى قادهم الى المجد ، فكم أنا مشتاق الى ان أراكم

يا شباب العرب باذلين كل ما فى وسعكم لاسترداد هذا المجد فى جميع ميادين السعى البشرى حتى تكونوا قدوة للعالم ، جديرين بنعم الله الخالدة التى أنعم بها على أسلافكم – فلننظر الى بعض الاشياء التى يتألف منها الاسلام الصحيح · سعادة الانسان فى هذه الدنيا الفانية وفى آخرته أيضا · ان ركن الاسلام الرئيسى هو الايمان بأن الله تعالى واحد لا شريك له · وأنه دائما وأبدا حريص على الخير للانسان خليفته فى الارض يكافئه لاعماله الصالحة ويعاقبه على سيئاته · فلا ننسى اذا أن الله تعالى يراقبنا وسوف يحاسبنا على كل أعمالنا وأفكارنا – فلتدخل مخافة الله قلب كل فرد منا لان الانسان لا يشعر بمسؤوليته عن أعماله وأفكاره الا اذا دخلت مخافة ربه وخالقه قلبه فانها رأس الحكمة – لقد انتبه الشباب العربى الناهض بعد قرون من الركود والتخلف اللذين لم يكن آباؤهم – مسؤولين عنهما الا جزئيا ، انتبهوا الى أن الشعور بالواجب هو ما يفرق بين الانسان والحيوان الذى هو الآخر من خلق الله . وهذا الشعور بالواجب هو الذى يجعل الانسان يدرك أن ما هو موكول به قبل ربه وشعبه وأمته يجب عليه أن يسعى ويجتهد لاتمامه وانجازه بالطريقة المثلى وعلى أحسن حال · هذا معنى جعل الله عز وجل الانسان خليفته فى الارض · فيجب أن يكون هذا الشعور وهذا الادراك فى قلب كل شخص كبير وصغير ، ذكر وأنثى ، يدعى ويفتخر بأنه ينتمى الى حظيرة الاسلام وجماعة الاخاء الاسلامى · كيف ينتشر الاسلام ويزدهر ويحتل بين شعوب العالم والمجتمعات البشرية هذا المكان المرموق الشريف الذى اختاره الله تعالى لدينه وعباده اذا لم يكن فى المسلمين فرادى وجماعة القدوة الحسنة ؟ – بعد قراءة تاريخ الاسلام وبعد ادراك العلى السامية من الحضارة والرقى التى بلغها المسلمون الاولون وبناة الدولة الاسلامية الباهرة شرقا وغربا · كم أنا أشتاق الى أن أرى الشباب العربى النبيل يسترد ذلك العصر الذهبى الذى كان المسلمون فيه فى طليعة الحضارة والمدنية والتقدم أو الى أن أموت واثقا بأنه سوف يعاد حتما على أيدى أبطال جدد شعارهم الله اكبر !

لقد استيقظ العالم الاسلامى والعالم العربى بالاخص والحمد لله الى فضيلة العمل المضنى والاجتهاد فى انجاز الواجبات ، تلك الفضيلة التى جعلت السلف الصالح قادة العالم ، فلم يعد المسلمون راضين بانجرار وراء ركب الحضارة الانسانية والمدنية العربية،

مستفيدين هنا وهناك من انجازات هذا الركب ، لا ، انهم يريدون أن يقودوا هذا الركب من جديد • وقد قرر العالم الاسلامى أن يخلق مصيره بعون الله وبأيديه العاملة ـ ولكن لا يعنى هذا أن المسلمين معادون للحضارات غير الاسلامية ، بل يدركون أن الشعوب الاخرى غير الاسلامية ، شرقيها وغربيها لها أهميتها ومكانتها فى مخطط الله الاكبر ـ ان القادة السياسيين والمفكرين الذين يسعون اليوم لبناء مستقبل اسلامى أفضل يدركون كل الادراك ما هو خير وصالح فى الحضارات الاخرى • وقد قرروا ادماج هذا الخير وهذا الخير فقط فى ما هم فى طريق خلقه ـ وهذا ما حدث تماما فى القرون الاولى الزاهرة من الدولة الاسلامية ـ لقد تحرر العالم العربى من اغلال الركود التى عرقلت سيره مدة طويلة جدا فاذا تمشت الفضائل والقيم الاسلامية الخالدة والاحسان والصدق والطاعة وضبط النفوس والاجتهاد والاخاء والمحبة والوفاء ، تلك الفضائل التى يدعو اليها كتاب الله ، أقول اذا تمشت مع روح الانبثاق الجديدة فلا أشك فى أن تشاهد العقود الاخيرة من هذا القرن عودة الاسلام نورا مستضيئا يهدى الانسانية الضالة ـ التى زعزعت قيمها حروب ضارية وشكوك مميتة ـ الى الصراط المستقيم صراط الفلاح والسعادة • وفى هذه النهضة الجديدة ليكن شعار كل مسلم ومسلمة لن اضيع لحظة واحدة من الوقت الذى قسمه لى ربى على وجه هذه الارض ـ يتوجب علينا ان ننظر بعين العطف والاحترام الى كل عمل وشغل مفيد مهما كان متواضعا ، فاهمين أن ما يرضى الله الخالق فأجدر به ان يرضى الخلق ، أليس أمامنا القدوة الحسنة فى مشخص سيدنا محمد (ص) الذى كان يصلح نعله بيده الكريمة فى وقت كان فيه سيد العرب ـ •

اخوانى الاعزاء ، أخواتى العزيزات ، اسمحوا لى أن اشير الى بعض المشاكل التى يعانيها المسلمون العائشون أقليات صغيرة أو كبيرة فى البلاد غير الاسلامية ـ لقد انصرفت جماهير غفيرة من سكان البلاد غير الاسلامية وبعض البلاد الاسلامية، أيضا للاسف عن الدين مدعين أنه يعرقل سيرهم ويقيد سعيهم يعيشون فى حضارة مادية محضة فيها كل المباهج والمسرات المشروعة وغير المشروعة والآلات التى تسهل حياتهم ـ لقد حدث هذا الانصراف عن الدين بالتدريج لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ليس لى أن أخوض فيها بهذه المناسبة ونتج هذا الجرى وراء الملاذ بعد أن خابت آمال

الشعوب فى حياة افضل تحت النظم القديمة · فلذلك نرى هذه الموجة الطاغية من المادية التى تكاد تغمر العالم كله · أما الاقليات الاسلامية التى تعيش فى وسط هذه الموجة فانها تجد نفسها فى خطر ، لان ابناء المسلمين وبناتهم تفتنهم هذه الماديات وهذه المباهج التى توفرها بيئتهم فتمتد اليهم ايدى الاغراء ـ الشباب لا يخاطبه الا الشباب فاذا رأى العالم بدون أى ريب أو شك أو مراء ان الشباب العربى افضل الشباب المثال الاعلى للتضحية والاجتهاد والعمل البناء الخالق والمحافظة على تراثه وقيمه ، أقول اذا اتضح هذا للكل فى الشرق والغرب ، ووسائل الاعلام سريعة فعالة تجعل اخفاء ما يحدث ويتطور فى أى قطر من اقطار العالم الشىء المستحيل ، فلا شك أن شباب الاقليات الاسلامية المعرضة لضغوط وتكاد تقاوم لن ينظر الا الى الشباب العربى النبيل وذلك افتخارا به وحبا لتقليده ومجاراته ـ ان صلاح المسلمين المادى والروحى لا يمكن تحقيقه الى بمساعى كلنا وبالاخص بالقدوة من الاقطار التى المسلمون فيها الاكثرية فاذا كنا مخلصين فى ما ندعيه من الرغبة فى نشر نور الاسلام ومساعدتنا بعضنا بعضا ، ومؤاساة الاخ ومساعدته من مثل الاسلام العليا فانه يتوجب على كل فرد منا ان يضع كل هذا نصب عينيه فى كل لحظة ـ المحافظة على مبادئنا الاسلامية وابراؤها بجميع الوسائل لعيون سائر العالم ، هذا هو جهادنا فى ما بقى من القرن العشرين وفى ما ياتى من القرن الحادى والعشرين فمن أقعده الياس أو الكسل أو الانحراف عن جادة الحق اصبح عبئا لا يطاق على اخوانه ومجتمعه ـ اذا بذل المسلم كل جهده لاكتساب شعور بالواجب فى نفسه شعور لا يزعزعه شىء ، ولانجاز ما وجب عليه من العمل بالطريقة المثلى فانه لا شك سوف سوف يحقق نهضة قوية للاسلام معنويا وماديا وعندما نسعى الى ذلك اعلاء لكلمة الله عز وجل وحبا للاسلام الذى هو الدين عند الله فان الله سبحانه وتعالى سوف ينجز وعده ويساعدنا على تحقيق صلاح كل مسلم المادى والروحى وعلى كتابة الباب الاعظم فى تاريخ سير الانسانية نحو ذلك العالم الكامل الامثل الذى يريد الله أن نخلقه لنفوسنا بل يحثنا ويأمرنا بخلقه فى كتابه الكريم ·

يقول بعض المغرضين ان الاسلام انتشر فى الشرق والغرب بقوة السيف ولكنى أقول لامثال هؤلاء انه لم يكن بأس العرب أو بأس بنى عثمان فى الحرب هو الذى نشر الاسلام

فى العالم كلا ، الايمان بالمبادىء الاسلامية والطاعة لله عز وجل هما اللذان جعل من دينك الشعبين قوة لا تقاوم ـ وأيضا لم ينشر الاسلام فى الشرق الاقصى وفى أقطار نائية فى افريقيا وأوروبا والقارة الاميركية بقوة السيف بل انتشر هنالك على أيدى تجار وعلماء وأصحاب مهن ، رجال عاديين خالين من كل سلاح غير سلاح الاسلام والايمان والاعمال الصالحة ـ الشيء الذى ضرب أصول الاسلام فى تلك البلاد البعيدة ، هو قدوتهم وطيبهم واحسانهم وتقواهم وبشاشتهم وعطفهم على اخوانهم المسلمين منهم وغير المسلمين على السواء حتى ان جماهير كبيرة انضمت اليهم واصطفت تحت راية الاسلام ·
وفى ايامنا عندما ينصرف الكثيرون عن الدين كما كانوا يعرفونه فانهم يشعرون مع ذلك بفراغ ، بحاجة الى شيء يصعب عليهم كل الصعوبة التعبير عنه ـ ان هذا الفراغ يشعر به على الاخص عند الشباب الذين ، كما يقال ، يتمردون فى كل قطر ويثورون على قيم آبائهم ـ انى أعتقد أن هذا الفراغ لا يسده غير الاسلام حتى يصبح الدين لله ويسود الدنيا سكينة الاسلام وهناؤه ـ وهنا أكرر أملى فيكم ايها الشباب العربى النبيل أملى فى أن تكونوا دائما قدوة حسنة لشباب العالم الحائر الباحث عن سبب لوجوده وعن شيء يستطيع ان يحول طموحه ونشاطه الى طريق مثمرة بناءة تخلق فى العالم الرخاء والاخاء والمساواة ، أو بعبارة أخرى ملك الله على الارض ـ كونوا انتم الامة الذين يدعون الى الخير ـ فى ايديكم مستقبل هذه النهضة الجديدة للاسلام وفى أيديكم أيديكم مستقبل الجاليات الاسلامية فى الاقطار غير الاسلامية فاذا وجد شباب أوروبا وشباب أميركا فيكم تلك المثل العليا التى يبحث عنها الكثير منهم كان مستقبل الاسلام فى أوروبا واميركا مضمونا وجنيتم ثمرات ايمانكم وحبكم لله ـ أنتم يا شباب العرب ، انتم تدرسون وتحصلون العلم فى المدارس والجامعات ، تدرسون وتقضون لياليكم فى القراءة والاستقصاء والمطالعة وذلك بغية خدمة وطنكم العزيز وبالتالى لتخدموا مواطنيكم والامة العربية والانسانية قاطبة ـ لا خوف عليكم اذا اتبعتم الطريقة التى رسمها لكم ولاجدادكم الاعاظم النبى المصطفى (ص) ولا أشك لحظة واحدة فى أن هدى الرسول الكريم هو هديكم ، ولذلك أرى لكم ولشعبكم ولامتكم مستقبلا باهرا يثير غبطة ذوى النيات الحسنة وربما حسد الحاسدين ·

اخوانى الاعزاء ، أخواتى العزيزات ، أرجوا وأؤمل الا تؤخذوا على هذه اللهجة التى خاطبتكم بها وألا تعتبروا ما سمعتموه منى تدخلا فى شؤونكم أو درسا ألقيه عليكم ـ ان شبابى ولى يا للاسف وقد رأيت الظلم والتفكك والبغضاء والحيرة تنشب براثنها فى جسم الانسانية التعسة منذ ولت أحلام شبابى ولكن لم أيأس ولن أيأس باذن الله لان شباب كل قطر هم كنز المستقل وهم الذين سوف يخلقون عالم ـ الغد ـ والشباب السليم لا يمكن أن يخلقوا الا عالما سليما أفضل من العالم الذى نعيشه فى هذه الايام المضطربة ـ فى شبابى اعتنقت الدين الاسلامى الحنيف عن عقيدة وايمان بأن هذا الدين هو الطريق الصحيحة التى رسمها ربنا عز وجل لخلقه الضعيف بقصد هنائه ورخائه وسعادته الابدية ، ومنذ يوم دخولى فى حظيرة الاسلام لم يتزعزع ايمانى ولم أيأس من استرداد الاسلام والمسلمين مجدهم السابق قادة فى جميع ميادين العلم والحضارة والرقى الانسانى . كيف أيأس وقد بنيت الحضارة الاسلامية على أسس سليمة متينة فاذا استطاع المسلمون أن يبنوا فى الماضى صرحا أدهش العالم وملأ جميع الشعوب الاخرى هيبة واجلالا فأجدر بهم والاسس لم تزل سليمة متينة ان يبنوا صرحا من الحضارة أفخم وأروع مما شاهدته القرون الحالية اذ فى أيديهم جميع وسائل الحضارة الحديثة المادية وقد تعلموا كيف يستعملون هذه الوسائل . اذا تمسك المسلم بشخصيته وقيمه الخالدة ولا يمكن أن أتصور غير ذلك . فالمستقبل للعرب والاسلام . ولا أشك فى أنكم أيها الشباب العربى الجزائرى مقبلون على هذه المهمة السامية بقلوب فرحة نشيطة مليئة بحسب ديننا الحنيف وبالتفانى فى التضحية الى أقصى درجة للوطن والامة والانسانية كلها .

بارك الله فيكم وسدد خطاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حضـــارة ومنــــارة!(*)

للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة والسيدات

نختتم اليوم جهود أيام وليال عشر، علها تقينا اليوم وفي الحشر، إذ أزلتم بها عن اللباب الغطاء والقشر.

1- وقد تدارستم دور ما كان للإسلام من فكر وحضارة، وأمد به أوروبا والعالم من نور، وحياة، ونضارة، ورأيتم أن قد حان الوقت للجمع بين الجديد والأصيل، وأن في ذلك وحده الرأي والقول الفصل!

2- ونظرتم في ضرورة التعجيل لأمة الإسلام بالصناعة، التي تحقق القوة والمناعة، وقلتم إن التصنيع من الله واجب، إذ هو من الفقر والضعف ستار وحاجب، وفي الحديث الشريف أن "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"، وأن التجربة تعلمنا أن المتهاون في هذه القوة مهان معيف، على أن القوة المادية وحدها سراب، إذ في ترك الحصانة المعنوية هلاك وخراب!

3- وتأملتم في العبادات وانتهيتم إلى أن لها إلى شكلها معناها،

(*) كلمة اختتام الملتقى العاشر للفكر الاسلامي بعنابة



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية يلقى كلمة اختتام الملتقى بحضور السلطات المدنية والعسكرية فى الولاية نذكر منهم بالخصوص السادة : العقيد الهاشمى هجرس، رئيس المنطقة العسكرية الخامسة ، وأحمد على غزالى ، والى عنابة ، والمحافظ الوطنى للحزب

وإلى نصها مقصدها ومبناها، وأنها للمسلم والأمة دين ودنى،
وبها تحقق في هذه وفي الأخرى الآمال والمنى.

فشكرا لكم سادتي العلماء الأفاضل، إذ كان كل منكم
من أجل العلم والحقيقة الجندي، والمسبل، والمناضل!

وشكرا للسلطات في سيبوس[1] على كرم الوفادة، وهنيئا
لأهلها بما حرصوا عليه من نيل الإفادة.

ها نحن إخوتي الطلبة في نهاية الشوط، ولم نستعمل
معكم العصا ولا السوط، بل ولم نرفع حتى الصوت، مع ما فيها
للذهن من انفلاق، ولباب الفوضى من سد وانغلاق!

فإلى اللقاء جميعا ولنودع العنيبة، إلى تلك التي كانت
تصل إلى ونيبا[2]، إلى مدينة البئر والحاسي، التي تذكر
بماضيها وحاضرها الغافل والناسي، إلى معين النفط والغاز،
التي كانت بين الشمال ووسط إفريقيا الصلة والبوغاز، إلى
منبع العلم والطاقة، اللذين إذا ما كانا للشعب أزالا عنه الجهل
والفاقة، إلى اللقاء في دار الورجلاني، الذي نافس أمثال
سحنون، وبطوطة، والورتلاني، إلى الربيع في مدينة النور
والدقلة، إلى المجيدة الأثيلة: ورقلة!

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

1) سيبوس أحد الأسماء القديمة لعنابة واسم نهرها إلى اليوم.

2) ونيبا هي المدينة الثانية في غانا وكانت تابعة للدولة الرستمية عندما انتقلت إلى سدراتة- ورقلة.

توصيات
الملتقى العاشر للفكر الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم
توصيات اللجنة الاولى

موضوعها : ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين فى الغرب الاسلامى وخاصة فى بلدان المغرب ، وابريا ، وصقلية ، ودورهما فى النهضة الاوروبية ٠

اجتمع أعضاء اللجنة الاولى ليلتى 18 و 19 رجب 1396 (16 ، 17 يوليو 1976) المؤلفة من السادة :

ـ الاستاذ محمد عبد الله عنان . مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٠ — رئيسا

ـ الاستاذ يحيى بوعزيز، أستاذ بالمعهد التكنولوجى للتربية،وهران ٠ — مقررا

ـ السيد المهدى البوعبدلى ، مكلف بمهمة بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وعضو المجلس الاسلامى الاعلى ، وبحاثة فى التاريخ ـ الجزائر ـ — عضوا

ـ د ٠ جوزيف بيلافسكى ، رئيس قسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة فرصوفيا (بولونيا) ٠ — عضوا

د . هيرمان لاى ، أستاذ بجامعة هومبولدت ـ برلين (الجمهورية الديمقراطية الالمانية) . عضــــوا

ـ د . محمد موفاكو ، أستاذ بجامعة برشتينة (يوغوسلافيا) . عضــــوا

القاضى عبد الله المجاهد الشماحى ، مستشار بوزارة العدل ـ صنعاء ـ (جمهورية اليمن العربية) . عضــــوا

ـ د . سلفادور غوميث نوغاليس ، أستاذ فلسفة بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة ـ جامعة مدريد المستقلة ـ (اسبانيا) . عضــــوا

ـ د . عثمان أمين ، فيلسوف وأستاذ شرفى بكلية الآداب ، جامعة القاهرة (مصر) وعضو مجمع اللغة العربية بها . عضــــوا

ـ د . احسان عباس ، استاذ بالجامعة الامريكية ـ بيروت ـ (لبنان) عضــــوا

ـ د . ماريا خيسوس فيغيرا ، بحاثة بالقسم العربى والاسلامى بجامعة مدريد المستقلة ـ (اسبانيا) . عضــــوة

ـ د . محمد الشريف قاهر ، استاذ بمعهد اللغة والادب العربى ـ جامعة الجزائر . عضــــوا

ـ السيد عبد القادر الاخضر السائحى ، عضو المكتب الادارى لاتحاد الكتاب الجزائريين ـ الجزائر. عضــــوا

الاستاذ محمد الشمام ، استاذ مدرس ـ تونس ـ الجمهوريـة التونسيـة . عضــــوا

د . محمد عبد الرحمن بيصار ، وكيل الازهر ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية . عضــــوا

د . وداد القاضى ، استاذة بالجامعة الامريكية ـ بيروت ـ لبنان . عضــــوا

الاستاذ القاضى عبد الله المجاهد الشماحى ، مـؤرخ ووزيـر سابقا صنعــــاء ـ (جمهورية اليمن العربية) . عضــــوا

وتبين لهم بعد الاستماع الى بحوث السادة الاساتذة العلماء الذيـــن تناولـــوا الموضوع : أن العلوم الاسلامية والفكر الاسلامى ، وخواص المدنية الاسلامية قد تركت آثارها العميقة فى كثير من ميادين التفكير والعلوم والحضارة الاوروبية ولا سيما خـلال عصر الاحياء الاوروبى (لا رونيسانس) وذلك منذ القرن الثانى عشر الميلادى وحتى القرن الثامن عشر ·

وأن معظم هذه المؤثرات كانت ترجع بالاخص الى تراث العلوم الاسلامية المحضة كالطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضة والفلك ·

وان كثيرا من امهات الكتب العربية فى هذه الميادين قد ترجم الى اللاتينية وغيرها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ·

كما أن الاساتذة الذين تحدثوا عن ابن رشد والرشدية قد ابرزوا تاثير تفكير هذا الفيلسوف المسلم فى الفلسفة الاوروبية ·

وأخيرا فقد تبين من بحوث الاساتذة المحاضرين أن هذا التاثير لم يكن مقتصرا على الحقل العلمى بل تعداه الى الحقل الادبى حيث كان للآداب العربية من النظم ، والنثر ، والقصص أثرها فى كثير من نواحى الادب الاوروبى الحديث ·

ونظرا لكل هذه الاعتبارات رأى أعضاء اللجنة أن يوصوا المؤتمر بالعمل على تحقيق الامور التالية على صعيد العالم الاسلامى كله :

أولا : الاستزادة من البحوث والدراسات فى مختلف مجالات الحضارة الاسلاميــة والعمل على كشف الحقائق والوثائق التى تقدم جديدا فى هذا الميدان ·

ثانيــا : حث المجتمعات الاسلامية على اعتماد هذا التراث كأساس لنهضتها وبشكل خاص فيما يساهم فى الانطلاقة الحديثة ·

ثالثـا : انشاء مجلة دورية للتعريف والتدليل بالمكتشف من المخطوطات والوثائق المجهولة ، على أن يكون لها مراسلون من مختلف انحاء العالم ·

رابعـا : انشاء معجم أو دليل للتعريف بكل المهتمين والمختصين بالدراسات الاسلامية ومجالات نشاطهم ، وعناوين اقامتهم ، حتى يكونوا أدلاء للعاملين فى الحقل ·

بسم الله الرحمن الرحيم

توصيات اللجنة الثانية

موضوعها : « ضرورة التصنيع فى العالم الاسلامى ووجوب اختيار أحسن الطرق لتجنب أمراض المجتمعات الصناعية » ٠

اعضاؤها :

ـ السيد محمد الهاشمى بوجملين ، مدير صناعة الحديد والصلب والمعادن بوزارة الصناعة والطاقة ـ الجزائر ٠ — رئيسا

ـ د ٠ عمر التومى الشيبانى ، استاذ فى كلية التربية بجامعة الفاتح -طرابلس ـ (ليبيا) ٠ — عضوا

ـ د٠ اسماعيل راجى الفاروقى ، أستاذ الاسلاميات وتاريخ الاديان المقارن بجامعة تامبل ورئيس جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين (الولايات المتحدة الامريكية) ٠ — عضوا

ـ السيد اسماعيل العربى ، مستشار لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر -ومؤرخ- — عضوا

د· عبد الحليم عويس ، أستاذ بكلية الشريعة ، جامعة الامـام محمد بن سعود بالرياض (المملكة العربية السعودية) · عضـوا

ـ السيد عبد الكريم غزلون نائب مدير بالمرصد الفلكى ـ الجزائر عضـوا

ـ د· رشاد الامام أستاذ تاريخ بالجامعة التونسية ـ تونس · عضـوا

ـ د· صفوان قدسى ، رئيس تحرير مجلة المعرفة ـ دمشـق (الجمهورية العربية السورية) · عضـوا

ـ الاستاذ محمد أركون ، أستاذ بجامعة السوربون الجـديدة ـ باريس ـ (فرنسا) رئيسـا

ـ د· خير الله عصار ، أستاذ بالمعهد التكنولوجى لتكوين أساتذة التعليم المتوسط ـ بوزريعة ـ (الجزائر العاصمة) · مقـررا

فى اطار الملتقى العاشر للفكر الاسلامى المنعقد تحت اشراف وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينية بمدينة عنابة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، فى الفترة الواقعة ما بين 12 ـ 21 رجب 1396 هـ (10 ـ 19 يوليو 1976 م) ، اجتمعت اللجنـة الثانية المتخصصة فى دراسة النقطة الثانية بتاريخ 19 رجب 1396 هـ (17 يوليو 1976م)

انطلاقا من المحاضرات والمناقشات والتعقيبات ذات الصلة بموضوع النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى العاشر للفكر الاسلامى ، وبعد الاستماع الى أراء كافة أعضـاء اللجنة تلاحظ اللجنة ما يلى :

1 ـ أن العالم الاسلامى على اختلاف مستوياته الانمائية يعانى من تخلف فى شتى المجالات وبالاخص فى المجال الصناعى ·

2 ـ اخفاق النماذج الانمائية المتبعة لدى كثير من البلدان الاسلامية حتى الآن وخاصة تلك النماذج التى يفرضها عليها الاستعمار الجديد ·

3 ـ تزايد ضغوط الاستعمار الجديد على الحركات التحررية الاقتصادية والاجتماعية فى كثير من البلدان الاسلامية ·

4 ـ ادعاء القيادات الاقتصادية فى كثير من البلدان الاسلامية بالقيام بمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية المطلوبة رغم اخفاقها الملحوظ فى ذلك ·

5 ـ ان هذه الاسباب مجتمعة لتشكل عقبات تحول دون تحقيق تنمية تستجيب الى تطلعات الجماهير فى كثير من البلدان الاسلامية ·

6 ـ وجود امكانيات انمائية غير مستغلة لدى البلدان الاسلامية ·

وبناء على ما تقدم توصى اللجنة بما يلى :

أولا : الضرورة الملحة على البلدان الاسلامية لتصنيع حقيقى يدرج فى سياسة انمائية شاملة قائمة على التخطيط ترمى الى ازالة العقبات الآنف ذكرها وبناء مجتمع اسلامى خال من استغلال الانسان لاخيه الانسان ·

ثانيا : ولبلوغ هذا الهدف يتعين على البلدان الاسلامية أن تصنع نموذجا للتنمية قادرا على تعبئة جميع القوى البشرية والمادية المتوفرة لديها فى ظل القيم الاسلامية ·

ثالثا : بعد القيام بزيارة استطلاعية لمركب (مجمع) الحجار للحديد والصلب بالجزائر ، فان اللجنة تلاحظ بروز اهتمام متزايد من قبل الملتقين ببعض المشكلات التى قد تنجم عن دفع عجلة التصنيع وما قد يترتب على ذلك من أثر فى تأدية بعض العبادات·

رابعا : وعليه فان اللجنة توصى بتنظيم تبادل الرأى فى التجارب الانمائية بين البلدان الاسلامية حفاظا على القيم الحضارية الاسلامية ·

خامسا : الاهتمام باليد العاملة الفنية والكفاءات العلمية وتشجيعها كى تساهم فى تطور الصناعة ·

سادسا : تكييف بناء المنشآت الصناعية فى البلدان الاسلامية وفق ما يلبى فى الانسان المسلم متطلباته الروحية ·

سابعا : تدعيم التعاون بين البلدان الاسلامية فى شتى المجالات دون تأثر هذا التعاون بالانظمة الاقتصادية والاجتماعية القائمة فيها ·

ثامنا : الاقبال على تدريس العلوم الانسانية الضرورية لتفهم الاسلام فهما صحيحا وللتوفيق بينه وبين الاوضاع الجديدة المترتبة على التطور الصناعى ·

تاسعا : ضرورة تسخير البلدان الاسلامية نظامها التعليمى لخدمة برامج التنمية .

عاشرا : تشجيع علماء الشريعة والدراسات الاسلامية بالتعاون مـــع زملائهم ذوى التخصصات الاخرى ، على اجراء مـــزيد من الدراسة الواعية لمشكلات العصر والتنمية بغية تحديد موقف الشريعة الاسلامية منها .

بسم الله الرحمن الرحيم
توصيات اللجنة الثالثة

موضوعها : « الابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية للعبادات ، وأهميتها لكل من الامة والفرد » .

ـ د . محمد فاروق النبهان ، أستاذ بكلية الحقوق والشريعة ، جامعة الكويت .	رئيسا
ـ الاستاذ الاكحل بن حواء ، محام ـ الجزائر .	مقررا
ـ د . محمد سعيد رمضان البوطى ، عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق (الجمهورية العربية السورية) .	عضوا
ـ د . مصطفى الزرقاء ، أستاذ الشريعة بالجامعة الاردنية .	عضوا
ـ د . عبد الحليم عويس ، مدرس بكلية الشريعة ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض (السعودية) .	عضوا
ـ د . داود كاون ، أستاذ بقسم الشرق الادنى والاوسط ، معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، جامعة لندن (بريطانيا) .	عضوا

ـ د . رشيد مصطفاى ، أستاذ بمعهد اللغة والادب العربى ، جامعة الجزائر . عضـــوا

ـ د . محمد المبارك ، أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية مكة المكرمة (السعودية) . عضـــوا

ـ القاضى عبد الله المجاهد الشماحى ، مستشار بوزارة العدل صنعاء (جمهورية اليمن العربية) . عضـــوا

ـ د . سعيد شيبان ، أستاذ بكلية الطب ، جامعة الجزائر . عضـــوا

ـ د . حامد الجار ، أستاذ بقسم دراسات الشرق الادنى ، جامعة بركلى ـ كاليفورنيا ـ (الولايات المتحدة الامريكية) . عضـــوا

ـ السيد عبد الرحمن شيبان، مفتش عام بوزارة التعليم الابتدائى والثانوى ـ الجزائر . عضـــوا

ـ الاستاذ محمد الصادق بسيس ، أستاذ بكلية الشريعة وأصول الدين ـ تونس . عضـــوا

ـ الاستاذ عبد الوهاب حمودة ، أستاذ بكلية الآداب، جامعة الجزائر عضـــوا

ان اللجنة الثالثة المنبثقة عن ملتقى الفكر الاسلامى العاشر المنعقد بعنابة فى الفترة ما بين 12 و 21 رجب 1396 (10 ـ 19 يوليو 1976) ، والمنوط بها دراسة أثر العبادات الاسلامية فى المجتمع اقتصاديا وسياسيا وثقافيا واجتماعية قد باشرت عملها منطلقة من الوعى بالحقائق التالية :

1 ـ ان العبادات الاسلامية لا تنحصر فى اقامة الشعائر الدينية ، وانما تتعداها الى كل عمل فيه خير ونفع للفرد والمجتمع ٠

2 ـ ان العبادة فى الاسلام هى الشريان الواصل بين جذور العقيدة وثمار التشريع والاخلاق الفاضلة ٠

3 ـ ان العبادة الاسلامية لها أثرها فى الحياة الاجتماعية ، حيث توقظ فى كيان المسلم مشاعر الرقابة الالهية لكل حركاته وسكناته ٠

4 ـ وانها ـ أيضا ـ تسهم فى اقامة البنية الاقتصادية السليمة فى حياة المسلمين · ان من الثابت أن الاقتصاد لا ينهض الا على قاعدة اخلاقية سليمة ·

5 ـ وان للعبادات دورها فى تحقيق أسباب السياسة الحكيمة الراشدة لانها تربى فى الحاكم والمحكوم خشية الله ومراقبته ، وتدفعه للعمل للصالح العام ·

أجل ··· فى ظل الوعى بهذه المنطلقات الاساسية والادراك لاهميتها ، اجتمعت اللجنة بتاريخ 19 رجب 1396 (17 يوليو 1976) ، وبعد استيعاب ما القى من محاضرات وما دار من تعقيبات ومناقشات أثرت الموضوع ، انتهت الى اتخاذ التوصيات التالية :

أولا : ضرورة تنظيم الحياة اليومية وبخاصة فى الحقل المدرسى ـ بما يتلاءم مع واجبات وأسس التربية الاسلامية ·

ثانيا : اتخاذ ما يلزم لتوعية الآباء بتعويد أبنائهم على أداء الصلوات منذ الصغر والالتزام بالاخلاق الاسلامية ·

ثالثا : يوصى الآباء والامهات بأن يكونوا قدوة حسنة لاولادهم فى الالتزام بالسلوك الاسلامى واقامة الشعائر ·

رابعا : ضرورة وجود مصلى فى كل مدرسة وثانوية وجامعة وأية مؤسسة عامة ، واعتبار ذلك ركنا أساسيا ، فى تأسيسها ، واستكمال المؤسسات القائمة ·

خامسا : مراعاة الجانب الدينى عند اختيار المسؤولين عن المدرسة أو أية مؤسسة أخرى ، ضمانا لتسيير الامور على النهج الاسلامى والقدوة الحسنة ، وتوعية القائمين حاليا بواجباتهم تجاه القيم الاسلامية ·

سادسا : صبغ البرامج المدرسية ومناهجها ـ على اختلاف المراحل ـ بروح الاسلام ومبادئه ·

سابعا : توعية المسؤولين فى كل موقع والموظفين على اختلاف مراتبهم بأهمية التربية الاسلامية والضمير الاسلامى فى مجال الحياة العملية ورقى الامة ·

ثامنا : تمكين جميع العمال فى المصانع والمعامل من أداء الشعائر الدينية فى أوقاتها، وذلك بتوفير المساجد أو المصليات فى هذه المؤسسات بحيث يكون من حقهـم اداريا ممارسة الشعائر ، وبحيث يسهل لهم أداؤهـا ٠

تاسعا : توجيه المربين ووسائل الاعلام الى القضاء على مظاهر الانحراف ودواعيه التى تصرف الشباب عن سبيـل الاستقامة وتعيقه عن أداء الواجبات الاسـلامية واسهامه المنشود فى رقى أمتـه ٠

عاشرا : تنشيط دور المسجد والعودة به الى رسالته الاجتماعية والثقافية والدينية المتكاملة ، حتى يؤدى دوره ورسالته التى أداها فى صدر الاسلام وفى عصور ازدهار الحضـارة الاسـلامية ٠

حادى عشر : توفير الكتب والمجلات الدينية ، وجعلها فى متناول القراء ، والاسهام فى تخفيض أسعارها ، ونشرها بين أوساط الشباب ٠

ثانى عشر : نشر التـوعية الاسـلامية بين أفـراد الجيش والبوليس (الشرطـة) وتخصيص أماكن للصلاة فى الثكنات ومراكز الشرطة

ثالث عشر : تنبيه الافراد ـ بالطرق الممكنة ـ ليؤدوا الـزكاة بأنواعها المختلفة الى مستحقيها ٠ وحبذا أن تشكل لجان لجمع هذه الزكاة ، مع مـراقبة صرفهـا لمستحقيها المحددين شـــرعا ٠

رابع عشر : مطالبة وسائل الاعلام ـ بمختلف أنواعها ـ بأن تؤدى واجبها فى مجال تعميق التربية الاسلامية ، وفى نشر القيم والعبادات بالطرق الجذابة والمواقف العملية القادرة على التأثير ، وأن تتجنب هذه الوسائل تقديم المواد التى تتنافى مع الاخـلاق الاسلامية وجـادة الحياة ٠

خامس عشر : توصى اللجنة بالعمل على تعليم وتعميم اللغة العربية فى البلاد الاسلامية وبين الجاليات الاسلامية فى غير البلدان الاسلامية ، نظرا لضرورة هذه اللغة فى أداء العبادات .

سادس عشر : واللجنة ـ فى نهاية توصياتها ـ تناشد المسؤولين فى العالم الاسلامى أن يأخذوا بعين الاعتبار تطبيق هذه التوصيات ، أداء لحق الله ، وتأدية للواجب الملقى على عاتقهم نحو أمة الاسلام .

والله الموفق والمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

فتـــوى

حول ما يرخصه الشرع للعاملين بمصنع «مركب الحديد والصلب بعنابة» فى مواجهة الفرن النارى والحديد المصهور، وكذلك العمال بالمصانع الاجنبية

نظرا للتساؤلات التى وجهت الى أعضاء ملتقى الفكر الاسلامى العاشر بمدينة عنابة (10 ـ 1976/7/19 م) حول رأى الشرع فى إفطار العمال الذين يعملون فى مواجهة الفرن العالى الحرارة والحديد المصهور أو المحمى الى درجة عالية اذا جاء عليهم شهر رمضان ، حيث يتعرضون فى الصيام لمشقة كبرى لا تطاق .

وكذلك حال العمال المسلمين عموما الذين يعملون خارج العالم الاسلامى كفرنسا وغيرها فى معامل ومصانع لا تراعى فيها أوضاع العمال المسلمين .

نظرا لهذه التساؤلات ، ولما اطلع عليه أعضاء الملتقى مجتمعين حين زاروا المعمل المذكور ، ورأوا المشقة المتجاوزة للحدود التى يحتملها العامل اذا هو التزم الصيام ،

نظرا لهذا كله اجتمعت لجنة مشكلة من الاساتذة :(1)

1 ـ الدكتور مصطفى الزرقا	رئيسا
2 ـ الدكتور محمد المبارك	عضوا
3 ـ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى	عضوا
4 ـ الدكتور محمد فاروق النبهان	عضوا
5 ـ الدكتور عبد الحليم عويس	مقررا

(1) أنظر تخصصاتهم فى قوائم لجان توصيات الملتقى ، ص 182 ـ 190 .

وبعد دراسة وضع العمال السالفى الذكر ـ رأت اللجنة ـ بالنسبة الى صيـــام العمال فى معمل الحديد والصلب خاصة ـ ما يـلى :

أولا : اذا كانت هذه الصناعة تستدعى بقاء الفرن ذى الحرارة العليا مستمرا ليـلا نهارا دون توقف ، وكان العمال فيه يتناوبون على الاوقات كل ثمانى ساعات ، فـان العمال الذين يصادف عملهم فى مواجهة الحديد المحمى أو المصهور ـ وقت النهار ـ يجوز لهم الافطار ، على ان يقضوا الايام التى يفطرونها فى أوقات أخرى ، غير مقيدين بالتتابع فى القضـــاء ٠

ثانيا : أما العمال الذين يصادف عملهم ليلا ، واما الاداريون،والذين يكـون عملهم بعيدا عن مواجهة الفرن أو الحديد المصهور أو المحمى ، كعمال التعبئة،والتخريم،والطلاء، وغير ذلك من أنواع العمل المعتاد ـ فلا يجوز لهم الافطار ٠

ثالثا : واذا كان من الممكن للمسؤولين ـ وامرهم الى الله فى ذلك ـ توقيف الفـرن نهارا وتشغيله ليلا ، فان عليهم ان ينظموا العمل فى رمضان على هذا الاساس ٠ وحينئذ تندفع الحاجة الى أفطار العامل فى مواجهة الحديد والصلب ٠

رابعا : وفيما يتعلق بأولئك العمال الذين يعملون فى أعمال شاقـة خارج البلدان الاسلامية ـ وهم محتاجون الى العمل فيها ولا يستطيعون الاستغناء عنه، وكان عملهم ذلك يحملهم فى الصيام مشقات تتجاوز المعتاد ، فان عليهم كذلك ان يفطروا ويعوضوا بايام أخرى غير مقيدين بالتتابع ، على ان يحاولوا فى أول فرصة الانتقال الى عمل آخر يستطيعون فيه تحمل الصيام ٠

خامسا : على المسؤولين فى كل بلد اسـلامى ترتيب الاعمال بوجه عـام ، والمعامل والمصانع بصفة خاصة ـ على وجه يساعد العاملين فيها على أداء فرائضهم من صلاة فى أوقاتها ومن تحمل للصيام . فذلك خير وابقى ٠ وبالله التوفيق ٠

أعضـــاء اللجنـة

عادت الجمعة ، كما عاد كتشاوة
والعـود احمد !

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع الانبياء والشهداء والصالحين ، وعلى التابعين المنهاج القويم الى يوم الدين ، واشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين وان محمدا رسول الله الصادق الامين •

اما بعد ـ أيها الناس ـ فان أجل ما نحمد الله عليه أن هدانا للاسلام ، وجعلنا من أمة خير الانام ، خير امة أخرجت للناس هادية بهداية الله مهدية ، متبوعة لاتابعة قد شرع الله لها كل ما يصلحها في دنياها ويسعدها في اخراها ، وما لحق رسول الله بالرفيق الاعلى حتى تركنا على المحجة البيضاء •

لقد اختار لنا فيما اختار أعيادا ومواسم ، وسنت لنا فيها عبادات • واذن لنا في عادات من التوسيع على العيال وتناول الطيبات ، واظهار الزينة في اللباس •

ومن هذه الاعياد الاسلامية عيد يتكرر كل أسبوع هو يوم الجمعة ، قد هدانا الله اليه وجعلنا فيه متبوعين غير تابعين ، ونبهنا الى ذلك رسول الله (ص) فيما رواه البخارى أنه قال : « هدانا الله ليوم الجمعة والناس لنا تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » • وقد صح عنه أيضا قوله (ص) : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » • وفيه فرضت صلاة جامعة يؤم فيها المسلمين الامام الاعظم أو من ينوبه يرشدهم ويربيهم ويعلمهم ما يصلح دينهم ودنياهم •

وقد أمر النبيء فيه بالتنظيف والتجمل شأن الناس يوم العيد • فعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ص) قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ويلبس من صالح ثيابه ، وان كان له طيب مس منه » رواه أحمد • وعن أنس وابن عباس وغيرهما من الصحابة أن رسول الله (ص) قال في قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » قال : ليس يطلب الدنيا ولكن عيادة مريض وحضور

(1) خطبة الجمعة المذاعة يوم فاتح رمضان 1396 ـ 27 أوت 1976 • وهو اليوم الذى عادت فيه العطلة الاسبوعية الرسمية فى الجزائر الى يوم الجمعة عوض الاحد الذى كان حل محله منذ 1830 •

جنازة ، وزيارة أخ • فدل هذا على أنه يوم راحة • وعلى هذا سار المسلمون فى حياتهم الاجتماعية واعتبروا الجمعة يوم عيد وعطلوا فيه أعمالهم ، وأظهروا فيه زينتهم وبهجتهم •

ومن هذه الامم الاسلامية وشعوبها الجزائريون ، كان عيدهم الاسبوعى ، ومظهر عزة دولتهم حتى نزل الاستعمار الغشوم ، وقرر القضاء على مقوماتنا بعد القضاء على استقلالنا ، فنسخ راحة الجمعة ، وفرض علينا يوم الاحد كما حاول أن يخفت صوت الاذان ، ويعلن صوت النواقيس •

ولما انتهى عهد الاحتلال ، واسترجع الاستقلال ، فان المنطق ، والتاريخ،والذوق السليم ، والحشمة ، والاحترام لانفسنا ، كل هذا كان يقضى أن يعود يوم العطلة هو يوم الجمعة ، كما كان الامر فى عهد الدولة الجزائرية قبل 1245 هـ وبالضبط 5 يوليو 1830 م ، حيث كان يوم الجمعة حتى ذلك اليوم المشؤوم هو يوم العطلة الرسمية للامة الجزائرية •

فى اللحظة التى وضع فيها الماريشال دوبورمون فى ذلك اليوم المنحوس العلم الفرنسى مكان العلم الجزائرى على قصر رئيس الدولة الجزائرية ، ووضع فيه الصليب على أعلى مرتفع فى عاصمة الجزائر ، وهى صومعة جامع كتشاوة الذى حولوه ابتداء من ذلك اليوم الى كنيسة ، حولوا يوم العطلة الاسبوعية من الجمعة الى الاحد ، كما ذكرت بذلك جريدة لوموند الفرنسية منذ سنوات مضت •

وكانوا يقصدون بغزو الجزائر ، زيادة عن الاستعمار الاقتصادى والاستيطانى ، مسخ البلاد دينيا ، وهو ما يسمونه بالتمسيح ، كما صرح بذلك شارل العاشر ، ملك فرنسا ، الذى وقع العدوان الفرنسى على الجزائر فى عهده ، حيث قال يوم احتلال عاصمة الجزائر ، « ان فرنسا ، بغزو الجزائر ، تؤدى رسالة للمسيحية فى مجموعها ! » ومن هنا أيضا وقف الكاردينال لافيجرى الى جانب الماريشالات والجنرالات يردد فى جامع كتشاوة : « ها قد عادت روما » !

وهكذا كانت عطلة يوم الاحد حلقة فى هذه السلسلة المترابطة المحكمة التى قصد بها مسخ المعالم الاسلامية للجزائر ، وصبغها بصبغة مسيحية ممسوخة ، بدأوها باستبدال دولة بدولة ، وعلم بعلم ، ولغة بلغة ، وعادات بأخرى ، ومنها الاستعاضة عن الجمعة بالاحد ، وهو موضوع الحديث •

ومن هنا كان الاستمرار فى الجزائر التى استعادت حريتها واستقلالها على هذا الشذوذ خطا ، وكان تحرير يوم الجمعة عليها من ربقة الاستعمار واجبا ، يدخل فى باب التحرير العام للبلاد والعباد ! وكما عاد جامع كتشاوة الى عزته ، عاد يوم الجمعة الى قدسيته ، عاد الى ما كان عليه وينبغى أن يكون ، وللامم أيامها !

وانها لمناسبة طيبة قد اختيرت لتحرير يوم الجمعة وعودته الى أصله : وذلك بافتتاح رمضان المبارك ، وفى سنة الميثاق الوطنى • واننا لنرجو ان تسلك هذا السبيل الـــدول العربية والاسلامية الاخرى من تلك التى لا تزال حتى اليوم ، مثلنا بالامس ، تحتفـــل بالاحد عوض الجمعة •

وعلى كل فان هذا ما قررته قيادتنا الثورية ابتداء من هذا اليوم المبارك • فان شعب الجزائر شعب مسلم أصيل ، والاسلام دين الدولة ، يؤكد ذلك الميثاق الوطنى ، وان القيادة التى اتخذت هذا القرار قد توصلت اليه بعد دراسة طويلة عميقة بعناية واهتمام لكـافة انعكاساته ، وتاكدت من نتائجه الايجابية ، وتحققت أن استراحة يوم الاحد انما تعتبـر احدى مخلفات التاثير الاجنبى وليس لها علاقة ما بتقاليدنا ، وحضارتنا ، وديننا •

عبـــاد اللـــه ،

اننا فى رمضان المبارك شهر زيادة الاحجام عن المعاصى ، وزيادة الاقدام على العبادة والعمل ، وان العمل لعبادة كما يقول الحديث الشريف ، ورمضان الذى يذكرنا باستمرار بفضائل النظام والانضباط ويحثنا على التحلى بمزايا التضحية والتغلب على النفس لا ينبغى أن يزيدنا الا قوة على هذا العمل الذى يزيد من عزة الامة وقوتها،ويحقـــق لها رفاهيتها وازدهارها،ويضمن لها دنياها وأخراها •

واننا لنهيب هذه المرة،وأمتنا بصدد انطلاقة جديدة ، بزيادة الحرص على التمســك بفضائل هذا الشهر وبالتشدد فى احترامه ، هذا الشهر الذى ينبغى أن يجدد شحنتنا المعنوية كل سنة بانتظام ، ويفرض علينا ، بالتالى ، أن نبذل قصارى جهودنا لاعطائه الوجه المشرق الذى يستحقه مخبرا ومظهرا ، أى فى السر والعلانية ، وحتى الذين تجيز لهـــم الشريعة الافطار فى هذا الشهر فى الحدود المعلومة ، كالمرضى ، والمرضعات ، والعجزة ، والمسافرين ، وغيرهم ، وكالذين صدرت فى شانهم الفتوى فى عنابة ، ممن يقابلون الحديد والنـــار فى المصانع أو المزارع ، يرجى منهم التستر ، كما تنص على ذلك حرفيا آداب رمضان •

اتقوا الله عباد الله واخشوا يوما يجعل الولدان شيبا • واستغفروه يغفـــر لكم ، وتوبوا اليه ان ربى غفـــور رحيـــم •

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنـــا عـــذاب النـــار • ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم • غفر الله لنا ولكم ولوالدينا ولوالديكم وللمؤمنين أجمعين •

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

عباد الله : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشـــاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » •